آخر سلالة

(رواية)



رضا الحكيم الشعيري

آخر سلالة

رواية

رضا الحكيم الشعيري

آخر سلالة

رضا الحكيم الشعيري

الطبعة الأولى، 2026

© 2026 رضا الحكيم الشعيري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

لا يجوز نسخ هذا الكتاب أو إعادة نشره، كليًا أو جزئيًا، بأي وسيلة، دون إذن كتابي من صاحب الحقوق، باستثناء الاقتباسات القصيرة لأغراض النقد والمراجعة.

هذه رواية. شخصياتها وأحداثها متخيّلة، وأي تشابه مع أشخاص أو وقائع حقيقية محض مصادفة.

إهداء

إلى كل من أحبّ، وخاف،

ومدّ يده لينقذ حياةً أخرى.

وإلى عالمنا، بكل ما فيه من نقص،

وبكل ما لن يعوّضه شيء حين يغيب.

الفهرس

القسم الأول — أشياء نفعلها كي نعيش

الأول · جرح في البيت 8

الثاني · مدينة لا تنتظرنا 19

الثالث · اليد الجديدة 31

الرابع · اختبار على جسد حي 42

الخامس · جيل لا يعرف الانتظار 53

السادس · قرار العبور 64

القسم الثاني — الضفة الأخرى

السابع · مصنع الأجساد 78

الثامن · وجهها الأول 85

التاسع · الأطفال الذين عاشوا 94

العاشر · الطفل الذي يريده الجميع 102

الحادي عشر · بيت هالة 110

الثاني عشر · ما أنقذ الجدة 119

الثالث عشر · أنت تتحدث عنا 127

الرابع عشر · سقوط آخر أمل 138

الفهرس — تتمة

القسم الثالث — ما نختار إنقاذه

الخامس عشر · الماء عند العتبة 149

السادس عشر · موافقة ابنة 155

السابع عشر · زمنان في غرفة واحدة 162

الثامن عشر · العبور الثاني 168

التاسع عشر · رائد تحت الأنقاض 174

العشرون · النجاة 182

الحادي والعشرون · قرار رحيم آخر 188

الثاني والعشرون · تفكيك البيت 194

الثالث والعشرون · الذين أنقذناهم 201

القسم الرابع — عالم بلا أصحابه

الرابع والعشرون · أربعون عامًا من النجاح 208

الخامس والعشرون · وفاة لا تُصلح 220

السادس والعشرون · المدن التي تركناها 229

السابع والعشرون · المائدة التي تصغر 237

الثامن والعشرون · ما لا تستبدله اليد 246

التاسع والعشرون · لا أحد يتذكر الرائحة 255

الثلاثون · انتهاء حقبة 264

القسم الأول

أشياء نفعلها كي نعيش

الفصل الأول

جرح في البيت

طنجة، ربيع 2246

كان الدم قد بلغ حافة لوح الخشب حين قالت نور إن السكين باردة.

رفع يونس رأسه عن الإبريق. رأى إبهامها ثابتًا إلى جوار حبة الطماطم، والسكين في يدها الأخرى، ثم قطرة تسقط على البلاط بين قدميها الحافيتين. لم تسحب يدها. ظلت تنظر إلى النصل بانزعاج صغير، كأنها وجدت عيبًا في أداة كانت تعمل جيدًا أمس.

قال: «اتركيها.»

التفتت إليه. في اللحظة التي تحركت فيها شفتاها لتسأل، أفلتت السكين وارتطم مقبضها بالأرض.

«آه!»

جاءت الصرخة متأخرة. لم يكن التأخر طويلًا؛ أقل من الوقت الذي يحتاج إليه المرء لينادي شخصًا في الغرفة المجاورة. لكنه ترك في يونس فراغًا لم يستطع ملأه وهو يقطع المسافة بين الموقد والطاولة.

كانت ميرا أقرب. أمسكت معصم نور، وأبعدت اللوح عن حافة الطاولة، ثم شدت من العلبة المثبتة قرب الحوض قطعة شاش. انثنت سبابتها اليسرى قليلًا أكثر مما ينبغي. رآها يونس ترد الإصبع إلى موضعه بإبهامها قبل أن تضغط على الجرح.

«أريني.»

قالت ميرا، من غير أن ترفع يدها: «اضغط هنا أولًا.»

وضع إصبعيه فوق الشاش. جلست نور على الكرسي الذي دفعته أمها بركبتها، وضمت قدميها إلى عارضته السفلى.

«قلت لك إن هذه السكين حادة»، قال.

نظرت إليه نور نظرة يعرفها: النظرة التي تقول إنه يستطيع أن يكون طبيبًا أو أبًا في هذه اللحظة، لكن محاولته أداء الوظيفتين معًا ستفسد إحداهما.

«وأنا قلت لك إنها كانت باردة.»

«النصل يبرد قرب النافذة.»

«لم أقل إنه كان قرب النافذة.»

رفع الشاش بحذر. شق صغير في الجانب الداخلي للإبهام، يكفي ليفسد صباحًا ولا يكفي عادة لإخافة طبيب. غسل الجرح، وقرب حافتيه، وأعطى ميرا اللفافة الرقيقة. مدتها بيدها اليمنى، بينما بقيت اليسرى على ركبة نور، ساكنة على نحو متعمد.

من النافذة المفتوحة جاء صوت احتكاك خفيف. كانت وحدة تنظيف تتقدم على الجدار الخارجي، ست قوائم تنتهي بأقراص صغيرة، وفي بطنها خزان ماء عكر. توقفت حين أحست بفتحة النافذة، واستدارت لتلتف حولها. وراءها، في المضيق، قطعت سفينة شحن بيضاء خيط الضوء الممتد من جهة الشرق. لا مقصورة مرتفعة في مقدمتها، ولا ظل لأحد على سطحها. إلى جوار السفينة سارت آلتان بحريتان منخفضتان، تلمع على ظهريهما قطرات لم تجف بعد.

مد يونس يده إلى النافذة ليغلقها، ثم تذكر أن المفصل السفلي عالق. كان عليه أن يرفع الإطار قليلًا قبل أن يجذبه. فعل ذلك بكتفه، وعاد إلى نور.

«متى شعرت بالألم؟»

«حين قلت آه.»

ابتسمت ميرا. لم يبتسم هو.

«قبل أن ترمي السكين أم بعدها؟»

هزت نور كتفها. «لا أعرف. جرحت نفسي، يا أبي. يحدث هذا للناس.»

عرف من طريقتها في نطق الكلمة الأخيرة أنها سمعت خوفه قبل أن يسمعه هو. ترك يدها، ثم أخذها ثانية بحجة النظر إلى الضماد.

في الخامسة عشرة كانت أصابعها أطول من أصابع أمها، وأظافرها مقصوصة بغير انتظام لأنها تقصها بأسنانها حين تركز في شيء. فوق الظفر الأوسط بقعة زرقاء من صباغ استخدمته في اليوم السابق. لم يزلها الغسل. طمأنه هذا العيب الصغير أكثر مما طمأنته حافتا الجرح المتقاربتان.

طلب منها أن تغمض عينيها، ولمس طرف إصبعها الصغير.

«أي إصبع؟»

«هذا الذي تلمسه.»

«نور.»

«الصغير. وهذه البنصر. وإذا واصلت، سنصل إلى الإبهام الذي قطعته قبل قليل.»

أعاد الاختبار في اليد الأخرى. أجابت بسرعة، ثم فتحت عينًا واحدة لتنظر إلى أمها.

قالت ميرا: «دعيه ينتهي.»

كانت قد أبعدت السكين وغسلت الدم عن البلاط. بقيت نقطة عند مفصل إصبعها، فلم تمسحها. لمح يونس رجفة قصيرة في يدها اليسرى، رجفة تنتهي قبل أن تستقر عليها العين.

«وموعدك؟» سألها.

«غدًا.»

«قلت غدًا يوم الخميس.»

«وهذا الغد حجزته بالفعل.»

انحنت نور لتتفقد قدمها. كان الدم قد مس ظفر الإصبع الكبير، ففركته بطرف القدم الأخرى.

«سننتهي كلنا في الورشة»، قالت.

«أنت في العيادة»، قال يونس.

سحبت يدها من بين يديه ببطء، منحته وقتًا ليشعر بأنه هو الذي أطلقها. عاد إلى الإبريق. انكمش النعناع في الماء، وارتفعت منه رائحة مرّة. أطفأ الموقد قبل أن يفور، ثم وجد أنه لا يتذكر متى أشعله.

كان هذا المطبخ أصغر مما توحي به النافذة. إذا جلس الثلاثة وجب أن يختار الداخل طريقه بين ظهر ميرا والموقد. على الحائط مقابل البحر ثبتت بلاطتان مختلفتان عن بقية البلاط؛ كسر يونس القديمتين حين حاول تعليق خزانة، وأصرت ميرا على ترك البديلتين ظاهرتين. قالت يومها إن البيت ينبغي أن يحتفظ بما فعلوه به. تحت البلاطتين امتد خط من علامات القلم، سنوات نور الأولى، مع تاريخ قصير عند كل ارتفاع. في العلامة الأخيرة بالغت نور بمقدار إصبع، وادعت أن الأرض هبطت.

نظر يونس إلى الخطوط وهو يقسم الخبز. كانت آخر علامة صحيحة أسفل كتف ميرا؛ الآن كانت البنت تجادلها في الوقوف إلى الحائط، خشية أن يتبين أنها تجاوزتها فعلًا.

حين سكن النزف، مالت نور إلى علبة الشاي وأخرجت منها ملعقة صغيرة، ثم أعادتها. كانت تفتش عن السكر الذي نقلته ميرا إلى خزانة أعلى منذ أن غزت المطبخ حشرات دقيقة.

قال يونس: «على يمينك.»

مدت يدها إلى اليسار متعمدة هذه المرة، ونظرت إليه. خفّ شيء في وجهه، فأدركت أنها نجحت. تناول السكر ووضعه قربها، ثم أعاد الكيس إلى موضعه الأول.

«أحتاج منك خدمة»، قالت.

«قولي.»

«إذا سألتك المعلمة عن المشروع، لا تقل إنك أصلحت الخشب.»

«أنا أصلحته.»

«أمسكته حتى يجف. هذا لا يجعلك صاحب المشروع.»

قالت ميرا: «له حصة في ضغط الخشب.»

«حصة صغيرة.»

تذكر يونس كيف كان يمسك الإطار في الليلة السابقة، وكيف جاءت نور بكوب ماء فوضعته قرب يده لأن عليه ألا يتحرك. استغلت حاجتها إلى مساعدته لتصدر إليه تعليمات بصوت يشبه صوته في العيادة. كانت فرصة نادرة لأن يكون نافعًا بالطريقة التي تختارها هي.

قال: «سأقول إنني كنت تحت إشرافك.»

«هذا صحيح.»

من الحائط القريب جاء صوت طرق خفيف، ثلاث نقرات تفصل بينها مهلة. نظرت ميرا إلى الساعة، ثم نهضت. فتحت الخزانة وأخرجت علبة معدنية فيها مفك صغير وقطعتان من مادة لاصقة.

«باب السيدة زهور؟» سأل يونس.

«الحساس. كلما جاءت من السوق يتعرف إلى عربة المشتريات قبل أن يتعرف إليها، ثم ينتظر حتى تمر العربة كي يفتح.»

قالت نور: «يمكنها أن تغير الباب.»

«تستطيع.»

«لماذا لا تفعل؟»

«المقاس الجديد يحتاج إلى تعديل الجدار. قالت إنها تستطيع الانتظار عشر ثوانٍ أكثر، لكنها لا تستطيع تنظيف غبار البناء شهرًا.»

حملت ميرا العلبة باليمنى، وخرجت. سمعاها تتكلم مع الجارة في الممر، ثم ضحكة المرأة، ثم اعتراضًا من الباب على الاقتراب من موضع الحساس. قال صوت ميرا اسمها بوضوح، فسكت الباب. قالت زهور: «واخا، هي تدخل وأنا نبقى برا؟»

أمالت نور رأسها لتسمع. «يعرف أمي أكثر من صاحبة البيت.»

«لأن أمك هي التي تصلحه.»

«هذه مشكلة.»

كان يريد أن يقول إن الباب القديم لم يكن يعرف أحدًا ومع ذلك فتح للجميع بالمفتاح المناسب، لكنه تذكر اليوم الذي أُغلقت فيه زهور على نفسها بعد سقوطها، وكيف فتح الحساس للجيران من تلقاء نفسه. بقي ينظر إلى الخبز. كانت لكل حجة في هذا البيت امرأة يعرف اسمها.

عادت ميرا بعد دقائق، ومعها صحن صغير من عجين مقلي. قالت إن زهور صنعت أكثر مما تحتاج، وإنها تصر على أن يأكله أحد قبل أن يبرد. مدت نور يدها، ثم ترددت بسبب الضماد. قسم يونس القطعة من غير أن يعلق.

قالت ميرا: «سأمر عليها بعد الفحص.»

«ويدك؟»

«لم أستخدمها.»

لم يكن هذا جوابًا يريحه. لكنه رأى في وجهها ما رآه أحيانًا في وجوه مرضاه حين يريدون أن يحافظوا على شيء يفعلونه للآخرين، مهما كثر ما صار الآخرون يفعلونه لهم. أبعد العلبة عن حافة الطاولة، وصب لها الشاي.

جلست نور تأكل بيدها السليمة. التصق طرف من السكر بشفتها، فمسحته بكم قميصها. كاد يونس ينبهها، ثم ترك القميص يتسخ. كان في الصباح متسع لهذا النوع من الخسائر الصغيرة.

«هل ستذهبين إلى المدرسة؟» سأل.

«لدي عرض.»

«يمكن تأجيله.»

«لأنني جرحت إصبعي؟»

تناول وعاء الزيت ووضعه في الوسط، ثم نسي أن يرفع يده عنه. كان جزء منه يحصي: القطرة، السؤال، سقوط السكين، الصرخة. يستطيع في العيادة أن يقول لامرأة خائفة إن التذكر بعد الحادث يعيد ترتيب الزمن. هنا لم يجد في معرفته راحة.

قالت ميرا: «نمر على وحدة الفحص قبل المدرسة. إذا قالوا إنها تستطيع الذهاب، تذهب.»

«وعرضي؟»

«أرسل إلى معلمتك الآن.»

«أرسلي أنه فحص، لا حالة.»

«فحص.»

نهضت نور لتحضر حقيبتها. عند الباب مدت يدها إلى المقبض، ثم توقفت على مسافة صغيرة منه. حركة عابرة، كأنها ظنت المقبض أقرب. التقطته في المحاولة التالية وخرجت.

نظر يونس إلى ميرا.

قالت: «رأيت.»

كانت نقطة الدم قد جفت على يدها. رفعت إصبعها إلى الضوء وفركتها، ثم توقفت حين خانها المفصل.

«منذ متى؟» سأل.

«يدي أم نور؟»

جمعهما في السؤال نفسه، وانتبه إلى ذلك متأخرًا، فجلس.

«قالت لي أمس إنها اصطدمت بباب في المدرسة»، قالت ميرا. «اعتقدت أنها كانت تنظر في مكان آخر. سألتها إن آلمها، فضحكت.»

«ولم تقولي لي؟»

«أنت أيضًا تصطدم بالأبواب حين تقرأ.»

كان في صوتها تعب قليل، من النوع الذي يسبق الخصام ولا يرغب فيه. أخرجت من أسفل الطاولة كوبه الأزرق ووضعته أمامه. شق قديم تحت عروته يجعلها تشدد قبضتها كلما حملته، مع أن الكوب لم يتسرب منه شيء منذ أصلحته.

قال: «سأطلب فحصًا عصبيًا.»

«طلبته.»

رفعت معصمها. أضاءت عليه سطور، ثم اختفت. اختارت لهم موعدًا في الثامنة وأربعين دقيقة، ووسيلة نقل تتوقف قرب الدرج، وطريقًا تتجنب فيه نور ازدحام المحطة. أنجزت كل ذلك بينما كان هو يبرد الشاي بالنفخ.

«لا تسجلي ما حدث باعتباره فقد إحساس»، قال.

«سجلته كما رأيته. تأخر محتمل في الاستجابة. الطبيب يقرر.»

كان يريد أن يشكرها، لكن الشكر بدا قريبًا من الإقرار بأنه فقد القدرة على فعل شيء بسيط. تناول قطعة الخبز ولم يأكلها.

عادت نور بحقيبة مفتوحة يتدلى منها شريط أسود. وضعت على الطاولة مجسمًا صغيرًا لنافذة، إطاره مصنوع من قطع خشب مختلفة، وخلفه صفيحة شفافة.

«هذه نافذتنا؟» سأل يونس.

«تقريبًا.»

دفع الإطار بإصبعه، فاستقر في زاوية جديدة. على الصفيحة ظهر منظر البحر، لكنه كان بحرًا من ارتفاع الطابق الخامس لا الثاني.

«رفعت البيت؟»

«في العرض نستعيد مكانًا ونغير فيه شيئًا واحدًا.»

«ولماذا الطابق الخامس؟»

«لكي نرى فوق المبنى الذي سيُنشأ هناك.»

أشارت إلى مساحة منخفضة خلف الشارع. كانت مغطاة بقماش رمادي تخترقه أعمدة جديدة. لم يقرأ يونس خبر البناء إلا قراءة سريعة؛ مركز توزيع حيوي، شيء يصلح لحاجة يعرف أهميتها، في قطعة أرض كان يظنها بعيدة بما يكفي عن نافذته.

«ومن أين حصلت على الإطار؟»

«من بقايا أمّي. أعني بقايا عملها.»

ضحكت هذه المرة قبل أن يصحح أحد عبارتها. أمسكت ميرا المجسم بكلتا يديها، واختبرت المفصل المصغر. لم يعلق. كان يونس يريد أن يقول لنور إن الشيء الذي ينبغي تغييره هو مفصل النافذة، لكنه رأى العناية التي بذلتها في تقليد القشور على الخشب فصمت.

أعادت نور المجسم إلى الحقيبة، وطلبت أن تحمل معها نصف الخبزة. وضعت ميرا بداخله زيتًا وجبنًا، ثم لفته. كانت تفعل ذلك بإبطاء ملحوظ. أراد يونس مساعدتها، فناولته اللفافة ليمسكها، واستعملت يدها اليمنى لتشد الرباط. تعاون قصير، مألوف، جعله يشعر بأن الصباح استعاد مكانه.

في الخارج وقفت العربة عند أسفل الدرج. انتظرتهم من غير أن تضيق بتأخرهم. لم يعرف يونس لماذا كان الصبر في آلة يحرجه أحيانًا؛ ربما لأن أحدًا فيها لا يمكن أن يقول له إن التأخر لا يهم.

نزلت نور أمامهما، ممسكة الدرابزين بيدها السليمة. عند العتبة الأخيرة التفتت.

«لا ترموا الطماطم كلها. الجانب الآخر نظيف.»

وعدتها ميرا بذلك.

في وحدة الفحص جلس يونس على كرسي الزوار، بعيدًا خطوة عن الموضع الذي كان سيختاره لو دخل بصفته طبيبًا. غسل ممرض الجرح،

وتحقق من الحركة والدورة الدموية، ثم جاء اختصاصي شاب تحدث إلى نور قبل أن ينظر إلى والديها. جعلها تتبع نقطة، وتقف مغمضة العينين، وتحدد اتجاه لمسات خفيفة في ذراعيها. لم يطلب منها أن تكون شجاعة. لهذا أحبه يونس قليلًا.

قال الطبيب إن الفحص الأول لا يظهر خطرًا يستدعي إبقاءها في الوحدة، لكنه يريد تسجيلًا أطول لتوقيت الإشارات في واجهتها العصبية. وضع لها حساسًا رقيقًا خلف الأذن، وشرح لها كيف توقف أي اتصال خارجي إضافي إذا شعرت باختلال. أعطاهم تعليمات مكتوبة، وحدد ما يستدعي العودة فورًا.

سألت نور: «والعرض؟»

«تقدمينه وأنت جالسة. اليوم لا تجارب حركة، ولا نشاط في شبكة واسعة.»

«إنه عن نافذة.»

«النافذة تستطيع الانتظار معك على كرسي.»

ابتسمت. رأى يونس أنها ستتذكر هذه الجملة، وربما تنسى ما قاله هو في المطبخ.

عند باب المدرسة وضعت ميرا يدها اليمنى على كتف نور. أحنت البنت رأسها كي تقبلها، ثم سمحت لأبيها بأن يفحص تثبيت الحساس مرة أخيرة. لم تتأفف. كان ذلك ألطف مما احتمله بسهولة.

راقبها حتى دخلت. انفتح الباب لها قبل أن تبلغ العتبة، وانغلق بعد أن مر آخر طفل. ظل يونس واقفًا، يتطلع إلى الزجاج الذي صار يعكس الشارع.

«سترسل إن احتاجت شيئًا»، قالت ميرا.

كانت حقيبة نور قد اصطدمت بكتفها وهي تدور نحو الممر، فرفعتها بلا تردد بيدها السليمة. حركة صحيحة تمامًا. تمنى لو استطاع أن يحملها معه إلى العيادة، تلك الحركة وحدها، ويعيد النظر فيها كلما احتاج.

قبل أن يفترقا مدّت ميرا يدها اليسرى لتسوي ياقة قميصه. أخطأت السبابة حافة القماش. أمسك اليد بين يديه لحظة، وأتم الحركة بنفسه.

«غدًا»، قالت.

قال: «غدًا.»

تركها تذهب، ثم عاد إلى البيت لأنه نسي مفاتيح عيادته. كانت الطماطم ما تزال على اللوح، وقد غطتها ميرا بوعاء مقلوب. رفع الوعاء، وقطع الجانب السليم، ووضعه في الثلاجة. بعد ذلك غسل اللوح طويلًا، حتى زالت العلامة الحمراء من أخدود السكين.

حين خرج، بقيت النافذة مفتوحة بالمقدار نفسه الذي تركها عليه. مر الهواء بين الإطار والحائط، فحرك الورقة المعلقة قرب علامات طول نور. ثبتها يونس بكفه قبل أن يغلق الباب.

الفصل الثاني

مدينة لا تنتظرنا

كانت العربة المخصصة لصيانة الحاجز قد مرت حين وصل يونس إلى الميناء. عرفها من ذراعها الطويلة المطوية فوق السقف، ومن الرقم الأبيض الذي انقلب فيه طلاء السبعة عند الحافة. رآها في المكان نفسه قبل أشهر، يوم اصطحب هالة بنسالم إلى عيادته بعد أن تورمت ركبتها. يومها توقفت العربة عند الطريق القديم، وانتظر الناس منها أن تبدأ العمل. الآن كانت تتجه شرقًا، تحمل على ظهرها أسطوانات نظيفة مغلفة بقماش فضي.

مشى بمحاذاة السياج، وفي جيبه مفاتيح لم يكن بحاجة إليها ليفتح عيادته منذ تسع سنوات. بقي يحملها لأن الباب يفتح بها أيضًا، ولأن تذكر وزنها أيسر من تذكر رقم يتغير كل فصل.

من الجهة الأخرى ارتفعت رافعة حمراء فوق حاوية، ثم أنزلتها بدقة على منصة متحركة. تحركت المنصة قبل أن يكتمل انسحاب الذراع. كان العمل يجري في تتابع لا يجد فيه يونس فسحة ينسبها إلى انتظار شخص آخر. في زمن دراسته كان أبوه يأخذه إلى رصيف قريب ليريه السفن. يذكر الرجال أكثر مما يذكر السفن: رجلًا يأكل من ورق، وآخر يلوح لمن لا يراه، وثالثًا يغسل رقبته تحت صنبور. الآن رأى معطفًا أصفر واحدًا عند مدخل حوض الصيانة.

صاح صاحب المعطف حين مر يونس بمحاذاته.

كانت صيحة قصيرة. سقط الرجل من ارتفاع قليل، لكنه سقط في الموضع الذي كان ينبغي أن تنزلق إليه عربة شحن. رأت منظومة الرصيف سقوطه قبل أن يفهم يونس اتجاه الصوت. توقفت العربة، وفتح جانباها، واندفعت

من أسفل الرافعة آلة قصيرة ذات ذراعين. مدّت إحداهما فوق الرجل، وثبتت الأخرى إلى الأرض لتمنع الحاوية المعلقة من التأرجح.

بدأ يونس يركض نحو البوابة.

ظهر خط أحمر على الأرض، وحال حاجز شفاف دون تقدمه. قال بصوت مرتفع: «يونس العياشي، طبيب.» قرأ موضع في الحاجز هويته، لكن الخط بقي أحمر.

«توجد إصابة»، قال، وكأنه يخبر شيئًا لا يراه.

جاءه صوت من العمود: «فريق الرعاية في الطريق. يرجى البقاء خارج نطاق الحمل المعلق.»

كان الرجل واعيًا. رآه يرفع ذقنه ويشير إلى ساقه. نزلت من جانب الآلة وسادة، انتفخت تحته دون أن ترفعه عن موضعه، ثم ثبتت رأسه. تقدمت وحدة أخرى تحمل حافظة بيضاء. كل ما كان يونس يريد فعله جرى أمامه، أسرع مما كان سيفعله، فيما بقيت يده مرفوعة على الحاجز.

وصلت امرأة من طاقم الرعاية، فصار الخط أخضر. أشارت إليه أن يبقى قريبًا إذا احتاجت مساعدة. دخل، وانحنى عند كتف الرجل.

«أنا يونس. هل تستطيع أن تقول لي اسمك؟»

«سعيد. ابعدوا هذا عن وجهي.»

أبعدت المرأة ذراع الفحص قليلًا، وتركت لها زاوية أخرى.

«عن أي شيء سقطت؟» سأل يونس.

«عن درجة. درجة واحدة، آ سيدي، لا تكتبوا سلّمًا.»

رأى يونس بطاقته تتدلى من جيب المعطف. «مشرف تشغيل يدوي». كان الرقم الأخير من مدة اعتمادها اليوم نفسه.

«لا تتحرك. سيحملونك.»

«حقيبتي.»

كانت حقيبة بنية قرب قاعدة السلم، مفتوحة على علبة طعام ومفك طويل وصورة في إطار رخيص. تناولها يونس. الصورة لرجل أصغر سنًا، يقف في هذا الرصيف مع طفلين، وخلفهم رافعة لها قمرة زجاجية لم تعد موجودة.

تعلق نظر سعيد بالإطار.

«ضعه تحت العلبة. سيتكسر.»

رتبه يونس كما طلب. حين حملت المنصة الرجل، سألته المرأة إن كان يريد الاتصال بأحد، فأعطاها اسم ابنته. ظل يحاول من مكانه رؤية البناء المنخفض عند آخر الحوض.

تبعه يونس بعينيه. كانت نافذة البناء مفتوحة، وفي الداخل شخص يفك لوحة عن الحائط. فوق الباب ثبتت عبارة قديمة: غرفة الإشراف. تحتها شريط حديث يقول إن الخدمات نُقلت إلى المركز المشترك.

قال سعيد: «كان ينبغي أن آخذ الصورة أمس.»

بقي يونس حتى اطمأن إلى انتقاله. شكرته المرأة، ثم عادت مسرعة إلى عملها عند المنصة.

عندما خرج من نطاق الحوض، استأنفت الرافعات حركتها. لم يتغير سوى الحاوية التي تأخر نقلها ست دقائق، وآلة صغيرة تنظف أثرًا داكنًا على الأرض. وضع يونس كفه على جيبه، حيث اهتز جهازه. رسالة من ميرا: نور قدمت العرض. مع الرسالة صورة للمجسم على طاولة، وإبهام مضمد في طرف الصورة.

جلس على حافة حوض زراعة ليقرأ تقرير الحساس. لم يسجل منذ الصباح إنذارًا يستوجب العودة. أغلقه، ثم أعاد فتح الصورة.

«دكتور يونس؟»

رفع رأسه. كان رجل من إدارة الحي يقف إلى جوار مركبة ضيقة. عرف يونس وجهه ولم يستحضر اسمه، فتدارك الأمر بالسؤال عن العربة ذات الذراع الطويلة.

«هل انتهوا من الحاجز؟»

نظر الرجل في الاتجاه الذي أشار إليه. «تلك ذاهبة إلى شبكة التغذية. العمل مستعجل هناك.»

«والحاجز؟»

«وُضع ضمن دورة المراجعة القادمة.»

«كان ضمن الماضية.»

أراح الرجل حقيبته على الحوض. بدا له أن الحديث سيطول، وربما وجد في إراحة الحقيبة مهلة ليتذكر جوابًا لا يثير خصامًا.

«نقص عدد الوحدات السكنية المستخدمة هناك. الكلفة لكل مستفيد ارتفعت. اقترحوا نقل من يريد إلى المباني العليا، لكن عدد الطلبات قليل.»

«هالة تسكن هناك.»

«أعرف السيدة هالة. رفضت العرض.»

«بيتها هناك.»

«ولهذا عُرض عليها بيت آخر.»

مر بينهما روبوت يحمل حزمة من الأنابيب، فاضطرا إلى التراجع خطوة. كان جانب الأنابيب شفافًا، تظهر فيه قنوات دقيقة، نظيفة ومصمتة الآن. سيجري فيها شيء تعتمد عليه أجساد كثيرة كي تستيقظ غدًا.

قال الرجل: «لا أريد أن يبدو الأمر كأنه لا يهمنا. لو بقيت الشبكة القديمة أسبوعًا آخر، فهناك مرضى سينقلون إلى الإقامة الكاملة. تعرف ماذا يعني ذلك لأسرهم.»

كان يونس يعرف. في عيادته امرأة لا تستطيع مغادرة بيتها أكثر من ساعات محددة لأن تغذية عضوها المزروع ما تزال تعتمد على وحدة قديمة. كان زوجها يحمل الوحدة الاحتياطية في حقيبة على ظهره، ويسأل في كل زيارة متى يصل الخط الجديد إلى شارعهم.

لم يجد جملة يرد بها من غير أن يلغي أحد البيتين.

«أنا لا أقول أوقفوا الشبكة»، قال أخيرًا. «أقول إنهم أجلوا الحاجز وهم يعرفون حالته.»

«سأنقل اعتراضك.»

«هل تنقله إلى المكان نفسه الذي نُقل إليه الاعتراض السابق؟»

أعاد الرجل حقيبته إلى كتفه. احمر جزء من وجهه، وتمنى يونس لو صاغ سؤاله بطريقة أخرى. لكنه لم يسحبه. تبادلا تحية مقتضبة، ومضى كل منهما في اتجاه.

قبل أن يترك الميناء نظر إلى غرفة الإشراف. كان العامل قد أنزل اللوحة. تركت على الحائط مستطيلًا أفتح لونًا من بقية الدهان.

وصل إلى العيادة متأخرًا سبع عشرة دقيقة. فتحت له أمينة الوردي الباب من الداخل، وكانت تحمل كأس ماء وقطعة خبز.

«حين قلت إنك تريد أن نراجع بعض الحالات، لم أفهم أنك تريدني أن أبدأ مكانك.»

«حدث سقوط في الميناء.»

نظرت إليه، ثم إلى كمه. لم يكن عليه دم، ومع ذلك مسحه بكفه.

«كيف نور؟»

«في المدرسة. ركبوا حساسًا.»

لم تطلب منه التفاصيل في الممر. هذا أيضًا مما جعله يحب العمل معها. كانت تعرف المواضع التي ينبغي أن يحتفظ فيها الطبيب بحقه في ألا يتكلم فورًا.

في غرفة الانتظار جلست ثلاث نساء ورجل واحد. رفعت إحداهن رأسها، ثم عادت إلى إصلاح كم طفلة نائمة على حجرها. كانت المرأة عند النافذة هي سارة الإدريسي. عرفها من موعدها الأول في سجله، ومن طريقة

احتضانها الحقيبة الصغيرة على بطنها، حريصة على ألا تضغطها، عاجزة عن وضعها بعيدًا.

حين دخلت غرفته، توقفت قبل الكرسي.

«هل الجلوس هنا يرسل البيانات تلقائيًا؟»

«الكرسي لا. الأجهزة إذا استخدمناها، وبموافقتك.»

جلست. خلعت معطفها، فظهر بطنها أعلى مما توحي به ملابسها الخارجية. كانت في الأسبوع السابع والعشرين، ووجهها يحمل ذلك التعب الذي لا تحدده ساعات النوم وحدها.

«أريد المتابعة فقط»، قالت.

«هذا موعد متابعة.»

«في المركز السابق بدأوا بالمتابعة، ثم صار كل لقاء عن شيء يمكن تحسينه.»

فتح يونس سجلها على الشاشة الجانبية، وأدارها بحيث تستطيع رؤيتها. سأل عن الحركة والألم والنوم، وعن الأدوية التي تستعملها، وعن الفحوص السابقة. أجابت بدقة، إلا حين سأل عن رقم أمها لتنسيق معلومات التاريخ العائلي؛ قالت إنها تستطيع الاتصال بها بنفسها.

«طبعًا.»

أخرجت من الحقيبة ورقة مطوية. كانت صورة قديمة لفحص، مطبوعة على مادة انحنى طرفها من كثرة اللمس.

«أعرف أنها موجودة في السجل. أحب أن أحمل هذه.»

ناولته إياها كما يناوله الناس أشياء يريدون أن يعاملها برفق، ولو لم تكن قابلة للكسر. وضعها على مكتبه بعيدًا عن كأس الماء.

«هل اخترت اسمًا؟»

«أختار كل أسبوع واحدًا. لا أريد أن يتعود عليه قبل أن أقرر.»

أراها موضع الفحص، وسألها إن كانت تريد وجود أمينة. وافقت، بعد أن شرح لها اختصاصها.

دخلت أمينة وهي تغسل آخر أثر من صابون عن يديها. قدمت نفسها، ثم انشغلت بإضاءة الغرفة كي لا ينعكس الضوء على الصورة. استلقت سارة، ورفعت طرف قميصها. ظلت يدها على أعلى بطنها حتى طلبت منها أمينة أن تترك للجهاز مساحة.

ظهر الجنين على الشاشة، معتمًا وواضحًا في آن، كما تبدو الأشياء التي لا نعرفها بعد ومع ذلك يخصنا منها شيء. انثنت ساق، وتحركت يد قرب الوجه. تنفست سارة بصوت سمعه يونس.

«هذا الذي كان يوقظك؟» سألها.

«يوقظني، ثم ينام حين أريد أن أري أمي.»

أخذ القياسات اللازمة، وراجع مواضعها مع أمينة. كان يسمي لسارة ما يحتاج إلى تسمية، ويترك بقية الصورة لها. رأى على وجهها ابتسامة انقطعت حين توقف مؤشر على الجانب في لون أصفر.

لم يكن إنذارًا سريريًا. سطر مقارنة لم يكتمل.

«ماذا حدث؟»

قال يونس: «هناك قراءة نحتاج إلى مراجعتها مع فحصك السابق. لا تعني وحدها وجود مشكلة.»

«أي قراءة؟»

شرح أنها إشارة في ملف التوافق البيولوجي، وأن الجهاز يقارن بين بيانات أخذت في أوقات مختلفة. طلب منها الإذن بإعادة قياس قصير، فوافقت بعد أن سألت إن كان يؤذي الطفل.

أعادت أمينة التحقق، ثم نظرت إلى يونس. كان وجهها هادئًا. عرف من هدوئه أنها لا تريد أن تقول شيئًا لم تتأكد منه بعد.

جلس إلى جوار سارة بدل أن يعود وراء المكتب.

«نحتاج موعدًا ثانيًا بعد وصول مادة الفحص السابق كاملة. سنشرح لك المقارنة، ثم تقررين أي خطوة إضافية.»

«هل أستطيع العودة إلى البيت؟»

«نعم. وضعك الآن يسمح بذلك. وإذا ظهر أي عرض مما اتفقنا عليه، تتصلين مباشرة.»

أعطاها وقتًا لتسأل. سألت عن العمل والمشي والنوم على جانبها، ثم أعادت السؤال الأول بصيغة أخرى: «هل رأيت شيئًا سيئًا؟»

قال: «رأيت شيئًا لا يطابق ما توقعت في السجل. لا أعرف معناه بعد.»

لم تسعدها الإجابة، لكنه شعر أنها صدقتها.

بعد أن ارتدت معطفها التفتت إلى الصورة الورقية على المكتب. كاد ينساها. أعادها إليها، فوضعتها في جيب داخلي، منفصلة عن بقية الأوراق.

«زوجي سيأتي في الموعد القادم»، قالت. «اليوم لم يستطع ترك نوبته. لا أريد أن أقلقه قبل أن أعرف ما الذي أقوله.»

«يمكننا التحدث إليكما معًا، إذا أردت.»

شكرته. في الباب توقفت مرة أخرى.

«هل سيقترح هذا الفحص تحسينًا جديدًا؟»

«غايته أن نفهم القراءة. أي إجراء آخر له قرار آخر.»

خرجت، وبقيت أمينة واقفة عند الشاشة.

قال يونس: «قد يكون خلل ربط بين سجلين.»

«قد يكون.»

«أو تصنيفًا قديمًا.»

«لهذا طلبت المادة الأصلية.»

أغلقت صورة الجنين قبل فتح بيانات الحالة التالية. رأى يونس انعكاس وجهه في الشاشة السوداء، واستعاد يد نور على لوح الخشب. كان يكره انتقال الخوف من غرفة إلى غرفة من غير أن يبدل ملابسه.

قبل الظهيرة دخلت إليه امرأة يعرفها منذ بداية حملها الأول، تقود طفلًا في السادسة. كان يحمل حذاء في يده ويمشي بالحذاء الآخر، رافضًا أن يترك لأمه ما يحمله.

«جئنا من عند اختصاصية النمو»، قالت. «طلبت أن أسألك عن الإحالة القديمة.»

وضع يونس ملف سارة جانبًا، وأفسح للصغير مكانًا على الكرسي المنخفض. عرف الطفل رف اللعب واتجه إليه، ثم تذكر الحذاء فوضعه بحذر فوق مجسم حيوان.

قالت أمه إنهم يقترحون تعديلًا في منظومة دعم الحركة، وإنها فهمت الفائدة، لكن المواعيد البعيدة والصيانة اللاحقة ستحتاج إلى أن تقلل ساعات عملها. زوجها يستطيع مرافقتهم في البداية، لا كل شهر. كانت قد رتبت الأرقام في رأسها حتى صار العلاج نفسه آخر ما تتكلم عنه.

«هل يمكن أن ننتظر حتى نهاية الفصل الدراسي؟» سألت.

اتصل بالاختصاصية، وترك المرأة تسمع السؤال والجواب. اتفقا على أن الانتظار مدة قصيرة مع المتابعة ممكن، وأنه لا ينبغي تأجيل القرار كله لأن الأسرة لم تفهم برنامج الرعاية. بعد المكالمة شرح للمرأة ما يستطيع فعله: تنسيق المواعيد في يوم واحد، وإرسال نتائج الفحوص التي لا تحتاج إلى حضور، وطلب زيارة منزلية إذا قبلها الفريق.

كانت تستمع إليه، ثم تنظر إلى ابنها. جرب الطفل دفع المجسم بحذائه، فوقع الاثنان. قام يونس ليعيدهما. رفض الصغير أن يأخذ الحذاء، وطلب أن يبقى الحيوان مرتديًا إياه.

«هل سيتعب أقل؟» سألت الأم.

«هذا ما يرجحه الفريق. تحدثي معهم عن مقدار التحسن المتوقع وحدوده، لا عن كلمة التحسن وحدها.»

«أنا لا أحتاج أن يكون أسرع من أحد. أريده فقط أن يكمل الطريق من المحطة إلى البيت دون أن أحمله.»

كانت تقول ذلك وهي تفرك أعلى كتفها بحركة لا يبدو أنها تنتبه إليها. نظر يونس إلى يدها، ثم إلى الطفل الذي يحاول الآن أن يجعل الحيوان يقف داخل الحذاء. أحس بعجز الاعتراضات الكبيرة حين تصل إلى غرفة صغيرة وتجد أمًا تريد كتفًا أقل ألمًا وابنًا يريد أن يمشي معها.

ساعدها في ترتيب الأسئلة، ولم يختر عنها. حين وقفت، سألت إن كانت تستطيع أخذ ورقة المواعيد إلى البيت وإعادة الجواب غدًا. قال لها إن هذا هو الغرض منها. ضمت الورقة إلى حقيبتها كما لو أنها استردت شيئًا كان سيفلت منها.

ألبس الطفل حذاءه بنفسه، لكنه وضعه في القدم الخطأ. انحنت أمه لتصححه، فاحتج. انتظرت حتى جرب خطوتين وشعر بالضيق، ثم غيرته له من غير أن تقول إنها كانت تعرف.

راقبهما يونس يخرجان. في الممر وقف الصغير أمام الباب ينتظر أن يفتح. تأخر الباب لأن شخصًا كان يعبر من الجانب الآخر، فضربه براحته الصغيرة.

قالت أمه: «انتظر دوره.»

كان طفلًا ينفد صبره أمام باب، وهذا ما أراده له يونس بكل ما فيه من شقاء عادي.

بعدهما اتصلت ابنة سعيد. عرّفت نفسها، وشكرته على إعادة الحقيبة. قالت إن إصابة أبيها تستدعي متابعة، لكنهم طمأنوها إلى أنه لن يبقى في المستشفى طويلًا.

«أصر على معرفة مَن أخذ الصورة»، قالت. «يقول إنه كان سيترك كل شيء إلا هي.»

سألها إن كان يحتاج إلى مساعدة في تنسيق الرعاية. قالت إن هناك برنامجًا جيدًا للعاملين الذين انتهت مهامهم، وإنها ستقنعه باستخدامه.

«إنه غاضب لأنهم سيأتون إلى البيت. يقول إنهم أنهوا عمله والآن يريدون أن يروه جالسًا.»

سمع يونس صوت سعيد من بعيد يعترض على شيء. ضحكت ابنته، واعتذرت لأنها تحتاج أن تعيد إليه جهازه. انتهى الاتصال قبل أن يجد يونس كلامًا يصلح أن يُنقل إلى الرجل. بقيت أمامه صورة الكتف الأصفر عند الحاوية، والحقيبة التي احتاجت إلى يد بشرية كي تعرف أي الأشياء فيها يجب أن يوضع تحت علبة الطعام.

في الظهيرة اتصل به زوج المرأة التي تنتظر شبكة التغذية الجديدة. لم يكن موعده اليوم. أراد أن يخبره أن فريق التركيب وصل، وأن زوجته استطاعت لأول مرة منذ أشهر أن تجلس في الشرفة من غير أن يحمل هو الحقيبة خلفها.

قال الرجل: «تصور، دخلت أنا إلى المطبخ وبقيت هي وحدها في الشرفة.»

سمع يونس ضحكًا في الخلفية. قالت المرأة شيئًا لم يلتقطه، فأعاد زوجها: «تقول لك إنني كنت أزعجها أكثر من المرض.»

ضحك يونس معهما. سأل أسئلة قليلة عن عمل الوحدة، وطلب استمرار المتابعة كما هي، ثم انتهت المكالمة على وعد بأن يأتيا معًا في الموعد القادم.

بقي الهاتف في يده بعد أن انطفأ. كان سعيدًا لهما، سعادة كاملة لم تتطلب منه أن يتظاهر. على الشاشة الأخرى ظهر تذكير بزيارة هالة المؤجلة.

فتح الرسالة وكتب لها أنه سيمر آخر الأسبوع. مسح «آخر الأسبوع»، وكتب: «سأتصل بك مساء.»

في طريقه إلى البيت اختار الممر القديم ليقترب من الحاجز. كانت المياه هادئة، تتكسر عند الحجارة في صوت صغير. خلف السياج بدا شق طويل

عند قاعدة اللوح الخرساني، غطته بقعة طحلب داكنة. ثبتوا إلى جانبه علامة تحدد مسافة الأمان.

وضع يونس قدمه خارج الخط، ثم أعادها. نظر إلى البيوت فوقه. من إحدى النوافذ امتد حبل غسيل، وفي طرفه قميص طفل يدور بكمّيه الفارغين.

أخرج جهازه ليلتقط صورة للشق ويرسلها مع اعتراضه. قبل أن يضغط، وصلت رسالة من نور: «أعطوني الدرجة كاملة. النافذة نجحت.»

فتح الصورة التي أرسلتها. كانت تقف إلى جوار مجسمها، ويدها المضمدة مرفوعة في إشارة انتصار. ضحك، وكتب لها أنه يريد أن يرى العرض حين يعود.

ثم التقط صورة الحاجز أيضًا.

الفصل الثالث

اليد الجديدة

طلبت منها العاملة أن تضع يدها في الوعاء وأن تحاول ألا تساعدها.

«كل من يأتي إلى هنا يحاول تثبيت إصبعه في اللحظة الأخيرة»، قالت. «ثم نصلح التعويض الذي تعلمه بدل الخلل نفسه.»

أرخت ميرا كتفها. كان الوعاء ضحلًا، مبطنًا بمادة لينة دافئة. انتشرت حول كفها خطوط ضوء، وتوقف أحدها عند قاعدة السبابة. من جهة اليسار جاءت رائحة قريبة من رائحة القماش بعد المطر، رائحة سوائل تغذية الأنسجة التي تتعرف إليها قبل أن ترى مصدرها.

وضعت حقيبتها على المقعد المجاور، ثم نقلتها إلى حجرها. فيها علبة صغيرة، داخلها مقبض نحاسي تعمل على ترميمه، وقطعة قماش من البيت تحمل بها الأشياء التي تخشى أن تخدش بعضها بعضًا. حملته لأنها لم تعرف كم ستنتظر، ولأن البقاء في غرفة يُفحص فيها جسدها يجعل يديها تبحثان عن مهمة أخرى.

«ميرا؟»

رفعت رأسها. كانت العاملة تنظر إلى الشاشة.

«هل تعملين على قطع دقيقة؟»

«ترميم.»

«هذا يفسر التآكل في جهة واحدة.»

حركت العاملة الصورة، فانفتحت طبقات اليد على الشاشة. رأت ميرا الدعامة، وممرات التغذية، والتفرعات التي تحمل اللمس والضغط، ثم موضعًا

عند المفصل تغيرت فيه المسافة بين جزأين. ما أزعجها أن الإصبع المعروض مستقيم تمامًا. في حياتها كان ينحني حين يحتاج إليه أحد.

«يمكن أن نبدل الوحدة الصغيرة ونحافظ على البقية»، قالت العاملة. «لكن السطح المستشعر حولها بدأ يفقد انتظامه. إذا أصلحنا الجزء وحده، قد نعيد العمل قريبًا.»

«كم قريبًا؟»

«لا أستطيع أن أعدك بمدة. يتوقف على الاستخدام. الخيار الآخر استبدال الجزء الوظيفي من اليد مع إبقاء الاتصال الحالي. يحتاج إلى معايرة أطول.»

نظرت ميرا إلى الساعة. كانت نور في المدرسة، ويونس في العيادة، وقد أرسل كلاهما يسأل إن بدأت. أجابت بكلمة واحدة: «الآن».

لم تكن تريد العودة بيد تحتاج إلى رفق دائم. في الصباح أسقطت غطاء علبة الشاي، فنهض يونس بسرعة ليلتقطه. أحبته لتلك السرعة، وضاقت بها في الوقت نفسه. لم تكن بحاجة إلى شاهد يقظ على كل ما يقع منها.

«الاستبدال»، قالت. «لكن أريد أن أعرف ما الذي سيتغير في الملمس.»

أعادت العاملة الشاشة إلى وضعها الأول.

«نعيد أقرب استجابة ممكنة. الأقرب ليس المطابق دائمًا.»

نقلت الكرسي إلى جوار ميرا كي تشرح لها الخطوات والمخاطر والوقت اللازم. سألتها عن إحساسها بالألم، وعن آخر صيانة للاتصال القريب من المعصم، وعن المرة التي أصرت فيها قبل أربع سنوات على استعادة بروز صغير قرب الإبهام لأن المفاتيح كانت تستقر عليه. فوجئت ميرا بأنها تتذكر.

«أنا لا أتذكر»، قالت العاملة حين رأت نظرتها. «هذا مكتوب هنا بخط فني أحب التفاصيل على ما يبدو.»

كان الاسم أسفل الملاحظة رائد.

«هل ما يزال هنا؟»

«في المخزن الخلفي غالبًا. لا يحب أن نسميه مخزنًا.»

«لماذا؟»

«لأنه أصلح نصف ما فيه، ويقول إن المخزن مكان للأشياء التي لا تعمل.»

سمعت ميرا صوتًا معدنيًا من الممر، ثم ظهر رائد يدفع عربة عليها وحدات قديمة. كانت قامته أقصر مما تتذكر، أو أن سقف الغرفة أعلى. حمل رأسه مستشعرين غير متساويين في الحجم، وثبتت إلى جانب أحدهما عدسة صغيرة أحدث عهدًا. على ذراعه اليمنى أثر لحام لم يغطه طلاء.

توقف عند الباب.

«اليد اليسرى»، قال.

«ألا تبدأ بالسلام؟»

«صباح الخير، ميرا. اليد اليسرى.»

ضحكت العاملة. وضعت العربة في جانب الغرفة، وأخذت القطعة التي جاء بها رائد.

قالت: «الوحدات الجديدة لا تقرأ وصلة جيلها مباشرة.»

«وصلة يدي، لا جيلي»، قالت ميرا.

أدار رائد مستشعره نحوها. «أستطيع أن أسميها باسم آخر. لن يغير ذلك قياسها.»

اقترب، ومد ذراعه دون أن يلمسها. أذنت له، فثبت أداة صغيرة إلى جانب المعصم. انتهت ذراعه بثلاث قبضات دقيقة، صُممت لتمسك ما يصعب على يد بشرية بلوغه. ومع ذلك كانت تعرف طريقته في الانتظار قبل الملامسة. ظل يفعلها منذ أول مرة التقت به، قبل أن تعرف أن الانتظار نفسه يمكن أن يطمئن.

«أنت من كتب ملاحظة البروز؟»

«نعم. طلبتِ الاحتفاظ به.»

«هل تحتفظ بكل ما يطلبه الناس؟»

«بما يخص العمل.»

«والأشياء الأخرى؟»

توقف لحظة. لم تكن ميرا تعرف إن كان يبحث في سجل أم يعالج سؤالًا لا يجد له موضعًا.

«بعضها يساعد في العمل.»

على الشاشة ظهر تاريخ قديم، ثم تاريخ أحدث، ثم عبارة تشير إلى معايرة تأسيسية. اثنان وثلاثون عامًا. رأت ميرا العدد ووجدته أصغر من إحساسها به. دخلت في تلك السنوات بيوتًا كثيرة، وأخرجت من ركامها أجزاء لم يعرف أصحابها أنهم سيفتقدونها: مقبضًا، بلاطة، رجل كرسي كانت إحدى العائلات تسندها بحجر. حملت نور رضيعة، وسهرت على أسنانها الأولى، وتعلمت أن تميز صمت يونس حين يتعب من صمته حين يخاف. كل ذلك انكمش في سطر يستطيع رائد طيه ليفتح السطر الذي يليه.

قالت العاملة: «نستطيع البدء بعد دقائق. هل تريدين الاحتفاظ بالوحدة المستبدلة؟»

نظرت ميرا إلى يدها. خطوط دقيقة على ظهر الكف، وبقعة أقل تجانسًا قرب المعصم، وأثر حرق قديم حدث يوم حاولت إخراج صينية من الفرن قبل أن تستقر استجابة الحرارة بعد صيانة سابقة. كان يمكن إصلاح الأثر. تركته لأنها تعلمت منه كيف يحمل يونس القلق في صوته حين ينادي اسمها.

«لا»، قالت أولًا.

ثم أضافت: «هل يمكن الاحتفاظ بالقياسات فقط؟»

«بإذنك، نعم.»

وافقت. لم تكن تريد شيئًا من جسدها في صندوق بين الخزائن، ولا أن تُمحى اليد من كل ما يمكن الرجوع إليه. وجدت القرار محرجًا في دقته، كأنها ترتب بقايا شخص لا يحق لها بعد أن تحزن عليه.

أرسلت إلى يونس أن الموعد سيطول. جاءها رده سريعًا: «هل آتي؟»

كتبت: «ابق مع مرضاك. اتصل بي عند الاستراحة.»

تأملت العبارة، ثم أضافت: «اشتريت خبزًا. لا تشتر.»

كان ينبغي أن يعرف أن هذا يوم يمكن أن يحتوي على خبز، مهما طال.

حين بدأ الفصل الموضعي للإحساس، شعرت ميرا بدفء قصير يتراجع من أطراف أصابعها إلى المعصم. استمر بصرها في إخبارها أن اليد هناك، لكن صلتها بالوعاء صارت أخف. طلبت العاملة منها أن تنظر إلى الناحية الأخرى إذا أرادت. اختارت أن تبقي وجهها نحو النافذة.

كان في الساحة الخلفية شجر ليمون داخل أحواض مرتفعة. حول أحد الأحواض تحرك روبوت بستاني، يقص الجذور التي بلغت فتحة التصريف. لم يكن له رأس. تمنت ميرا لو كان بإمكانه أن يسأل الشجرة أي امتداد يخصها أكثر، ثم سخرت من نفسها. كانت هي تقطع الخشب المتعفن من الأبواب التي ترممها، وتحتفظ بالجزء الذي يستطيع حمل البقية. لم يسألها باب عما تعتبره جوهره.

قال رائد: «هل تذكرين الكرة الزرقاء؟»

التفتت إليه. كان واقفًا إلى جوار طاولة الأدوات.

«أي كرة؟»

«في المعايرة الأولى. كنت تمسكينها بقوة أكبر من اللازم.»

كانت تتذكر لونًا أزرق. لم تتذكر إن كانت تراه في تلك اللحظة الأولى أم رأته لاحقًا في تسجيل عُرض عليها. هذا النوع من الشك ضايقها منذ زمن؛ بعض ذكرياتها المبكرة محاط بصور كثيرة إلى حد يصعب معه استعادة ما عاشته وحدها.

«مزقتها؟»

«لا. رفضتِ تسليمها.»

«هذا لم يكن خلل ضغط.»

«استغرق الأمر منا وقتًا لنعرف.»

ضحكت، ثم سكتت. كان رائد قد استخدم صيغة الجمع. لم تقل له من كان الآخرون. سيقود السؤال إلى ما لم تأت من أجله، وإلى اسم حفظته بعيدًا عن الكلام اليومي حتى صار إخراجه يحتاج إلى مناسبة لا تأتي.

أغلق رائد سجل المعايرة الأولى، وعاد إلى الأداة في يده.

بعد العمل جاء وقت طويل من أشياء صغيرة. إسفنجة تبللها وتضغطها، قطعة قماش تلتقطها من سطح أملس، إناء ترفعه دون أن تسحق حافته. رفعت ميرا الكوب الأول بقوة زائدة، فصدر منه صوت. خجلت.

قالت العاملة: «أبطئي. لا تحاولي العودة إلى سرعتك اليوم.»

وضعت أمامها خرزة داكنة. التقطتها ميرا، ثم تدحرجت بين إصبعيها وسقطت في الوعاء.

«هذه لا تريدني»، قالت.

«حاولي ثانية.»

في المحاولة الرابعة حملتها. كانت الخرزة أقل برودة مما توقعت. سجلت العاملة الفارق، وأعادت إعدادًا صغيرًا، ثم طلبت منها أن تميز القماش الخشن من الناعم دون أن تنظر.

أجابت ميرا جيدًا. لكنها حين أغمضت عينها شعرت أن يدها تقع أبعد قليلًا عن المعصم، كما لو أن آخرها امتد مسافة لم تعتدها. شرحت ذلك. قالوا إن عليها مراقبة الإحساس، وإن المعايرة ستستمر تدريجيًا. لا شيء يستدعي أن تخفيه أو تتغلب عليه وحدها.

عند الخروج ناداها رائد.

«المقبض في حقيبتك.»

«ماذا به؟»

«لا تعملي عليه اليوم.»

«من قال لك إن في حقيبتي مقبضًا؟»

«أخرجتِه وأعدتِه ثلاث مرات قبل البدء.»

لم تتذكر أنها فعلت ذلك. رفعت يدها الجديدة لتودعه، فرفع إحدى قبضاته الثلاث. كانت إشارة غير متقنة، لكنها شعرت أن إتقانها كان سيفسد شيئًا فيها.

قبل أن تغادر طلبت منها العاملة أن تنتظر قليلًا في الردهة، ريثما تتأكد من استقرار القراءة بعد المشي. جلست إلى جوار رجل يحمل في حضنه قفازين جلديين. كان أحدهما مقلوبًا من الداخل، وظل يحاول إعادته دون استخدام يده اليمنى.

مدت ميرا يدها تلقائيًا، ثم تذكرت تعليمات الراحة.

قال الرجل: «أصلحوا يدك أيضًا؟»

«نعم.»

رفع القفاز كأنه يقترح هدنة. «إذن نتركه هكذا.»

كان اسمه عبد اللطيف. أراها بنفسه ضمادًا صغيرًا عند قاعدة الإصبع، وقال إنه أهمل ألمًا حتى صار يوقظه ليلًا. يعمل في إصلاح آلات موسيقية قديمة، ويظن أن العالم يستطيع الاستغناء عن كثير من الأشياء، لكنه ما يزال يأتي إليه إذا أصدر وتر صوتًا غير الذي ينتظره صاحبه.

«الآلات الجديدة تضبط نفسها»، قالت ميرا.

«وتخطئ وهي تعرف أنها مصيبة.»

ضحكت. قال إنه يمزح، وإن بعض الأدوات الجديدة أنقذ عمله من الزوال؛ يستطيع الآن صنع جزء لم يعد أحد يصنعه، ثم يقضي ثلاثة أيام ليجعل صاحبه ينسى أنه جديد.

«لماذا يريدون أن ينسوا؟»

تأمل القفاز المقلوب. «أحيانًا لأن أباهم لمس القطعة القديمة. وأحيانًا لأنهم دفعوا ثمنًا كبيرًا ولا يريدون أن يراه الناس.»

تذكرت ميرا أثر الحرق الذي اختفى من يدها. قالت إن عليها أن تتعلم ملمسها من جديد، وإن ذلك يزعجها أكثر مما توقعت.

«هل تغيرت القوة؟» سأل.

«الأماكن الصغيرة. أين يلتصق القماش، وأين يبدأ الدفء. أعرف شكلها قبل أن أعرفها.»

أومأ كأنه يعرف شيئًا قريبًا، دون أن يدعي أنه عرف تجربتها كلها. ثم قال إن زوجته، بعد عمليتها الأولى، كانت تطلب منه أن يطرق قبل دخول المطبخ؛ تبدلت قدرتها على سماع الحركة خلفها، وكان يظن أنه يرفق بها حين يدخل بصمت.

«كم احتاجت؟»

«لا أدري. في يوم لاحظت أنني لم أطرق، وأنها سألتني إن أردت الشاي. لم نحدد يومًا لانتهاء الأمر.»

أرادت ميرا أن تسأله كم مضى على زواجهما. منعت نفسها؛ كان السؤال سيجعلها تقيس ما بينها وبين يونس مرة أخرى. الرجل يتكلم عن سنوات عاشها، وهي تفكر فورًا في سنوات قد لا تتساوى حصتهما منها. ضاقت بهذا الحساب الذي يتسلل حتى إلى الأحاديث الطيبة.

دعتها العاملة إلى اختبار أخير. وقفت، فوقع أحد القفازين من حجر عبد اللطيف. انحنى هو، وانحنت هي، ثم توقف الاثنان وضحكا. التقطته موظفة تمر في الردهة، وناولته الرجل دون أن تعرف سبب الضحك.

حين عادت بعد الاختبار كان المقعد خاليًا. ترك عبد اللطيف بطاقة ورقية على الطاولة، كتب في ظهرها: «إذا احتاج المقبض الذي في حقيبتك إلى نابض». تحت الجملة عنوان ورشته.

نظرت إلى حقيبتها باستغراب. لا بد أنها أخرجت المقبض مرة أخرى وهي تتكلم. كان جسدها يحاول العودة إلى العمل حتى حين لم ترد أن تطلب منه ذلك.

وضعت البطاقة في جيب منفصل. خرجت أخف مما دخلت الردهة، لا لأن يدها صارت مألوفة، بل لأن أحدًا استطاع أن يجلس إلى جوار غرابتها من غير أن يعاملها باعتبارها سؤالًا عن معنى وجودها.

في الطريق إلى البيت اشترت برتقالتين. كانت قد اشترت الخبز فعلًا، وتركته في حقيبتها منذ الصباح حتى انضغط جانب منه. تناولت البائعة قطعة نقود كانت ميرا قد وضعتها في كفها، ثم دفعت إلى كيسها حبة ثالثة.

«هذه لنور.»

«كيف عرفت أنها لن تأكل الاثنتين؟»

«لأنك ستقولين لها إنهما للعشاء، فتأكلهما قبل العشاء.»

حملت الكيس باليمنى، وتركت اليسرى حرة. أرادت أن تمشي بلا عمل تؤديه بها، وأن تعتاد وزنها في الهواء. في المرآة الضيقة عند مدخل العمارة رأت وجهها كما تركته. توقفت؛ رائحة السائل المعقم سبقتها إلى السلم.

فتح يونس الباب. كان قد عاد مبكرًا، وعلى قميصه طية من معطف العيادة.

«قلت لك لا تأت»، قالت.

«أنا في البيت.»

أخذ الكيس، ونظر إلى يدها. انتظر حتى مدتْها.

مر إبهامه فوق ظاهر كفها، ثم توقف عند الموضع الذي كان فيه أثر الحرق. عرفته ميرا قبل أن ينظر إلى وجهها. بحثه كان خفيفًا، مهذبًا، أشد إيلامًا من سؤال مباشر.

«لم أنقله»، قالت.

رفع عينيه.

«أعرف.»

«كان يمكن أن ينقلوه في الشكل. اخترت ألا يفعلوا.»

«لم أطلب منك ذلك.»

لم تسحب يدها، لكنه خفف قبضته حتى بدت كفه تسند شيئًا قد لا يكون له. سمعا حركة من الممر. كانت نور واقفة، والحساس خلف أذنها يختفي تحت الشعر.

«هل أراها؟»

تركت ميرا يد يونس، ومدتها إلى ابنتها. قلبتها نور بين كفيها، ثم قرّبت إصبعًا من بروز الإبهام.

«هذا بقي.»

«طلبته.»

«أحسن. أين سأضع الخاتم وإلا؟»

ذهبت إلى غرفتها وعادت بخاتم رخيص صنعته في المدرسة قبل أعوام، دائرة غير منتظمة من معدن خفيف. كانت ميرا تضعه في درج العمل لأنه يعيق الأدوات. أدخلته نور في إصبعها، ثم ضغطت عليه كي لا يدور.

«الآن تشبه يدك.»

قالت ميرا: «هي يدي.»

«أعرف.»

هذه المرة جاءت الكلمة سهلة، فلم تؤلمها.

في المساء حاول يونس أن يقشر البرتقال. انتزع جزءًا كبيرًا من القشر ومعه اللب، فضحكت نور، ثم طلبت أن تتولى الأمر بيدها السليمة. رفض كلاهما في الوقت نفسه. رفعت ميرا البرتقالة الثالثة، وأخذت تعمل عليها ببطء باليمنى، بينما تسندها اليسرى. لم يكن ذلك تدريبًا وصفته الورشة، لكنه كان أول عمل تريد فعلًا أن تؤديه.

بعد أن نامت نور، خرجت ميرا إلى المطبخ. وجدت يونس جالسًا أمام المجسم. كان يحاول رفع نافذته الصغيرة من الأسفل كما يرفع نافذة البيت، لكن المفصل المصغر لم يكن عالقًا.

«لم أتعمد أن أتردد»، قال قبل أن تجلس.

وضعت يدها على الطاولة.

«أعرف. هذا ما جعلني أحزن.»

ظل ينظر إليها. كانت تتمنى أن يشرح لها الأمر، ثم تتمنى في اللحظة نفسها ألا يحوله إلى تفسير يمكنهما الموافقة عليه وإنهاء الحديث.

قال: «كنت أعرف ذلك الموضع وأنا مغمض العينين.»

«وأنا كنت أعرف كيف أمسك كوبًا دون أن أفكر.»

مد يده هذه المرة ولم يمسها حتى هزت رأسها. وضع كفه تحت كفها، وتركها تتحكم في الضغط. كان الجلد عند قاعدة إبهامه خشنًا من عادة قديمة في الإمساك بالأدوات. تعرفت إليه، ثم تعرفت إلى الدفء الذي يتأخر قليلًا في يدها الجديدة.

قالت: «انتظر.»

فانتظر.

حين استقر الإحساس، سحبت الكرسي بقدمها وجلست بقربه. بقي المجسم بينهما على الطاولة، ووراءه النافذة الكبيرة مفتوحة على بحر لا يُرى منه في الليل إلا ضوء يمر.

الفصل الرابع

اختبار على جسد حي

وصلت سارة قبل الموعد باثنتين وعشرين دقيقة، ومعها رجل يحمل معطفها فوق ذراعه. حين ضاق المقعد وقف عند النافذة، وظل يطوي المعطف ثم يفتحه، باحثًا عن شكل لا يجعله عبئًا في يده.

رآهما يونس من الباب الداخلي. كانت سارة تنظر إلى الشاشة الصامتة فوق مكتب الاستقبال، لكن عينها لم تتبع الصور. تعلن الشاشة عن خدمة جديدة تتيح للمرضى متابعة بعض وظائف أجسادهم في المنزل. رفع يونس يده إلى المفتاح وأطفأها. لم يكن قد انتبه من قبل إلى أن الانتظار تحت إعلان عن احتمالات الشفاء قد يجعل المريض يشعر بأن ما ينقصه خدمة لم يشترها بعد.

قدم الرجل نفسه: أنس. كانت قبضته حارة، وعلى إصبعه أثر حلقة نزعها حديثًا ليعمل.

قال: «تبدلت نوبتي. استطعت أن آتي.»

فتح يونس لهما الغرفة. اختارت سارة الكرسي الأقرب إلى الفحص، وجلس أنس عند الطرف الآخر، كأنه يريد أن يترك لها طريقًا إذا احتاجت إلى النهوض بسرعة.

وضعت أمامهما ورقة بيضاء، وكتبت عليها ثلاثة أسئلة: هل تتكرر القراءة؟ ماذا تعني؟ هل تغيّر الرعاية الآن؟

قالت: «نستطيع الإجابة عن الأول اليوم. الثاني قد يحتاج وقتًا. الثالث سنخبركما به كلما عرفنا شيئًا يخصه.»

نظر أنس إلى الأسئلة، ثم قال: «اعتقدت أن الأجهزة تعرف أسرع من ذلك.»

«تستخرج النتيجة بسرعة»، قالت أمينة. «تفسيرها يحتاج إلى أن نعرف ماذا قاست، ومن أي عينة، وماذا نملك للمقارنة.»

كانت تحدثه دون تعالٍ. راقب يونس يده تستقر أخيرًا على ركبة سارة، ثم تبتعد عندما تحركت لتعدل جلستها. أعطته معطفها، فطواه ووضعه على الكرسي الفارغ. بدا شاكرًا لهذه المهمة الواضحة.

شرح يونس أن مادة الفحص السابق وصلت، وأن التناقض لم ينتج عن تبادل اسمين أو اختلاف بسيط في تاريخ العينة. كان السجل يصف ملف التوافق على نحو، بينما أظهر التحليل الحالي نمطًا يحتاج إلى تحقق مستقل. استخدم كلمة «نمط»، ورأى أنها لا تريح سارة أكثر من كلمة «خلل» التي امتنع عن قولها.

سألت: «أين هو؟ في قلبه؟»

قال: «لا نتحدث الآن عن شكل عضو. الفحص يتعلق بإشارة بيولوجية في المادة التي نحللها. الصورة التي أخذناها ونموه وحركته أشياء نتابعها أيضًا، لكنها لا تجيب عن السؤال نفسه.»

«هل يعني أن شيئًا رُكب فيه؟»

«لم نر جهازًا، ولا يوجد ما يبرر هذا الاستنتاج.»

«لكن شيئًا حدث.»

سكت يونس. كان يعلم أن سكوته سيُقرأ، وأن أي كلمة تالية ستُقرأ أيضًا. ترك لأمينة أن توضح الفحص الإضافي المقترح وحدوده، ثم سأل سارة أن تعيد بلغتها ما فهمته، كي يتأكد أنهما لم يحملا الغموض إلى جملة أطول.

قالت: «أنتم وجدتم علامة لم تتوقعوها. تريدون أن تعرفوا إن كانت موجودة عندي أو عند أمي. وإذا كانت عندنا، فهذا لا يعني وحده أنها تؤذي الطفل.»

«نعم.»

«وإذا لم تكن؟»

قالت أمينة: «تتغير الأسئلة التي نطرحها. لا أريد أن أعطيك قائمة احتمالات قبل أن نعرف أي طريق يستحق أن نسلكه.»

وافقت سارة على أخذ العينة اللازمة منها، وعلى مقارنة البيانات المتاحة. لم توافق على الاتصال بأمها في تلك اللحظة.

«أريد أن أتكلم معها أولًا.»

«هذا حقك»، قال يونس.

أضاف أن العينة العائلية لا تؤخذ إلا بموافقة صاحبتها، وأن أمها تستطيع رفض المشاركة. عندئذ سأله أنس إن كان الرفض يؤخر علاج الطفل.

نظر يونس إلى سارة وهو يجيب. «لا يوجد علاج عاجل نؤجله انتظارًا لها. إذا تغير شيء يستدعي إجراءً، سنخبركما بما نعرفه وبما لا نعرفه.»

على السرير، حاولت سارة الاستلقاء بسرعة، ثم توقفت ووضعت يدها أسفل ظهرها. تقدم أنس لمساعدتها، لكنه أمسك كتفها في موضع غير مريح. قالت له أين يضع يده. نفذ تعليماتها، ثم بقي بجوارها وهو ينظر إلى يونس.

سأل: «هكذا؟»

قالت هي: «نعم، هكذا.»

رأى يونس ابتسامة قصيرة تمر بينهما. في العيادة يعرف الأزواج أحيانًا كيف يتحولون إلى فريق عبر أصغر الأعمال: رفع وسادة، تقريب كأس، الإمساك بطرف كم كي لا يبتل. وكان يعرف أيضًا كيف يستطيع الخوف أن يجعل هذا كله امتحانًا ينجح فيه أحدهما ويفشل الآخر.

أحضرت أمينة أداة أخذ العينة. ظلت سارة تنظر إلى بطنها بدل أن تنظر إلى ذراعها. حين سألتها أمينة إن كانت مستعدة، قالت: «لحظة.»

مدت يد أنس إلى موضع عند جانب البطن.

«الآن.»

لم ير يونس الحركة، لكنه رأى وجه الرجل يتبدل. انفرجت شفتاه، ثم ضحك ضحكة قصيرة أخفاها كأنه ارتكب خطأ في مكان جاد.

«شعرت به.»

«هذا ما أحاول أن أريك منذ يومين.»

بقيت يده في الموضع نفسه بعد أن سكنت الحركة. انتظرت أمينة بصمت حتى أعادت سارة ذراعها إليها.

في أثناء تجهيز العينة سأل يونس عن أفراد العائلة الذين خضعوا لعلاج طويل أو إجراءات توافق قديمة. تحدثت سارة عن إصابة أمها في ساقها، وعن عملية لجَدّتها لم تعرف تفاصيلها، وعن خال كان يحمل جهازًا خارجيًا في آخر حياته.

«كل أسرة فيها هذا»، قالت. «هل ستدخلون كل ذلك في السؤال؟»

«فقط ما قد يساعد على تفسير القراءة.»

«أمي ستسمع كلمة الجدة وتعتقد أننا نلومها.»

قالت أمينة: «إذن نبدأ بأننا لا نبحث عمن نلومه.»

تحرك وجه يونس قليلًا. كان يريد قول العبارة نفسها، لكنه عرف أنها أوسع مما يمكن أن يضمنه طبيب. إذا ظهر أن تدخلًا سابقًا أُجري بلا شرح كافٍ، سيصبح اللوم جزءًا من العالم خارج هذه الغرفة. لم يقل ذلك. لم يكن هناك بعد ما يسمح بأن يفتح هذا الباب على سارة.

انتهى أخذ العينة، وبدأ فحص المتابعة. ظهرت اليد الصغيرة قرب الوجه ثانية. وجدها يونس هذه المرة أشبه بيد تحجب الضوء. عرف أن هذا التشبيه من عمل خياله، ومع ذلك تمسك به. حين يكون الطبيب أبًا، تضيف ذاكرته إلى الصور ما لا تقيسه الأجهزة.

سأله أنس عن حجم الطفل، فأجابه. سألت سارة عن الحركة التي شعرت بها، فأراها موضع الساق. حاولت أن تميز قدمًا صغيرة بين الظلال، ثم قالت إنها تراها. لم يعرف إن كانت رأتها فعلًا، ولم يصحح لها ما لا يضرها أن تتخيله.

طلبت سارة أن تجلس قبل أن تعود إلى كرسيها. سندت نفسها إلى الوسادة، وأبقت قدميها معلقتين فوق الأرض. كان أنس يجمع أغراضها، يضع الشيء في الحقيبة ثم يخرجه حين تذكر أنه سيحتاجه بعد قليل. وضعت يدها فوق يده كي يتوقف.

«اتصل بأمي»، قالت.

تردد. «الآن؟»

«الآن، قبل أن أتراجع. لا أريد أخذ عينة اليوم. أريد أن أسمعها فقط.»

سألها يونس إن كانت تفضل أن يتركهما. قالت لا، ثم صححت: «ليس كل الحديث. فقط إذا لم أعرف كيف أشرح.»

اتصل أنس، ووضع الجهاز بينهما. جاء صوت امرأة تسأل أولًا إن كانا قد أكلا. أجابتها سارة عن الطعام، ثم عن الطريق، ثم سكتت حتى نادتها أمها باسمها مرة أخرى.

«أنا في العيادة.»

تغيرت نبرة المرأة. قال أنس بسرعة إن الفحص انتهى وإنها بخير، فتدخلت سارة لتقول إنها تريد شرح الأمر بنفسها. تركها. لاحظ يونس كيف أبعد الجهاز قليلًا ثم أعاده، حركة صغيرة يحاول بها المرء إصلاح تدخل لا يعرف أين كان حدّه.

قالت سارة ما فهمته، ببطء، ولم تستخدم أكثر الكلمات التي استخدموها. قالت إن هناك قراءة يريدون معرفة إن كانت موجودة في العائلة، وإن الطبيب لا يقول إن الطفل مريض. في الطرف الآخر صمتت الأم، ثم سألت:

«هل فعلتِ شيئًا من تلك الإجراءات ولم تخبريني؟»

أغلقت سارة عينيها. أحس يونس أنه صار شاهدًا على خلاف لم يبدأ اليوم.

«لا يا أمي.»

«لأنك قلتِ إنك لن تفعلي.»

«أنا أعرف ماذا قلت.»

ترك يونس لهما لحظة. ثم أشار لسارة مستأذنًا. ناولته الجهاز، فقدم نفسه وشرح أن السؤال لا يفترض أنها اختارت إجراءً ولا أنها أخفت شيئًا، وأن أي تاريخ علاجي يمكن أن يضم معلومات لم يحتج أصحابها إلى مناقشتها في البيت. سألته المرأة إن كان يقصد علاجها هي. قال إنهم لا يقصدون شخصًا بعينه الآن.

«أنا عولجت مثل الناس»، قالت.

«ولهذا نحتاج أن نفهم العلاج، إذا أحببت أن تساعدينا. لا نختبر صدق أحد.»

سمع حركة في الطرف الآخر، وصوت باب يُغلق. حين عادت المرأة إلى الكلام كانت وحدها في مكان أهدأ.

«آجيوا عندي من بعد الموعد، نوجّد ليكم الغدا.»

قالت سارة: «تعبنا قليلًا. نأتي غدًا.»

«إذن أرسل لكم الطعام.»

انتهت المكالمة على ذلك. أعاد يونس الجهاز إلى سارة، فرأى أثر أظافرها في راحة كفها.

«أمي تخاف حين لا تفهم»، قالت.

قال أنس: «كلنا نفعل.»

نظرت إليه، وكان في النظرة امتنان وطلب بأن يترك الجملة كما هي. فعل.

أعطاها يونس كأس ماء. لم يقل إن الحديث سار جيدًا؛ لا يعرف كيف ستعيشه بعد أن تخرج من الغرفة. قال فقط إن أمينة تستطيع شرح الأمور لوالدتها في جلسة مستقلة، وإن سارة تستطيع الحضور أو عدم الحضور. أراها أن هناك أكثر من طريقة للتقدم، بدل أن يطلب منها مزيدًا من الشجاعة.

حين شربت نصف الكأس، تحرك الجنين فوضعت يدها على بطنها. تبسمت رغم تعبها.

«هذا لا يعرف شيئًا عن كل الكلام.»

ابتسم أنس، ووضع يده قرب يدها دون أن يزاحمها. شعر يونس برغبة في أن يتركهما مع هذه الحركة قليلًا، فأشار إلى أمينة أنه سيخرج ليغسل يديه بعد انتهاء شرحها. كانت تعرف كيف تمنح المرضى وقتًا دون أن تسميه مهلة.

بعد الفحص بقيت أمينة معهما لتشرح ما سيصل إليهما من نتائج وكيف. خرج يونس إلى المغسلة في الممر. كانت المياه دافئة أكثر مما يحب. خفض حرارتها، وبقي يغسل أصابعه مع أنه أنهى ذلك قبل لحظات.

تذكر نور قبل أن تولد. تذكر مقعدًا أخضر في مركز الرعاية، وميرا واقفة لأنها لم تستطع البقاء جالسة، وصوت المرأة التي حملت طفلتهما وهي تطلب منهما ألا يدخلا حاملين هذا القدر من الخوف. كانت تضحك حين تقول ذلك. لم ينجبا نور في غرفة سرية ولا عبر معجزة مبهمة. عرفا ما أمكن معرفته، ووقعا ما فهمه يونس آنذاك، وسألا أسئلة كثيرة. ثم ولد شخص لم يكن في الأسئلة.

أغلق الصنبور.

لم يكن يندم على نور. شعر بغضب مفاجئ من مجرد الصيغة التي خطرت له؛ كأن الدنيا يمكن أن تُرتب في خيارين، ابنته أو شيء آخر، ثم يُطلب منه أن يكون منصفًا. عاد إلى الغرفة وهو يجفف يديه أكثر مما تحتاجان.

كانت سارة واقفة أمام صورة على رف المكتب. فيها نور في الثامنة تقريبًا، تحمل طائرة ورقية مكسورة، وميرا إلى جوارها، بينما يظهر نصف وجهه عند الطرف لأن المؤقت التقط الصورة قبل أن يصل إلى مكانه.

قالت: «هذه ابنتك؟»

«نعم.»

«كم عمرها الآن؟»

«خمسة عشر عامًا.»

تأملت الصورة قليلًا. لم تسأله عن ميرا. كانت تعرف، أو خمنت، أو لم تجد أن الأمر يحتاج إلى سؤال.

«هل كنت هادئًا هكذا قبل أن تولد؟»

ضحك من غير أن يقصد.

«لم أكن هادئًا.»

«لكنك كنت تعرف أكثر منا.»

«كان عندي أسماء أكثر للأشياء التي أخافها.»

نظرت إليه، ثم أعادت الصورة إلى وضعها. رأى أنه منحها شيئًا مفيدًا للمرة الأولى منذ جلست: طبيبًا لا يقف خارج ما يحدث لها تمامًا. حذر نفسه في الوقت ذاته من أن يستعمل ابنته جسرًا إلى ثقة لم يكسبها بعمله بعد.

في الاستقبال طلبت سارة نسخة موجزة مما اتفقوا عليه. أراد أنس أن يحملها، فوضعتها في حقيبتها إلى جوار الصورة الورقية.

قال: «سأتصل بأمي بعد أن نأكل.»

صححت له: «بأمي.»

«قلتها كما تقولينها أنت.»

خرجا معًا. من الزجاج رأى يونس أنس ينحني ليصلح رباط حذائها قبل أن يصعدا إلى العربة. نظرت سارة إلى الناحية الأخرى ريثما انتهى، كأنها تمنحه خصوصية هذه العناية الصغيرة.

عادت أمينة إلى الغرفة وأغلقت الباب.

«هل تتوقعين شيئًا؟» سأل.

«أتوقع أن علينا منع أنفسنا من توقع الكثير.»

جلست هذه المرة. كان التعب ظاهرًا عند عينيها. قالت إن مادة الفحص الأول تحتاج إلى تحقق في مختبر مستقل، وإنها لا تريد أن يقتبس أحد من تقرير آلي صيغة تصنيف نهائية.

«هي لا تريد تحسينات»، قال يونس.

«سمعتها.»

«إذا ظهر شيء قديم...»

«فسيكون قديمًا. علينا أولًا أن نعرف ما هو.»

في الصباح نفسه أوقفته نور حين أراد أن يسألها للمرة الخامسة إن شعرت بدوار. قالت له إن السؤال المتكرر يجعلها تبحث عن دوار حتى حين لا يوجد.

وصلت رسالة من المدرسة. فتحها بسرعة، فكانت موافقة على غياب نور عن النشاط البدني حتى إتمام المتابعة، مع اقتراح بديل في قاعة النماذج. شعر بارتياح أحرجه. عاد إلى أمينة، فوجدها تنتظر.

«من نور؟»

«المدرسة.»

«هل تريد أن نؤجل مراجعة بقية الحالات؟»

«لا.»

قالها بسرعة، ثم استدرك: «بعد عشر دقائق.»

خرج إلى شرفة ضيقة وراء العيادة. كانت تطل على ساحة لم يعد فيها موقف سيارات، بل صفوف من وحدات التسليم الصغيرة. تتحرك الواحدة إلى خط مضاء، وتفتح حجرتها، ثم تغلقها وتمضي. جلس رجل مسن على المقعد الوحيد، ينتظر وحدة لم تعرف كيف تبلغ الدرجة المرتفعة عند باب بيته. رأى يونس عاملًا شابًا يقترب منه ويسأله. بعد قليل حمل العامل الطرد، ومشى مع الرجل خارج الساحة.

كان يمكن إصلاح الدرجة. كان يمكن أن تتغير الوحدات. وكان يمكن ببساطة أن يحمل أحدهم الطرد. وجد يونس نفسه يفكر في هذه البدائل كأنها تخص سارة أو نور، ثم أدرك أنه لم يأكل منذ الصباح.

في نهاية اليوم اتصلت سارة. لم تكن تبكي، لكن صوتها اقترب من البكاء حين قالت إن أمها وافقت على الحديث مع أمينة، وإنها تريد أن تفهم قبل أي عينة.

«هذا ما سنفعله»، قال.

«سألتني هل الطفل مريض. قلت لها إنكم لم تقولوا ذلك. هل نقلت الكلام كما ينبغي؟»

«نعم.»

تنفست. سمع أنس في الخلفية يسأل عن الملح، فأجابته سارة بنبرة عادية تمامًا، ثم عادت إلى المكالمة.

«هناك أمر آخر. اتصل بي شخص من جمعية، يقول إنه عرف أنني أتابع حملًا من دون تحسين. لم أعطه اسمك.»

استقام يونس في مقعده.

«هل قال كيف عرف؟»

«قريب لأحد العاملين في المركز السابق، على ما أظن. يريد أن يساعد في المصاريف. قلت له إننا ننتظر نتائج.»

«لا تحتاجين إلى إعلان شيء كي تحصلي على رعاية هنا.»

«أردت أن أخبرك قبل أن يقول أحد إنني قلت شيئًا.»

طمأنها إلى أن حديثها لم يخرج من العيادة، ووعدها بالتعامل مع أي طلب لمعلوماتها بحسب اختيارها. بعد أن أنهت الاتصال كتب ملاحظة صغيرة لأمينة عن التواصل، لا عن الجمعية. لم يكن يريد أن تبدأ حكاية أخرى حول امرأة تحاول تناول عشاء هادئ.

عند خروجه، وجد في معطفه ملصقًا صغيرًا سقط من مجسم نور. نافذة زرقاء مرسومة بخط غير مستقيم. لا بد أنها ألصقته به حين عرضت عليه عملها في الليلة الماضية. أبقاه في جيبه الداخلي.

في البيت كانت نور وميرا عند الطاولة. أمامهما قطعة قماش وخمس خرزات، تنقلها ميرا من وعاء إلى آخر. كلما سقطت واحدة التقطتها نور ورفعتها إليها بلا تعليق.

قالت نور حين رأته: «أرسلت تسجيل اليوم. الطبيب يقول إنه يستطيع مراجعته غدًا.»

«جيد.»

«وآدم لديه جهاز قراءة قديم في التعاونية. قال إنك تستطيع أن تسأل الطبيب إن كان مناسبًا. لا يفعل شيئًا بالجسد، يقرأ فقط.»

كانت قد جهزت دفاعها قبل أن يعترض. جلس إلى جوارهما، وطلب اسم الجهاز ومواصفاته. أرسلهما إلى الاختصاصي، ثم أغلق الشاشة.

سقطت خرزة من يد ميرا، فتدحرجت نحو حافة الطاولة. مد يونس يده فأمسكها. رفعت ميرا حاجبًا، ففتح كفه وأعادها إلى الوعاء.

قالت نور: «هذه مساعدة. ليست غشًا.»

ضحكوا. وفي تلك الضحكة القصيرة شعر يونس بقدر ما كان قد حمله إلى البيت، وبقدر ما لم يكن عليه أن يضعه كله على الطاولة.

الفصل الخامس

جيل لا يعرف الانتظار

عرفت نور أن أباها قرأ رسالة الطبيب ثلاث مرات، لأنه أعاد السؤال نفسه بصيغتين مختلفتين ثم مد جهازه إلى أمها كي تقرأها أيضًا.

كانت الموافقة واضحة: زيارة قصيرة، وقراءة خارجية للحساس، من دون تعديل أو تجربة تنبيه، وإيقاف النشاط إذا ظهر أي عرض. الطبيب يعرف جهاز آدم، ويريد البيانات التي يستطيع التقاطها من الوصلة القديمة. لم يكن في الرسالة ما يسمح بتجربة مجال التزامن، وهو الشيء الوحيد الذي كانت نور ترغب في رؤيته منذ أسابيع.

قالت لأبيها: «سنشاهد فقط.»

«المشاهدة قد تطول.»

«سأغمض عيني كل عشر دقائق.»

لم يضحك. خففت نبرتها وأضافت أنها ستجلس، وأن أمها ستكون معها. كانت تعرف أنه يخاف، لكنها بدأت تكره عدد الأشياء التي يتحول فيها خوفه إلى تعليمات لجسدها.

عند الباب وضعت حذاءها بنفسها قبل أن يسبقها أحد إلى ذلك. الإبهام المضمد لا يمنع ربط الحذاء، إذا قبلت أن يستغرق الأمر أكثر من المعتاد. انتظرت ميرا قرب الدرج، تتظاهر بمراجعة عنوان التعاونية. لهذا سامحتها نور على الانتظار.

كانت التعاونية في مبنى قديم على طريق يصعد من الميناء. كتب على واجهتها «دار الإصلاح»، وتحته بخط أصغر أسماء أشخاص وجهات تساهم

في إدارتها. لم يكن اسم مدار بينهم. لاحظت نور ذلك قبل أن تتذكر أن أباها سيلاحظه أيضًا لو جاء.

في المدخل أصرت آلة صغيرة على أن توضع الحقائب في حجيرات. كانت واسعة بقدر حقيبة المدرسة تقريبًا، فأخرجت نور مجسم النافذة وحملته بيدها. سألت الآلة إن كانت تستطيع إبقاءه معها، فأضاءت حافته باللون الأخضر. قالت لها شكرًا، ثم شعرت بسخافة طفيفة لأنها لم تكن تعرف إن كان هناك ما يستقبل الشكر غير وظيفة تسجل الأصوات.

«يمكنك أن تشكري الأشياء حتى لو لم تعرف ماذا تفعل به»، قالت ميرا، كأنها قرأت وجهها.

«وأنت هل يشكرك الناس؟»

«حين أصلح لهم شيئًا. وحين يريدون أن أسامحهم على التأخر في الدفع.»

«أقصد...»

«أعرف ماذا تقصدين.»

بدا صوتها خفيفًا إلى حد جعل نور تتخلى عن السؤال الذي كانت ستزيده.

استقبلهما آدم عند باب الورشة. كان يرتدي مئزرًا رماديًا، وفي جيبه ثلاثة أقلام ومسطرة خشبية لا تحتاج إلى طاقة. رأته نور يستخدم المسطرة من قبل، واعتقدت أول الأمر أنها دعابة مهنية. ثم اكتشفت أن أحدًا لا يستطيع قطع اتصالها أو منعها من قياس قطعة لأنه لم يجدد اشتراكه.

«أين والدك؟»

«يسأل الطبيب إن كان يستطيع أن يسأل الطبيب مرة أخرى.»

قالت ميرا: «في العيادة. وسيأتي إذا احتجنا.»

رفع آدم يديه. «إذن لدينا مهمة واضحة: ألا نحتاج.»

قاد نور إلى كرسي يمكن أن يسند الرأس دون أن يبدو سريرًا. على الطاولة جهاز صغير ذو فتحات قديمة، وإلى جواره سلك وصل قصير. طلب أن يرى موافقة الطبيب، ثم قرأ الإعدادات بصوت مسموع وهو يراجعها مع ميرا. كان

يفعل ذلك لكل شخص، على حد علم نور، لكنه أغضبها في نفسها؛ بدت في اللحظة نفسها مريضة وطفلة، وهو جمع يصعب أن تجلس فيه باستقامة.

رأى المجسم في يدها.

«هل هذا ما أعادك إلى البيت بالدرجة الكاملة؟»

وضعته على الطاولة. فتح نافذته بإصبع، ونظر من خلالها إلى الورشة.

«المفصل جيد.»

«جرّب إغلاقه.»

«الخشب القديم يلتوي عند الرطوبة. كيف ثبتِّه؟»

شرحت له. سأل عن زاوية لم ينتبه إليها معلمها، فجلست أقرب إلى الطاولة ونسيت الكرسي الطبي للحظات. أخرج من درج قطعة دقيقة وأراها كيف تستطيع تخفيف الضغط على أحد الجانبين دون تغيير شكل الإطار. لم يركبها عنها. تركها قرب المجسم كي تفكر في الأمر.

في الجانب المقابل كان صبي أصغر من نور بعام أو عامين يجلس أمام طاولة منخفضة. على أذنه جهاز قديم، وعلى الطاولة عدة قطع مطبوعة بألوان مختلفة. رفعت امرأة تعمل معه قطعة بنفسجية، فهز رأسه وطلب البرتقالية.

سألت نور آدم إن كانوا يصلحون الجهاز. قال إنهم يصنعون له غطاءً جديدًا، وإن العطل الأصلي انتهى منذ ساعة، لكن اختيار اللون يستغرق أكثر من الإصلاح.

«من حقه»، قالت ميرا.

وافق آدم فورًا. بدا الاتفاق مرحًا، كأنهم جميعًا يعرفون أنه اضطر إلى تغيير اختيار ميرا في قطعة ما ثم تراجع.

استدعى الصبي آدم بإشارة سريعة. أراد أن يصير الغطاء أنحف، كي لا يعلق في رباط الخوذة. اقترب آدم، واستمع إلى الشرح، ثم جعل الصبي

يرتدي الخوذة ويريه الموضع بدل أن يصفه مرة أخرى. رأت نور كيف تغير وجهه حين فهم أن أحدًا لن يقاطعه ليقول إن الغطاء الحالي يكفي.

«يمكن أن يستخدم المنظومة الداخلية»، همست نور لأمها.

قالت ميرا: «ربما لا يريدها.»

«سيكون الأمر أسهل.»

«عليه أن يعيشها هو.»

كانت عبارة تشبه عبارات أبيها. التفتت نور إلى أمها، وفوجئت بأنها لا تبدو غاضبة ولا بصدد تلقينها درسًا. تابعت النظر إلى الغطاء البرتقالي كأنه يستحق الاهتمام نفسه الذي تستحقه المنظومات السريعة في الورشة.

حين عاد آدم، سألته نور بصراحة. قال إن الصبي يعرف الخيارات وإنه اختار الجهاز الخارجي في الوقت الحالي، وإن على الورشة أن تجعل الخيار الذي اختاره قابلًا للاستعمال جيدًا.

«وإذا كان الاختيار الأصعب؟»

«أحيانًا يكون الأصعب علينا نحن. يجب أن نصنع له قطعة لا نبيع منها ألف نسخة.»

نظرت إلى صفوف الأدراج خلفه. لكل درج أسماء وأرقام، وبعضها عليه خط يد وبعضها علامة مطبوعة. سألت إن كان هذا هو سبب عدم وجود اسم مدار على الواجهة.

«نستخدم أجزاء منهم أيضًا. لا نكسب شيئًا إذا رفضنا جزءًا جيدًا فقط لنبدو مختلفين. ما نطلبه أن يقدر صاحبه على إصلاحه دون أن يطلب إذنًا في كل مرة.»

كانت نور قد سمعت أباها يقول كلامًا قريبًا، لكنها لم تفهمه بهذا الوضوح. في البيت بدا الأمر خلافًا بين رجال يجلسون أمام شاشات. هنا كان غطاء برتقاليًا يريد صبي أن يضع فوقه خوذة.

انفتح باب الورشة، ودخل رجل يحمل على ظهره أداة مساعدة للمشي. تحرك نحو مكتب الاستقبال ببطء. كان يستطيع أن يصل بالطريق الأقصر، لكن روبوت نقل قطع كان يشغل الممر. توقف الروبوت، ثم رجع إلى آخر الممر كله ليفسح له. عبر ببساطة، كأنه اعتاد أن يكون له مكان.

قالت نور: «هل سيعرف أنه يستطيع العودة حين يمر؟»

«نعم»، قال آدم.

«إذن لماذا لا تفعل وحدات المدرسة ذلك؟»

نظر إليها. «هذا سؤال جيد. اكتبيه، وسنرى إن كان السبب إعدادًا نستطيع تغييره أو تصميمًا يحتاج إلى أكثر من ذلك.»

شعرت بفرح صغير. تناولت القلم من جيبه، وكتبت على ورقة كانت قرب المجسم. كتب آدم إلى جوار سؤالها عنوانًا يمكن أن ترسل إليه ملاحظتها، ثم أعاد إليها القلم لتحتفظ به حتى نهاية الزيارة.

عاد الصبي إلى اختبار الخوذة بالغطاء البرتقالي. مرر إصبعه عند الحافة، وهز رأسه موافقًا. وضعت المرأة التي تعمل معه الغطاء البنفسجي في درج القطع الممكن إعادة استخدامها. كان انتصارًا صغيرًا، لكن نور أحبته. تخيلت أن تأتي إلى هنا بعد المدرسة، فتصلح شيئًا ينتهي في يوم واحد، ويخرج صاحبه وهو يعرف ماذا تغير.

من عمق الورشة جاء صوت طرق منتظم. رفعت نور رأسها فرأت سُهى عند منصة واسعة، تعمل مع شخصين وآلة طويلة متعددة المفاصل على تركيب هيكل خفيف. كانت تعرف سهى من المدرسة، لكن طريقة وقوفها هنا مختلفة. لا تحرك يديها بحثًا عن شيء، ولا تلتفت حين يمر أحد خلفها؛ يصل الجزء إلى الموضع الذي تريده قبل أن تمد إليه أصابعها.

همست نور: «بدأوا.»

قال آدم: «نراهم من هنا.»

أدار الكرسي قليلًا. جلسوا خارج الخط الأزرق الذي يحدد نطاق العمل. كانت على الهيكل قطع قماش مشدودة، ثم ظهرت له هيئة مظلة يمكن أن تنفتح فوق ممر. تتوافق حركة الأيدي مع الآلة دون كلام تقريبًا. تنحني سهى، فيرفع زميلها الضلع المقابل، وتتراجع ذراع الآلة في الوقت الذي يحتاجان فيه إلى فراغ.

بدوا لنور كأنهم يعرفون الجملة قبل أن تُنطق. ضحكت سهى مرة حين انزلقت قطعة من يد زميلها، وضحك هو بعدها، ثم رجعا إلى الإيقاع نفسه. أدركت نور أنها تريد أن تكون في ذلك الضحك، لا خارجه.

«هل يسمعون بعضهم؟» سألت ميرا.

«يشتركون في إشارات محددة للحركة»، قال آدم. «المقصود أن يعرف كل واحد أين يتوقع الآخر أن يكون الجزء. ليس ما يفكر فيه عن العشاء.»

«وإذا أخطأ أحدهم؟»

أشار إلى الحدود المحيطة بالمنصة. «تتوقف المجموعة. ثم نعرف لماذا.»

ارتفع ضوء أصفر. ثبتت الذراع، ورفعت سهى يديها. قالت لزميلها إن إحدى القطع أصغر من المطلوب. عاد الكلام عاديًا، متداخلًا، مع اعتراض وضحك واتهام لدرج تخزين سيئ. أحبت نور هذا أكثر من العرض المتقن؛ استطاعت أن ترى نفسها بينهم، ترتكب خطأ يثير ضحكًا بدل أن يفتح باب عيادة.

«لماذا تصنعونها؟» سألت.

«لممر المسنين قرب السوق»، قال آدم. «المظلة الحالية تفتح ببطء، وهم يصلون إلى المطر قبلها.»

«يمكن أن يغيروا الممر.»

«يمكن. طلب ذلك يحتاج إلى وقت. وهذه تستطيع أن تظل في مكانها إذا غيروه.»

كانت أمها تنظر إلى الوصلات، وقد تحركت أصابعها الجديدة فوق ركبتها. عرفت نور أنها تفكر كيف تُرمم المظلة بعد سنوات. أمها تحب في كل شيء احتمال أن يُكسر يومًا وأن يبقى صالحًا للعناية.

اقتربت سهى بعد إيقاف العمل. كانت تحمل زجاجة ماء وعليها أثر غبار في جبينها. نظرت إلى الضماد، ثم إلى الحساس خلف أذن نور، وقالت:

«هل بالغت في العرض حتى جرحت نفسك؟»

«كنت أصنع الفطور.»

«هذا أخطر. أنا لا أقترب من السكاكين قبل التاسعة.»

سألتها نور عن المنصة، فأجابت بحماس. تكلمت عن شيء يصعب وصفه لمن لم يجربه: أن تعرف أن اليد الأخرى ستترك القطعة، لا لأنك رأيتها تتركها، بل لأن إشارة محددة وصلت في موعدها. أخطأت في الشرح مرتين، فضحكت وقالت إن التجربة أوضح.

قالت نور: «بعد الفحص.»

تدخل آدم بهدوء: «بعد موافقة الطبيب على نشاط آخر، في يوم آخر.»

احمر وجهها. رأت أمها تنظر إلى المجسم بدل أن تنظر إليها، فعرفت أن هذا أيضًا رفق. كرهت أن تحتاج إليه، وأحبتها لأنها قدمته.

عادت سهى إلى المنصة، وتركت زجاجتها على طرف الطاولة. كان الشريط الأزرق حول الزجاجة يتحرك كلما مرت آلة قريبة، حركة صغيرة يتأخر فيها الظل عن البلاستيك على الحائط. تتبعتها نور بعينيها، ثم اضطرت إلى أن ترمش.

قال آدم: «نبدأ القراءة؟»

أومأت. ثبت حلقة القراءة حول الحساس، دون أن يغير موضعه. أحست ببرودة خفيفة من سطح الحلقة، وبخشونة الوسادة عند مؤخرة عنقها. سألها إن كان الجلوس مريحًا. قالت نعم.

على الشاشة ظهرت خطوط متجاورة. لم تكن تعرف ما تعنيه، لكنها تعرف كيف يحاول البالغون إخفاء اهتمامهم المفاجئ: يقترب الرأس قليلًا، ثم يثبت. فعل آدم ذلك بعد دقيقة، فراقبته بدل أن تراقب الشاشة.

«ماذا؟»

«أسجل فقط.»

«أعرف أنك تسجل. لماذا قربت وجهك؟»

نظر إليها، وابتسم ابتسامة قصيرة. «لأن الخط صغير.»

كانت إجابة ممكنة، لا إجابة تكفيها.

طلب منها أن تنظر إلى علامة ثابتة في الجدار، ثم تتحرك بعينيها إلى علامة أخرى حين يقول. قراءة بسيطة وافق عليها الطبيب. فعلت ذلك مرة، وثانية، وثالثة. في الرابعة قالت قبل أن يسأل:

«هل حركتم العلامة؟»

توقف آدم عن الكلام.

كانت العلامة في موضعها، لكنها رأت إلى جوارها موضعًا آخر تعرف أنه فارغ. حاولت أن تركز، فسمعت حركة أمها عند الكرسي كما لو أن الصوت جاء من خلف الجدار. لم يكن العالم يدور. ظل واضحًا إلى حد غريب، لكن أجزاءه لم تصل معًا.

«نور؟»

رأت فم أمها، ثم وصل اسمها. أمسكت حافة الكرسي. شعرت بضغط أصابعها بعد أن رأتها مشدودة. أعادها ذلك إلى السكين والطماطم، وإلى اللحظة التي لم تفهم فيها لماذا ينظر أبوها إلى يدها.

قال آدم: «أوقفت القراءة.»

كانت ميرا قد صارت عند كتفها. رأت يدها تقترب، فانكمشت قبل الملامسة.

«لا تحركوني.»

«لن نحركك»، قالت أمها.

أرادت نور أن تقول إن الصوت جاء من مكانه هذه المرة، لكن الغثيان صعد قبل الكلمات. مالت إلى الأمام قليلًا، فساند آدم الكرسي دون أن يجذبها. أبعد كل شيء عن ساقيها، وطلب من شخص في الخلف أن يستدعي فريق الرعاية الذي اتفقوا عليه.

سمعته يذكر الوقت بدقة، بصوت منخفض، ثم ينقل ما قالته هي كما قالته. تمسكت بهذا بينما كانت العلامة الثانية في الجدار تنطفئ من تلقاء نفسها.

«انظري إليّ إذا استطعت»، قالت ميرا.

لم تستطع أولًا. أبقت عينيها على الزجاجة التي تركتها سهى. كانت واقفة، وكانت نور تحتاج إلى شيء يقف. أحست بيد أمها على ساعدها، ومرت لحظة قبل أن يتوافق مكانها مع الدفء.

«الآن»، قالت.

لم تعرف ميرا ما تقصده، أو عرفت ولم تسأل. ظلت يدها حيث هي.

وصلت امرأة من وحدة الرعاية القريبة، تحمل حقيبة صغيرة. نزلت إلى مستوى وجه نور وسألتها عن اسمها، وما تشعر به، وهل تستطيع أن تصف التغير بدل أن تختار له كلمة جاهزة. قالت نور إن الأشياء سبقت نفسها. كررت المرأة العبارة، وسجلتها كما قالتها.

بعد دقائق صار الغثيان أضعف. لم تعد ترى موضعين للعلامة، لكن الخوف بقي في جسدها، ثقيلًا في الساقين. أرادت أن تنهض لتثبت أن الأمر انتهى، فأدركت قبل أن يطلب منها أحد أنها لا تريد اختبار ذلك.

كانت أمها تتحدث إلى أبيها. لم يسمعها الآخرون لأنها خفضت الصوت، لكن نور التقطت اسمها، و«واعية»، و«الفريق هنا». تمنت أن تتصل به بنفسها. كانت الكلمات التي تقولها الأم عن ابنتها في مكالمة كهذه تجعل الابنة موضوعًا في غرفة أخرى، حتى لو جلست قربها.

مدت يدها. فهمت ميرا وأعطتها الجهاز.

«أنا أسمعك»، قالت قبل أن يتكلم.

«أنا قادم.»

«لم أجرب المنصة.»

سكت في الطرف الآخر نصف لحظة.

«تابعي، أسمعك.»

«كانت القراءة فقط.»

«ابقي مع أمك. سأصل.»

حين أعادت الجهاز إلى ميرا، اكتشفت أنها على وشك البكاء. ضغطت شفتيها ونظرت إلى الزجاجة.

اقتربت سهى، وتوقفت على مسافة تسمح لها بأن تبتعد إذا لم تكن نور تريدها. حملت المجسم ووضعته قرب الحقيبة.

«سأحتفظ لك بالقطعة الصغيرة»، قالت.

أشارت إلى ما أعطاها آدم لتعديل المفصل. شيء يعودون إليه لاحقًا. أومأت نور، وشعرت بامتنان لم تعرف كيف تعبر عنه من غير أن تبكي فعلًا.

نُقلت إلى الغرفة الجانبية على كرسي الرعاية، رغم أنها قالت إنها تستطيع المشي. لم تجادل طويلًا. من خلال الباب رأت المنصة الأخرى متوقفة. لم ترد أن يكون جسدها سببًا في إطفاء الورشة كلها، فسألت آدم إن كانوا سيعودون إلى المظلة.

قال: «نعم. وهم ينتظرون القطعة الصحيحة أصلًا.»

وصل أبوها وقد ترك معطفه مفتوحًا. انحنى أمامها، ثم نظر إلى المرأة من فريق الرعاية قبل أن يسأل أي شيء. تبادلا معلومات قليلة، ورأته يجبر نفسه على أن يستمع حتى النهاية.

«أين يزعجك الآن؟» سألها.

«في رأسي قليلًا. لكنني أراك مرة واحدة.»

أراد أن يبتسم، فارتجف شيء عند فمه. جلس إلى جوارها، لا في مواجهتها، ووضع كفه على حافة الكرسي بحيث تستطيع أن تأخذها أو تتركها.

قال آدم للطبيبة إن التسجيل التقط فرقًا بين مسارين قبل ظهور العرض، وإنه أوقف القراءة عند أول شكوى. سلّمها البيانات كاملة. قالت المرأة إنها سترسلها إلى الاختصاصي، وإن الأفضل نقل نور إلى وحدة المراقبة لإتمام التقييم.

أغلقت نور عينيها. لم تكن ترغب في مكان آخر يضعها على كرسي آخر. شعرت بيد أبيها تستقر أخيرًا تحت يدها، وبالإبهام المضمد فوق إصبعه.

«هل سأعود إلى المدرسة؟»

قال: «بعد أن نعرف ما تحتاجينه.»

كانت تكره هذه الإجابة، لكنها لم تجد فيه اليوم قسوة الشخص الذي يملك جوابًا ويخفيه. بدا متعبًا، وأكبر قليلًا من صورته في الصباح.

في ممر الخروج توقفت قرب المنصة. كانت المظلة نصف مفتوحة، تشبه جناحًا لم يُفرد بعد. سهى تحتها، تعيد قياس القطعة مع زميلها. حيّت نور، ثم أشارت إلى المجسم في حقيبة ميرا.

من باب العربة رأت نور يد الآلة تعود إلى الحركة. تحركت الأيدي الأخرى معها، سهلة ودقيقة، وأحست بشيء أشد من الغيرة. كانت ما تزال تريد أن تكون بينهم. ما حدث لم يجعلها تحب العالم البطيء الذي يظن أبوها أنه أكثر أمانًا؛ جعلها تخشى أن يقفل العالم السريع بابه قبل أن تلحق به.

جلست ميرا إلى جانبها. ثبتت الحقيبة بين قدميها كي لا يصطدم المجسم بشيء، ثم وضعت يدها الجديدة على ساعد نور. هذه المرة جاء الدفء والملمس في الوقت نفسه.

أبقت نور عينيها على تلك اليد حتى ابتعدت العربة عن الورشة.

الفصل السادس

قرار العبور

حين نامت نور في وحدة المراقبة، كان يونس قد قرأ التعليمات المثبتة خلف الباب حتى حفظ ترتيبها. تبدأ بطلب غسل اليدين، وتنتهي برقم يمكن الاتصال به إذا شعر المرافق أنه يحتاج إلى مساعدة. بين السطرين مساحة بيضاء ضيقة عليها خدش مائل. ظل ينظر إلى الخدش كلما عجز عن النظر إلى السرير.

كان مسموحًا لمرافق واحد بالبقاء ليلًا. اختارت نور أمها، ثم نظرت إليه بسرعة، كأن عليها أن تعوضه عن الاختيار. قال لها إنه سيعود في الصباح. خرج، وبقي في الممر حتى جاءته ميرا بكوبه الورقي الذي نسيه.

«اذهب إلى البيت.»

«سأنتظر الطبيب.»

«قابلته. سيعود في الصباح.»

نظر إلى الكوب. لم يتذكر أنه اشترى قهوة.

قالت: «إن احتجنا، أنت أول من أتصل به.»

مد يده إلى الباب، ثم أنزلها. كانت نور قد نامت أخيرًا، ولا يحتاج نومها إلى شاهد ثالث. وضع الكوب في الحاوية وغادر.

في البيت نسي أن يشعل الضوء في الممر. تحسس الحائط حتى بلغ المطبخ، ثم جلس في مكان نور. من هذا المقعد تظهر قطعة من البحر تحت عارضة النافذة، ولا يظهر الطريق إلا إذا مال الجالس إلى اليمين. لم يجلس هنا منذ زمن؛ كان يختار دائمًا الكرسي الأقرب إلى الموقد.

وجد الخبز في كيسه، والبرتقالة الأخيرة في وعاء، والخرزة التي سقطت من يد ميرا تحت حافة اللوح. التقط الخرزة ووضعها في صحن. ملأ كأس ماء، وشرب نصفه، ثم اتصل بوحدة المراقبة وسأل سؤالًا يعرف أنه لا يملك سببًا عاجلًا لطرحه.

كانت حالتها مستقرة. لم يتكرر الاضطراب. نامت.

شكر الممرضة، واعتذر عن الاتصال. قالت له إنه لا يحتاج إلى الاعتذار. جعلته الجملة يشعر بمدى اعتيادهم على آباء مثله، وبأنه لم يكن مستعدًا أن يكون واحدًا منهم على هذه الصورة.

قبل أن ينام مر بغرفة نور. على مكتبها مشروع آخر لم يره، قطع صغيرة تشير إلى ممر ومظلة، وخريطة لمسار من السوق إلى البيوت العليا. كانت قد رسمت شخصًا بعصا، وحذفت درجة أمامه، ثم أضافت مقعدًا تحت شجرة. توقّف عند الرسم. منذ الصباح كان يفكر في رغبتها في اللحاق بسهى، في السرعة التي لا يستطيع هو مجاراتها. هنا وجدها تفكر في رجل لا يستطيع صعود درجة.

لم يكن يعرف كل ما تحبه ابنته. هذه حقيقة عادية، تأخر في تقبلها لأن الخوف جعل معرفته بها تبدو له مسؤولية لا يجوز أن تنقص.

أطفأ ضوء الغرفة، وترك الباب كما تركته هي، نصف مفتوح.

في الصباح كانت نور تأكل خبزًا طريًا من صينية، وتحتج على بياضه. جلست ميرا قرب السرير، وقد رفعت شعرها عن وجهها برباط نور. كان في الغرفة شيء من التعب وشيء من الحياة العادية، فاقترب يونس أهدأ مما دخل الممر.

«هل نمت؟» سألت نور.

«قليلًا.»

«إذن لا تسألني لماذا أنا متعبة.»

وضع على الطاولة الخبز الذي جلبه من البيت. رأت الكيس فضحكت، ثم نظرت إلى أمها نظرة المنتصر. جلس، وانتظر أن تنتهي من المضغ قبل أن يسألها عما تشعر به. قالت إن الصداع أخف، وإنها لم تر الأشياء تتكرر، وإن المشي إلى الحمام جعلها غير واثقة من أول خطوتين.

جاءت الطبيبة المسؤولة ومعها اختصاصي الواجهات. تحدثا إلى نور، وأعادا فحوصًا قصيرة، ثم جلس الأربعة حول شاشة واحدة. طلب يونس أن تظل ابنته حاضرة في الحديث ما دامت ترغب، ولم يجد منها إشارة إلى الخروج.

عرض الاختصاصي مقطعين من التسجيل. أشار إلى فرق في زمن وصول بعض المعلومات من الجزء الحيوي إلى المنظومة الصناعية، وإلى محاولات التعويض التي ازدادت بدل أن تعيد الاستقرار.

«لهذا شعرتِ بأن الشيء يحدث مرتين»، قال لنور. «نحتاج إلى تحديد موضع الاختلاف بدقة، لا إلى رفع سرعة المنظومة كلها.»

«هل تستطيعون إعادة ضبطها؟» سألت.

«نستطيع تخفيف بعض الأحمال الآن، ومراقبة استجابتك. أما السبب الذي ظهر في التسجيل، فيحتاج إلى تجهيز وفريق يعملان على هذا النوع من الوصلات باستمرار.»

سأل يونس عن احتمال أن تكون المشكلة عابرة. ذكر الاختصاصي ما يجعل الانتظار بلا خطة غير مناسب: تكرر العرض، وظهوره في القراءة الساكنة، وتوافقه مع ما وصفته الأسرة في البيت. لم يعلن نتيجة نهائية قبل فحوص أخرى، لكنه لم يترك لهم أيضًا راحة أن يعتبروا الأمر حادثًا في ورشة.

«أين؟» سألت ميرا.

أعاد الرجل الشاشة إلى صورة للمضيق. عند الساحل المقابل، إلى الغرب من مسار العبور المعتاد، ظهرت منشأة متصلة بالبر عبر ممرين، وتمتد منها وحدات فوق الماء.

«مركز مدار البحري. لديهم فريق يعرف الوصلة التي تحملها نور، ومختبر يستطيع اختبار نموذج منها دون تجربة كل شيء على جسدها.»

شعر يونس بشيء ينقبض في فكه. اسم مدار لم يفاجئه. منذ الأمس كان يتحاشى الوصول إليه كمن يتحاشى اسم شخص يعرف أنه سيحتاج إليه.

كانت مدار حاضرة في معظم ما استخدمه في عمله، حتى حين لم يظهر اسمها على الواجهة: مواد توافق، وبرامج متابعة، وأجزاء تعيش في أجساد الناس سنوات قبل أن يحتاج أحد إلى معرفة الشركة التي صنعتها. عالج بفضلها مرضى، واعترض على شروطها، ثم عاد إلى استخدام ما لا يملك له بديلًا مكافئًا. يعرف المرء كيف يشرح هذا لزميل، ويصعب عليه شرحه حين تكون ابنته جالسة أمامه بقدميها المتدليتين من السرير.

«ومن يقرر هناك؟» سأل.

ذكر الاختصاصي أسماء الفريق، وطبيبة مستقلة تشارك في التقييم. ثم قال إن ليث السالمي عرض تنسيق قبول سريع بعد الاطلاع على ملخص الحالة بإذن الأسرة السابق للتشاور.

سمعت نور الاسم قبل أن يجيب أبوها.

«هذا الذي تقول إنه يحب أن يكون كل شيء تابعًا له؟»

نظرت ميرا إلى يونس. أحس بحرارة خفيفة في وجهه.

«قلت أشياء أكثر من ذلك.»

«أنا سمعت هذه.»

لم يستطع أن يلومها على اختصار أمين إلى هذا الحد. قال الاختصاصي إن قبول الإحالة لا يعني الموافقة المسبقة على أي تدخل، وإن الفريق

سيعرض النتائج والبدائل بعد التقييم. أراد يونس أن يسأل أسئلة كثيرة في وقت واحد. اختار سؤالًا واحدًا: هل النقل مناسب الآن؟

قالت الطبيبة إن الحالة تسمح بنقل طبي مخطط بعد فترة المراقبة المتفق عليها، مع استمرار الإعداد المؤقت وحساس المتابعة. يمكنهم العودة إلى البيت لساعات للاستعداد إذا بقي الوضع كما هو، ثم يأتي فريق النقل في الموعد. شرحت ما قد يغير الخطة، وبقيت حتى أعادت نور التعليمات بلغتها.

«ألا أجرب شيئًا لأرى هل أصلحوه»، قالت نور.

«بالضبط.»

نظر يونس إليها. كانت قد فهمت نفسها أيضًا.

اتصل ليث بعد الظهر. لم يظهر على الشاشة رجل يطابق عمره. كان يونس يعرف أنه تجاوز المئة بسنوات طويلة، لكن ما رآه وجه ضيق، فيه شحوب خفيف تحت العينين، وشعر قصير رمادي عند الصدغين. خلفه مر شخص يدفع سريرًا، فابتعد ليث عن الطريق قبل أن يكمل التحية.

«رأيت التسجيل»، قال. «لدينا مكان غدًا. الفريق يبدأ التقييم بعد وصولكم واستقرار نور.»

«أريد أن أعرف مَن سيراها قبل أن تأتي أسماء الإجراءات.»

«سأرسل لك أسماءهم الآن. ويمكنك التحدث إليهم قبل السفر.»

في لقائهما الأخير اختلفا أمام زملاء بشأن استقلال الصيانة الطبية عن المورد الأول. يومها قال ليث إن فتح كل جزء لكل جهة قد يعرض المرضى للضرر. رد يونس بأن جعل البديل مستحيلًا لا يحميهم إلى الأبد. خرجا من الاجتماع مقتنعين كلٌّ بموقفه، ثم تبادلا إحالات مرضى في الأسبوع التالي.

قال يونس: «لن أوافق على دمجها في برنامج متابعة مفتوح لمجرد أننا احتجنا إلى سرير.»

«تحتاج ابنتك إلى تقييم. هذا ما أعرضه.»

«والباقي؟»

«نسألكم عنه إذا صار له سبب. يمكنك أن تطلب من زميل مستقل أن يراجع كل خطوة.»

كان جوابًا محددًا. خف توتر يونس بدل أن يزول. رأى على الطرف الآخر يد ليث ترفع كأسًا. توقفت الأصابع حولها لحظة قبل أن تستقر، حركة لا تكفي لتدل على شيء، لكنه وجد نفسه يتذكر أن الرجل أيضًا يحتاج إلى جسد يحمل أفكاره.

«هل سترافقها ميرا؟» سأل ليث.

«نعم.»

«جيد.»

رفعت ميرا رأسها من جوار النافذة. أرسل تفاصيل الاتصال، ثم استأذن لأنه مطلوب في غرفة قريبة. انقطع حضوره، وبقي انعكاس يونس في الشاشة.

قالت نور: «هل سنذهب؟»

نظر إلى ميرا، ثم أعاد نظره إلى ابنته. كان القرار لا يحتاج مزيدًا من التأخير. يحتاج فقط إلى أن ينطق به الشخص الذي أمضى الساعات السابقة في اختبار كل طريق يقوده إليه.

«نعم. سنذهب.»

سألت عن المدة. قال إنه لا يعرف بعد، وإن الحقيبة الأولى يمكن أن تكفي أيامًا. أرادت أن تأخذ المجسم، فوافق قبل أن يعرف أين سيضعه. ابتسمت ميرا، ولم تقل إنهما يحتاجان إلى أشياء أهم.

في المساء عادوا إلى البيت مع تعليمات المتابعة ورقم مباشر لفريق الرعاية. صعدت نور الدرج ببطء، وإلى جوارها أمها، بينما حمل يونس الحقيبة الطبية الصغيرة. كان يسمع الجيران في الطابق الأعلى يتجادلون بشأن موضع خزانة. توقف عند الباب، وأنصت إلى الصوت العادي بحسد لم يفهم سببه.

بعد أن استقرت نور، اتصل بأمينة. أخبرها عن السفر، واتفقا على استكمال متابعة سارة في غيابه. قالت إن والدة سارة وافقت على جلسة شرح أولًا، وإن المقارنة المستقلة لم تكتمل.

«لا نتيجة جديدة إذن.»

«لا نتيجة تصلح لإبلاغها بعد.»

اتصل بسارة أيضًا. لم يرد أن تعرف غيابه من موظف الاستقبال. شرح أن ابنته تحتاج إلى فحص في الضفة الأخرى، وأن أمينة تعرف حالتها وستبقى معها.

قالت سارة: «هل هي التي في الصورة؟»

«نعم.»

«الله يردها إليكم بخير.»

شكرها. سألت عن موعدها، وأعادت ما اتفقوا عليه، ثم قالت إنها ستأتي مع أمها وأنس.

حين انتهت المكالمة بقي قليلًا في الممر. جاء من غرفة نور صوت ارتطام خفيف، فدخل سريعًا. كانت قد أسقطت حذاء من الحقيبة.

نظرت إليه، ثم إلى الحذاء، ولم تتكلم. انحنى ووضعه قرب الآخر. بعد ذلك جلس على حافة السرير.

«أخاف عليك»، قال. «أحيانًا لا أعرف أين أضع الخوف.»

سحبت السحّاب نصف مسافة ثم تركته. كان في الحقيبة كتاب وملابس وشاحن وأشياء لا يستطيع تسمية ضرورتها.

«لا تضعه في كل سؤال»، قالت.

أخذ الحذاءين ووضعهما في الكيس الذي مدته إليه، ثم تركها تكمل وحدها.

فيما كانت ميرا ترتب ما تحتاجه إلى جانب حقيبة نور، اتصل يونس بهالة. لم تجب أول مرة، فترك الجهاز على الطاولة ومضى يحضر قميصًا. عاد فوجد اتصالها، فأجاب. حين قال «هالة» توقفت ميرا عن طي القميص، ثم أكملت طيّه ووضعته في الحقيبة. كان صوت هالة بعيدًا، يتداخل معه احتكاك شيء يُجر على الأرض.

«هل أيقظتك؟» سأل.

«أحاول أن أخرج صندوقًا من تحت السرير. كلما كبرتُ صارت الأشياء التي أحتاجها أسفل.»

قال إنه يستطيع أن يطلب من أحد مساعدتها. ردت بأنها لا تحتاج إلى فريق إنقاذ من أجل صندوق، ثم سألت عن موعد زيارته. أخبرها بالسفر وبسببِه. توقف الاحتكاك في الطرف الآخر.

«نور؟»

«نعم. هي مستقرة الآن، لكن الفحص يحتاج إلى المركز.»

سألته أسئلة قليلة محددة، ثم طلبت أن تكلمها. حمل الجهاز إلى الغرفة. كان صوت نور أخف وهي تتحدث إلى هالة؛ أخبرتها أن البحر قد يجعلها تشعر بالغثيان قبل أن يفعل الفحص أي شيء، وسألتها إن كانت ما تزال تحتفظ بعلبة ألوان قديمة وعدتها بها.

قالت هالة إن العلبة في الصندوق الذي تحاول إخراجه. رآها يونس في خياله تنحني إلى السرير من جديد، فأخذ الجهاز بعد أن انتهت نور وطلب منها أن تترك الصندوق حتى يعودوا.

«سأعود قريبًا»، قال.

أخبرته أنها ستضع العلبة على الطاولة، وأنها تريد صورة من النافذة التي صنعتها نور.

سألها عن الرطوبة في الجدار. قالت إنها أبعدت الخزانة قليلًا، وإن الرجل الذي مر بالحاجز وضع علامة جديدة ولم يعد. كان يونس قد أرسل اعتراضه

وصورة الشق. وصل إليه رد يؤكد الاستلام ويحدد مسار المراجعة، ولم يجد الآن في الرد ما يصلح أن يقوله لهالة.

«إذا زاد شيء، لا تنتظري اتصالي.»

«اهتم بالبنت. بيتي يعرف الانتظار.»

أراد أن يعترض على هذه الطمأنينة التي كانت تقدمها له مجاملة. لكنه سمع التعب في صوتها، واختار أن يرتب مع الجارة زيارة قصيرة في اليوم التالي بدل أن يطيل الجدل. قبلت حين قال إنها ستمر أصلًا لشراء شيء من السوق.

أنهى المكالمة، ووقف أمام رف الكتب. أخرج كتابًا كان ينوي حمله، ثم أعاده. لن يقرأه. تناول كتاب نور الذي بقي خارج الحقيبة، وفتح الصفحة التي وضعت فيها علامة. وجده كتابًا عن بناء الجسور الصغيرة، فيه رسوم وحسابات، وتعليقات كتبتها هي على الهوامش. عند رسم لمنحدر كتبت: «هنا سيدور الكرسي بصعوبة». لم يقرأ أكثر. أحس أنه يطلع على حديث لم توجهه إليه.

في الغرفة الأخرى كانت ميرا تحاول إدخال زجاجة صغيرة في حقيبة جانبية. رأى أنها تخص رعاية يدها الجديدة.

«هل تكفيك؟» سأل.

«للأيام الأولى. رتبت أن تصلني البقية إذا طال الأمر.»

كان قد فكر في كل ما تحتاجه نور، وفي أوراقه، وفي العيادة، ولم يفكر في هذا. أفسح في الحقيبة موضعًا ثابتًا للزجاجة.

قالت: «لا تنظر إليّ هكذا. أنا لم أفكر في دوائك أيضًا.»

كان دواؤه عاديًا، شيئًا يأخذه مساء كل يوم. ذهب ليحضره. لم يتساويا في ما يحتاج إليه الجسدان، لكنهما استطاعا أن يتساويا لحظة في نسيان شيء، وفي أن يذكر أحدهما الآخر به.

عاد فوجد ميرا قد جلست على الأرض قرب الحقيبة. كانت تنظر إلى صورتين مطبوعتين، لا بد أن نور وضعتهما بين الملابس. في إحداهما يونس شابًا يحمل طفلته ملفوفة، وفي الأخرى ميرا ترفعها كي تبلغ غصن شجرة.

«هي التي اختارتهما»، قالت.

جلس إلى جوارها. في الصورة الأولى بدت يده خائفة من أن تؤذي الصغيرة، وفي الثانية كان وجه ميرا خارج الإطار؛ لم ينجح المصور في الاحتفاظ بالأم والطفلة معًا. قال إن عليهم أن يلتقطوا صورة أفضل بعد عودتهم.

«لدينا صور كثيرة أفضل»، قالت.

لم تكن الصورة هي ما يقصده. وضعت ميرا الورقتين في الحقيبة، ثم مدت ساقيها قليلًا واستندت إلى جانبه. بقيا على الأرض حتى نادتهما نور لتسأل عن شاحن لم يكن ضائعًا، بل في جيب أمام عينيها. نهضا، وكل واحد منهما يمد يده إلى الآخر كي يساعده، ثم اضطر أحدهما إلى أن يترك يده ويستند إلى السرير.

قبل النوم نادته ميرا إلى المطبخ. كانت النافذة مفتوحة، والمجسم على الطاولة، وفي يدها قطعة صغيرة فكّتها من مفصل الإطار الحقيقي.

«لن أغيره الآن»، قالت حين رأت وجهه. «ثبّتُّه فقط كي لا يصفق إذا هبت الريح ونحن بعيدون.»

وقف إلى جوارها. من الأرض المنخفضة وراء الطريق جاء ضوء عمل أبيض. تحركت آلة تحمل أنبوبًا، وأخرى تقيس المسافة بين قاعدتين. تذكر الرجل الذي اتصل فرحًا بجلوس زوجته في الشرفة، وتذكر الحاجز. كانت الأشياء كلها تتحرك في الوقت نفسه، ولم يعد يعرف كيف يفصل الساعات التي تخص ابنته عن الساعات التي يختار فيها العالم طريقه.

سأل ميرا: «هل تعرفين المركز؟»

أبقت عينها على المفصل.

«عرفت بعض أجزائه قبل أن يوسعوه.»

«من العمل؟»

«ومن الصيانة.»

رفعت إليه يدها الجديدة. جواب صحيح، شعر أنه لا يستوعب كل ما سأل عنه. كان متعبًا، وكانت هي متعبة، فترك للمساء ما يستطيع حمله فقط.

أمسك الإطار بينما شدت القطعة. كان الإطار ثابتًا بينهما؛ يعرفان هذا العمل منذ أعوام. حين انتهت أغلقت النافذة، ثم فتحتها قليلًا لتختبرها. استقرت كما أرادت.

في الفجر جاء فريق النقل. سمع يونس رنينًا واحدًا أعقبه انتظار. حمل المجسم في صندوقه، ونزل قبلهما ليفسح المجال في العربة. أرادت نور أن تمشي إلى مقعدها، فسمح الفريق بذلك تحت المراقبة. رأى ارتياحها، واحتفظ برأيه لنفسه.

توقفت ميرا عند عتبة البيت، وعادت لتطفئ ضوء المطبخ. سمع النقر الخفيف للمفتاح، ثم المفتاح الآخر للباب. حين نزلت كانت تحمل قطعة قماش إضافية.

«للنافذة الصغيرة»، قالت.

من الطريق الساحلي رأى يونس العربة ذات الذراع الطويلة واقفة عند المنشأة الجديدة. بدت الأسطوانات الفضية في مكانها، متصلة الآن بأنابيب ممتدة. على الطرف المقابل ظل الحاجز القديم وراء شريط التحذير. لم يخرج جهازه هذه المرة. كانت يد نور على المقعد قريبة من يده، وكان رأسها مائلًا إلى الزجاج.

في محطة العبور دخلوا من ممر جانبي واسع. لا طابور طويل ولا نداءات متداخلة. قرأت بوابة هوياتهم، ثم تأخرت عند ميرا ثانية واحدة قبل أن تفتح. كانت ثانية كافية ليرفع يونس رأسه، وكافية لتمضي هي كأنها لا تحتاج إلى النظر.

السفينة الطبية أصغر من العبّارة التي عبروا بها في عطلة قبل ثلاث سنوات. في داخلها مقاعد يمكن أن تتحول إلى أسرّة، وخزائن مغلقة، ونوافذ لا تفتح. استقبلتهم ممرضة وأشارت إلى أماكنهم. خلفها تحركت آلة منخفضة تحمل حقيبة تجهيز، ثم استقرت في تجويف بالحائط.

اختارت نور المقعد الذي ترى منه طنجة وهي تبتعد. قالت إن الضوء يزعجها قليلًا، فخففت الممرضة تعتيم النافذة إلى الدرجة التي طلبتها. نظرت نور إلى أبيها بابتسامة صغيرة.

«هذه لا تعلق.»

«ولا نستطيع أن نطعم منها القطط.»

«لم نطعم قطة من نافذتنا منذ سنتين.»

«لأن أمك قالت إن الجيران يشتكون.»

قالت ميرا: «لأنك كنت ترمي الطعام على مظلة الجار.»

ضحكت نور، ثم وضعت رأسها على المسند. تحركت السفينة ببطء، وابتعد الرصيف حتى صار الشريط الأصفر على حافته خطًا رفيعًا. لم يسمعوا أمر إبحار، ولا صوت قائد. فقط تغير في اهتزاز الأرض تحت القدمين.

وقف يونس قرب النافذة. من هذا البعد كانت البيوت متشابهة، وكان من الصعب أن يعرف أي مستطيل صغير هو بيتهم. تتبع الشارع بعينه حتى وجد المبنى الجديد، ثم ارتفع قليلًا نحو الجدار الذي يعرفه. لم يستطع رؤية النافذة، لكنه ظل ينظر إلى موضعها.

«أبي.»

التفت. كانت نور تشير إلى الصندوق. أرادت أن تتأكد أن المجسم مثبت جيدًا. جلس، وأزاح القماش عن طرفه، وأراها أن المفصل لم يتضرر.

«هل سيتركونه في غرفتي؟»

«سنسأل.»

أعادت رأسها إلى المسند، ولم تغمض عينيها بعد. في الجانب الآخر من النافذة بدأ خط الساحل المقابل يتضح. ظهرت فوقه أبنية منخفضة، ثم امتد من الماء شيء يشبه أذرعًا واسعة تصل بين كتل بيضاء. كانت مركبات صغيرة تتحرك على الأذرع، وأخرى تنزل من سطح منشأة لتختفي تحت الماء.

قالت ميرا بصوت منخفض: «هناك.»

رأى يونس وجهها، والطريقة التي استقرت بها يدها الجديدة على حافة المقعد.

اقتربت الممرضة لتراجع الحساس. سألت نور عن إحساسها، فأجابت، ثم سألت بدورها إن كانوا سيصلون قبل موعد الدرس الذي تستطيع حضوره عن بعد. قالت الممرضة إنهم سيصلون قريبًا، لكن الراحة أولًا.

تحركت يد نور تبحث عن يد أبيها، من غير أن تفتح عينيها هذه المرة. وصلت إليه ولم تخطئ موضعه. أمسكها، وأبقى كفه ساكنة بينما انعطفت السفينة نحو المدخل المحمي.

كانت طنجة قد خرجت من إطار النافذة حين فتحت نور عينيها.

القسم الثاني

الضفة الأخرى

الفصل السابع

مصنع الأجساد

رأت ميرا الوجه قبل أن ترى صاحبه، ثم أدركت أن الوجه لم يصبح لأحد بعد.

كان معلقًا في حوض ضحل خلف الزجاج، تعبر تحته خيوط شفافة يجري فيها سائل بلون الشاي الخفيف. اقتربت ذراع معدنية من حافته وأدخلت شيئًا لا يكاد يُرى، فارتجف الجلد قرب الفم. لم يكن في الحوض رأس. احتاجت ميرا إلى النظر مرة ثانية كي تفصل ما تعرفه عما رأت.

قالت نور: «هل يستطيع أن يشعر؟»

كان كرسي ابنتها قد توقف إلى جانب الزجاج، وأبوها ما يزال يتحدث مع الممرضة عند مدخل الجناح. على الجدار المقابل خط أخضر يقود إلى غرف الإقامة، وخط أبيض يغيب تحت باب لا مقبض له. تبعت ميرا الأبيض بعينيها، كأن اتباعه سيمنحها وقتًا لصنع جواب.

«هذا نسيج يُجهّز للاستخدام»، قالت. «ليس شخصًا.»

«سألت عن الإحساس. هل يشعر بشيء؟»

اقتربت الممرضة منهما. قالت إن النشاط الذي تُظهره الوحدة لا يكفي للقول إن أحدًا يعيش الألم، وإن الأنسجة التي تحتاج إلى مراقبة حسية لها إجراءات أخرى. قالت ذلك ببساطة، ثم عرضت على نور أن يواصلا السير.

تحرك الكرسي، وبقيت ميرا نصف خطوة وراءه. لم يزعجها سؤال نور بقدر ما أزعجها أن منظر الجلد أخافها. أمضت عمرًا تصلح شقوق الجدران وتستخرج الزخارف من تحت طبقات الطلاء؛ كانت تعرف أن الأشياء تمر بأشكال لا يحب أحد رؤيتها قبل أن تستقر في الصورة التي ألفها الناس. ومع

ذلك رغبت في أن يُسدل ستار على الحوض. لم تكن تعرف إن كانت تريد حماية ابنتها أم حماية ذكرى وجهها هي.

وجدت نفسها في انعكاس الزجاج. وراء صورتها انثنت الذراع المعدنية على النسيج، فتراكب الفعلان: امرأة تتراجع، وأداة تتقدم نحو موضع فمها.

كانت المنشأة أوسع مما بدت من البحر. من الخارج كتل بيضاء قصيرة تصل بينها ممرات منخفضة؛ ومن الداخل مدينة تعمل تحت مدينة صغيرة للزائرين. رأوا جزءًا من الطبقة السفلى حين عبروا جسرًا زجاجيًا. منصات تسير بلا صفوف، أوعية محكمة تعبر من فتحة إلى أخرى، وأذرع تنزل من السقف ثم تختفي فيه. وقفت امرأة أمام إحدى الوحدات، فيما جلست أخرى على مقعد مرتفع، تقرأ شيئًا ببطء وسط حركة لا تنتظر أن تنتهي قراءتها.

كان معظم العمل يجري في مواضع لا مكان فيها لوقوف إنسان.

توقفت نور لتنظر إلى أسفل. سألها يونس إن كانت تشعر بالغثيان، فقالت إن كل شيء يتحرك كأنه يعرف أين ستصبح الأشياء الأخرى. قالتها بنبرة أعجبت ميرا؛ نبرة ابنتها حين تجد فكرة يمكن أن تتحول إلى رسم.

«مثل المظلة؟» سألتها.

«أكثر. هناك كنا نرى متى يترددون.»

حملت ميرا الصندوق الذي فيه مجسم النافذة، وأزاحته عن الورك المتعب. على الطرف الآخر من الجسر زجاج معتم تخلف عنه ظل عربة طويلة. لم ترَ ما تحمله، لكنها سمعت احتكاكًا خافتًا؛ صوتًا عاديًا، أقل إتقانًا من الصمت المحيط به. ارتاحت إليه.

كانت غرفة نور تطل على شريط من الماء تحجبه قواعد المنشأة. سرير، ومقعد يتحول إلى فراش، وخزانة صغيرة، وطاولة تستطيع نور تحريكها بنفسها. على الجدار مساحة فارغة قالت الممرضة إنهم يتركونها لما يأتي به المريض. أخرجت ميرا المجسم، ووضعته هناك، فطلبت نور إدارته كي تواجه نافذته البحر.

«هكذا سيحسبون أن عندنا غرفة إضافية.»

قال يونس: «سنطلب لهم الإيجار.»

لم تضحك نور؛ كانت منشغلة بإسناد قطعة القماش تحت الصندوق. انتظر يونس ضحكتها، ثم اشتغل بإغلاق الحقيبة. رأت ميرا ذلك وفهمت كم يحتاج إلى علامة تؤكد أن الرحلة لم تأخذ منهما الطفلة التي خرجا بها.

دخلت الطبيبة المسؤولة بعد أن استقروا. اسمها سلمى، وصوتها منخفض من غير أن يضطر أحد إلى الاقتراب لسماعه. تحدثت إلى نور أولًا، وطلبت منها وصف ما حدث في الورشة. حين بدأت ميرا تُكمل وصفًا، رفعت نور إصبعًا صغيرًا عن الغطاء.

«أستطيع.»

سكتت ميرا، وأوجعها مقدار الارتياح الذي سمعته في صوت ابنتها بعد ذلك.

فحصت الطبيبة موضع الوصلة، وشرحت أن اليوم للفحص والراحة، وأن النقل إلى وحدة الاختبار سيجري صباح الغد إذا بقيت المؤشرات مستقرة. كان بعض ما قالته معروفًا لهم، لكن سماعه داخل الغرفة غير سماعه على شاشة من الضفة الأخرى. صار لكل احتمال باب يمكن أن يدخل منه شخص يحمل عربة.

سأل يونس عن الطرف المستقل في التقييم، وعن مشاركة البيانات مع آدم. كتبت الطبيبة الاسمين، ثم طلبت رقم الجهاز الذي استعمله المهندس في الورشة. كان هدوؤها يخفف حذر ميرا ويزيده؛ تعرف يونس حين يلقى مقاومة، ولا تعرف ماذا يفعل بخوفه حين يجيبه الناس عن كل سؤال.

بعد خروج الطبيبة غفت نور. جلس أبوها عند السرير يقرأ المعلومات، فتسللت ميرا إلى الممر تبحث عن مكان تملأ فيه قارورة الماء. وجدت نافذة عريضة وراء موزع الشراب. عند أسفلها كان روبوت صغير ينزع حصاة علقت

في مجرى تصريف. مد ساقًا دقيقة، جرّب زاوية، ثم تراجع وجرّب غيرها. وقفت تراقبه حتى أتم العمل.

قال صوت من خلفها: «لن يضعها حيث كانت.»

التفتت. كان ليث السالمي يحمل صينية عليها كوبان. لم تعرف إن كان يقصد الحصاة أم شيئًا آخر حتى أشار إلى الوعاء الملحق بالروبوت.

«يفحص ما يخرجه. كنا نعيد بعض القطع إلى المجرى من غير أن نعرف.»

قدم لها كوبًا، فقالت إنها تحتاج ماء فقط. وضع الصينية على الرف وانتظر حتى امتلأت قارورتها.

«كيف وجدتما الرحلة؟»

«نور وجدتها أقصر مما توقعت.»

«وأنت؟»

نظرت إلى الماء. كانت توجد إجابات يعرف كيف يستعملها، وأخرى لا ترغب في أن تصير جزءًا من حديثه إلى يونس.

«أحتاج إلى معرفة أين غرفة صيانة الزائرين.»

أخبرته عن المعايرة المطلوبة بعد استبدال يدها، وعن تغير الإحساس بالضغط منذ سفرهم. أعطاها فني طنجة موعدًا لم تستطع حضوره. تفحص ليث بطاقة الصيانة، ثم قال إن رائد موجود هنا هذا الأسبوع، جاء مع دفعة من وحدات قديمة يعيدون تجهيزها للتعاونيات.

«يعرف هذا الجيل أفضل من معظم أجهزتنا.»

رفعت القارورة عن الموزع فشعرت ببرودتها على الأصابع قبل أن يستقر وزنها. فرق صغير. أخفت القلق الذي أحدثه بأن حملتها باليسرى.

قبل أن يعودا إلى الغرفة تغير صوت الممر.

دوت نغمة قصيرة، أعقبتها وقفة في هدير الهواء لم تكن ميرا قد انتبهت إلى وجوده إلا حين نقص. ظهرت على الزجاج الذي أمامهما خطوط صفراء.

في الطبقة السفلى توقفت ثلاث منصات، فيما أكملت البقية حركتها في مسارات جديدة. رأوا امرأة تخرج من خلف وحدة التغذية وتجري نحو طرف الجسر.

تحرك ليث قبل أن يناديه أحد.

«عودي إلى الغرفة. جناح نور على دائرة أخرى.»

سألته عما حدث، فقال إن ضغط التغذية انخفض في فرع محلي وإنهم يفصلونه. مضى، وبقيت ميرا أمام اتجاهين: السرير الذي فيه ابنتها، والزجاج الذي ترى وراءه ما قد يحتاجه سريرها غدًا.

وصلت إلى الغرفة فوجدت نور مستيقظة ويونس عند الباب. قالت الممرضة إن أجهزة الغرفة مستقرة، وإن المطلوب ترك الممر للفرق الفنية. جلست ميرا قرب ابنتها. من النافذة رأتا ذراعًا خارجية تنزل إلى الماء، يحمل طرفها أسطوانة بحجم جسد رجل. تحركت معها وحدتان أصغر تشبهان حيوانين بلا رؤوس.

«ماذا يصلحون؟» سألت نور.

«خطًا يغذي وحدات في الأسفل.»

«الذي فيه الوجه؟»

قالت ميرا إنها ستسأل، ووصلت إلى زر الاتصال. جاء الرد من الممرضة: المنطقة التي رأوها تضم وحدات منفصلة؛ بعض الأنسجة نُقل إلى تغذية احتياطية، ولم يصل الانقطاع إلى غرف المرضى.

قالت نور: «وإذا لم ينقلوها؟»

نظرت ميرا إلى يونس. كان يستطيع أن يجيب كما يجيب طبيب؛ وكانت تريد أن تسمع كيف سيجيب أب.

«تتضرر»، قال. «لهذا يراقبونها، ولهذا توجد بدائل.»

«مثلنا؟»

جلس على حافة المقعد. «تحتاج إلى ما يبقيها حية.»

بقيت نور تنظر إلى الأسطوانة وهي تصعد من الماء. على سطحها خط داكن، وتساقط من حافتها سائل لم تستطع ميرا تمييزه عن البحر. في الداخل، تحت الأرض البيضاء النظيفة، كانت أنسجة تنتظر أن يستعيد سائل طريقه إليها. بدت لها الحضارة كلها أقرب مما كانت قبل قليل؛ رتبت حاجتها في أنابيب واسعة لا يراها زائروها.

عاد الهواء إلى صوته الأول بعد اثنتي عشرة دقيقة. احتفظت ميرا بالعدد لأنها نظرت إلى الوقت عند البداية، ثم كرهت أنها فعلت ذلك. لو طال أكثر لكانت ستبدأ في حساب ما تستطيع حمله، إلى أين تذهب، ومن يفتح الطريق. وهي التي احتاجت قبل ساعة إلى من يدلها على الماء.

عند العصر جاء فني يبدل ملصقًا على وحدة الجدار. سألته ميرا عما تعطل، فقال إن صمامًا أغلق قبل أن تستقر المضخة البديلة، وإن الفريق يفحص سبب تأخر الاستجابة. أضاف أنهم فقدوا دفعة أنسجة كانت في اختبار حساس، ثم بدا كأنه ندم على ذكر الخسارة أمام أسرة مريضة.

«كانت مخصصة لمن؟» سألت.

«لأكثر من شخص. سيُعاد تجهيزها.»

لم تكن وفيات. عرفت ذلك، وعرفت أن عليها ألا تحمل الدفعة ما ليس فيها. لكن هناك أشخاصًا سينتظرون أطول، وستصلهم مكالمات تشرح تأجيلًا، وقد يعجزون عن النوم بعد عبارة لا تؤخر الرعاية الأساسية. كانت تعرف كيف تعيش كلمة «أساسية» في فم من يقولها، وكيف تعيش في جسد من يسمعها.

خرجت بعد أن عاد يونس من مقابلة قصيرة مع الفريق. أرادت إجراء معايرتها قبل المساء؛ قالت له أين ستكون، وتركت هاتفها مفتوحًا. في طريقها مرت بالزجاج الأول.

كان الحوض خاليًا.

توقفت أمامه من غير أن تقرر ذلك. عاملتان تنظفان الوصلات، وروبوت ينقل الصينية الداخلية إلى عربة مغلقة. لم يبقَ الوجه الذي رأته نور. على شاشة صغيرة تاريخ دفعة جديدة ووقت إعدادها المتوقع.

وجدت رائد في غرفة الصيانة، منصوبًا أمام طاولة منخفضة. رفع مستشعره الأكبر نحوها، ثم خفضه إلى يدها.

«الخاتم خارج منطقة القياس هذه المرة.»

قالت: «تعلمتُ.»

«نور تعلمت.»

جلست، وأسندت الساعد إلى الحامل. عرفت أثر اللحام عند مرفقه، والعدسة الجديدة التي لم يستقر لونها مع بقية الرأس. من بين كل الوجوه المصقولة التي مرت بها ذلك اليوم، كان هذا المعدن المخدوش أقرب إلى الاستقبال.

بدأ رائد الفحص. راقب الخطوط، غيّر موضع الحامل، ثم أوقف البرنامج الحديث وفتح واجهة رمادية صغيرة.

«نحتاج إلى المعايرة الأقدم.»

«من طنجة؟»

«من قبل طنجة.»

رأت على الشاشة سنة تنشيطها، وتحتها خانة مصدر النسيج. لم يكن الاسم ظاهرًا بعد؛ كان على رائد أن يطلب إذنها لفتح السجل المرتبط به. أدارت معصمها، فانزلق الخاتم قليلًا ثم توقف عند المفصل.

في الخارج مر سرير بعجلات لينة. فكرت في يونس جالسًا عند ابنتهما، يصدق أن كل ما ينتظرانه في هذه المنشأة يتعلق بنور.

قال رائد: «هل أفتح السجل؟»

الفصل الثامن

وجهها الأول

قالت ميرا: «افتح ما تحتاج إليه المعايرة.»

ظهر الاسم مع ذلك.

هالة بنسالم. حروف سوداء صغيرة في خانة لا يزيد عرضها على إصبعين، وتحتها رمز الخط الحيوي وتواريخ أخذ العينات وإعادة فحصها. كانت تعرف ما سيظهر. ما لم تتوقعه أن يكون الاسم عاديًا إلى هذا الحد؛ يشبه اسم امرأة على إيصال إصلاح ساعة، لا الاسم الذي استطاعت أن تبقيه سنوات وراء كل حديث عن بداية جسدها.

فتح رائد مسار القياس، وانكمشت الخانة إلى طرف الشاشة. لم يبدُ أنه ينتظر منها رد فعل. كان ذلك من أسباب ارتياحها إليه، ومن أسباب خوفها منه أيضًا. لا يملأ الصمت كي ينقذ أحدًا منه.

قال: «أغلقي الأصابع حتى يلامس الإبهام الحلقة.»

فعلت. أضاءت ثلاث دوائر، وبقيت الرابعة داكنة.

«الآن خففي الضغط.»

ظهر أثر الضغط بعد أن خففته. قال رائد إن المشكلة في تكييف الجزء الجديد مع مرجع إحساس قديم، وإن القطعة نفسها سليمة. لم يكن خلل نور؛ شرح الفرق قبل أن تسأله عنه، لأن فنيًا بشريًا كان قد سجّل سبب توترها في طلب الفحص. لم تعرف إن كانت ممتنة لذلك أم غاضبة من سهولة انتقال خوفها بين الغرف.

«يمكن إتمام المعايرة هنا؟»

«نعم. على مرحلتين، كي لا نفرض تصحيحًا أسرع مما تستقر عليه الاستجابة.»

كانت قد اختارت يدًا أحدث لأنها تحتاج إلى عمل يمكن الاعتماد عليه. لم تفكر أن اليد الجديدة ستجعل سجلها الأول مطلوبًا بهذا القرب. في طنجة فتح رائد القياس وأغلقه سريعًا. هنا كان هناك وقت، وأرشيف كامل، وابنة نائمة في الطابق الأعلى بسبب زمنين لا يتفقان داخل جسدها.

على الشاشة المصغرة ظهر جسد مستلقٍ في إطار قديم للتثبيت. عرفت كتفها قبل الوجه؛ ارتفاع طفيف ظل في هيكلها سنوات ثم عُدّل. لم يكن الجسد عاريًا، بل مغطى بنسيج معايرة رمادي، تظهر منه مواضع العمل. عند الرأس امرأة بثوب أزرق، وإلى جانبها رائد، بمستشعرين متساويين يومئذ وذراع خالية من أثر اللحام.

قالت: «أنت أصغر.»

«أبعاد الهيكل لم تتغير.»

«كنت أقصد... أعرف.»

أعاد المقطع إلى موضع يحتاجه، فظهرت الكرة الزرقاء. عرفتها ميرا، واستبقت في داخلها ما سيحدث: محاولة للإمساك، انغلاق أسرع مما ينبغي، ثم صوت شيء يسقط.

لكن الكرة في الصورة لم تسقط. ابتعدت عن الأصابع، ثم عادت المرأة بها من الجانب الآخر.

طلبت ميرا إعادة المقطع.

كرر رائد الحركة كما هي.

قالت: «أتذكر أنها سقطت.»

«توجد محاولات أخرى.»

«هل تستطيع أن تجدها؟»

«ليس من هذا الجزء. هذا سجل المعايرة الذي بقي مرتبطًا بالوحدة.»

لم يكن ما تتذكره كذبًا، ولم يكن التسجيل ذاكرة كاملة. جلست تتأمل الفاصل بين الأمرين. عاشت سنوات تحمل صورة كرة تبتعد، ورائد ينتظر، وصوت امرأة يقول مرة أخرى. الآن يعطيها الملف بضع ثوان لا تثبت الصورة ولا تنفيها. لو كانت تريد أن تجعل السجل أصلًا لكل شيء، لما بقي لها إلا ما حفظته الكاميرا.

أوقفته.

«يكفي.»

أتم رائد المرحلة الأولى. طلب أن تنتظر حتى يثبت التغيير، ثم أعطاها قطعة إسفنج صغيرة تلتقطها وتضعها في ثلاثة مواضع. نفذت ذلك وهي تنظر إلى صورته القديمة. كان وجهها في الإطار قليل الحركة، عيناه مفتوحتين على شيء خارج الكاميرا. لا تستطيع أن تنظر إليه بحنان أم تنظر إلى طفلة؛ لم تكن طفلة آنذاك. ولا تستطيع أن تسميه امرأة تعرفها تمامًا. كان عمرها يبدأ من خبرة لا يملك لها الآخرون اسمًا مريحًا.

«هل احتفظت بشيء من هذا؟» سألته.

«جزء من سجل العمل. المقاطع تخص ملفك.»

«أقصد هل تتذكرني من ذلك اليوم؟»

تحرك مستشعره نحوها، ثم نحو الشاشة.

«أربط هذا العمل بالتدخلات اللاحقة. أستخدم العلاقة لتحديد ما يناسبك.»

انتظرت زيادة لا تأتي.

«وتعرف أنني أحب أن تخبرني قبل أن تغيّر شيئًا.»

«هذا مثبت في تفضيلات الصيانة.»

كادت تقول إن ذلك ليس كل ما تعنيه، ثم سكتت. ربما كان خطؤها في السؤال، في مطالبة علاقة عاشت بها أن تثبت نفسها بصيغة واحدة. في الصباح كان يونس قد عرف أي نافذة تريد نور أن تواجه البحر؛ ولم يسألها أحد إن كان ذلك استنتاجًا أم تذكرًا أم حبًا.

طلبت من رائد نسخة محدودة من صور المعايرة لا تتضمن معلومات المتبرعة. أنشأ الطلب، وانتظر تأكيدها. احتفظت بالصورة التي لا تُمسك فيها الكرة بعد. لم تعرف لمن ستريها.

خرجت فوجدت يونس عند آلة الشراب، يقرأ رسالة من العيادة. رفع رأسه وسأل عن يدها. قالت إنها تحتاج إلى جلسة ثانية قصيرة بعد يومين. أراحه هذا الحد الواضح؛ رأت كتفيه يسترخيان قبل أن تشرح شيئًا آخر.

«ونور؟»

«مع الأخصائية. أرادت أن ترسم لها ما تقصده بتكرر الأشياء.»

أخذ كوبين من الماء، ثم أعاد أحدهما حين رأى قارورتها. كان عليها أن تقول الاسم الآن. لو عادت معه إلى الغرفة، لو سألت عن الرسم، لو انشغلت بالفحص التالي، سيصبح هناك سبب جيد آخر للصمت.

قالت: «رأيت سجل جسدي الأول.»

ترك الرسالة. «بسبب المعايرة؟»

«نعم.»

انتظرت أن يسأل، لكنه اكتفى بأن يقترب من مقعد قرب الزجاج. لم تكن تعرف كم تأمل أن يكون فضوليًا وكم تخاف ذلك.

أرته الصورة. نظر طويلًا، ثم قال: «هذا رائد؟»

«قبل أن يبدل العدسة.»

مال نحوها ليرى أوضح. بقيت الصورة بحجمها، وبقي يونس يتأملها. ربما كان يحذر، أو يرى فيها شيئًا آخر. وجدت نفسها تريد منه ردًا لا تستطيع وصفه.

«هناك شيء يجب أن أخبرك به.»

جلس، وظل الكوب بين ركبتيه.

«المرأة التي جاءت منها الخلايا. أعرفها.»

لم يتغير وجهه فورًا. كان يعرف أن لميرا حقًا في الوصول إلى معلومات أصل الخط، وأنها قالت قبل الزواج إن المصدر متبرعة بشرية. يومها سألهما مستشار الإنجاب عما يعرفانه، وعما يريدان أن تعرفه الطفلة مستقبلًا. اتفقا على ألا تُحجب عن نور معلومات تخص صحتها وأصل تكوينها. بقي الاسم خارج الحديث؛ ظن يونس، كما ظنت هي أنه سيظن، أن عدم ذكره يعني عدم معرفته.

قال: «منذ متى؟»

أجابت عن السؤال الذي لم يقله بعد.

«هالة.»

اهتز سطح الماء في الكوب. لم تلمسه ميرا.

«هالة بنسالم؟»

«نعم.»

نظر إلى الممر، كأنه سيتحقق من مكان ما يعرفه قبل أن يعود إليها.

«هالة التي نزورها.»

لم يكن سؤالًا.

«قبل أن تعرفها أنت. تواصلت معها بعد أن وصلت إلى سجل المصدر، بموافقتها. لم تكن تعرفني قبل ذلك.»

«وكم مضى على هذا؟»

«أكثر من عشرين عامًا.»

حاول وضع الكوب على الرف الصغير، فلم يصبه من المحاولة الأولى. أبقاه في حضنه.

«كنتِ تعرفين حين عرّفتِني إليها.»

«نعم.»

سمعت الإجابة من فمها كأن شخصًا آخر يشرح لها لماذا سيغضب. لم يكن كذبها جملة واحدة تستطيع الاعتذار عنها؛ كان ترتيبًا للحياة سمح لجمل صحيحة أن تخفي حقيقة بينها.

«هل كانت تعرف أنك لم تخبريني؟»

«كانت تظن أنني سأفعل حين أستطيع.»

«وحين أصبحت نور في الخامسة عشرة؟»

مر عامل يدفع عربة مفروشات. انتظرا حتى ابتعد، ومنحتهما العربة ثواني بدت أرحم من الكلام.

قالت ميرا: «خفت أن تبدأوا في البحث عنها في وجهي.»

نظر إليها. لم يبدُ مقتنعًا، لكنه انتظر.

«كلما فعلت شيئًا، كلما غضبت أو أحببت شيئًا، سيصبح هناك تفسير سابق لي. هالة تحب هذا. هالة كانت تفعل ذلك. كنت أريد أن تعرفني أنت قبل أن تعرف المادة التي بدأت منها.»

«عرفتك.»

«أعرف.»

«ثم عشت معك. وأنجبنا طفلة. متى كان سيصبح ما بيننا كافيًا؟»

لم تجد جوابًا. كانت المشكلة أنه يسأل عن تاريخ، فيما خوفها لم يكن يحترم التواريخ. كل سنة جعلت الإخبار أصعب، حتى صار ما فعلته لتحمي مكانها بينهما يهدد المكان نفسه.

فتح الصورة من جديد. رأت نظره يذهب إلى الوجه، ثم إلى وجهها.

قال: «العينان...»

«لا تفعل.»

رفع رأسه.

«أنا لم أقل شيئًا.»

«كنت ستقارن.»

«نعم. لأنك أخبرتني الآن، ولأنني أحاول أن أفهم.»

«أن تفهمني أنا؟»

«أن أفهم ما أخفيتِه عني.»

اشتد صوته عند الكلمة الأخيرة، فانكمشت رغبتها في الشرح إلى دفاع قديم. قالت إن هالة لم تُعطها ذكرياتها، وإنها لا تحب الأشياء لأنها تسكن خلايا متبرعة أحبّتها قبلها. قال إنه يعرف. كررت أنه ليس حقًا له أن يفسر شخصها باسم آخر. قال إنه لا يطالب بذلك.

«أنا أسألك لماذا تركتني أكون الوحيد الذي لا يعرف طبيعة ما يحدث حين نجلس عندها.»

«لم يكن يحدث شيء.»

«كان يحدث شيء لك.»

كانت هذه الجملة أقسى من اتهامه. التقطت منها، متأخرة، ما لم تسمح لنفسها بأن تراه. غاب عنها أنه قد يغضب لأنه حُرم من معرفتها في هذا الموضع، لا لأنه يرفض أن تكون ما هي.

من خلف الزجاج مرت منصة تحمل وحدات صغيرة في أوعية. توقفت عند فتحة، وتسلّمتها أداة غير ظاهرة.

قال يونس: «هل توجد معلومة طبية لم نعرفها؟»

«كل البيانات اللازمة كانت متاحة للفريق. الاسم حُفظ في جزء منفصل. لا يوجد مرض أعرفه وأخفيته عنكم.»

«سنراجع ذلك.»

أحست بالخوف يعود في صورة أشد تحديدًا.

«بموافقة هالة فيما يخصها.»

«طبعًا.»

قالها بسرعة، ثم تباطأ.

«لم أكن أقصد أن ندخل حياتها من غير إذن.»

صمتا. كانت هالة في الضفة الأخرى، وربما تحاول الآن جر الصندوق الذي طلبا منها تركه. امرأة لها ركبة تؤلمها ورطوبة في بيتها. في هذه الغرفة الواسعة بدأت تتحول إلى أصل وبيانات وحقوق متداخلة. أدركت ميرا أن خوفها من اختزال نفسها لم يمنعها من اختزال هالة هي الأخرى في الاسم الذي لا تريد قوله.

«أنا التي سأخبر نور»، قالت.

«وأنا سأكون معها.»

لم يقل «معكِ»؛ قال «معها». انتبهت إلى ذلك، ثم كرهت نفسها لأنها تقرأ كل حرف كأنه قرار حضانة.

«دعنا نخبرها معًا.»

ردّ الهاتف قبل أن يرد يونس. ظهر اسم الطبيبة سلمى.

طلبت حضورهما إلى غرفة نور. كانت الطفلة مستقرة؛ انتهى اختبار المقارنة الأول، والفريق يريد شرح ما ظهر قبل بدء المرحلة التالية. سأل يونس إن كانت هناك حاجة عاجلة، فقالت إنهما يستطيعان الحضور مشيًا.

نهض، ثم عاد يأخذ الكوب الذي تركه أخيرًا على الرف. شرب الماء البارد دفعة واحدة.

في الطريق أرادت أن تقول إن الأمر لا يغير أبوتهما، ثم امتنعت. كان سيبدو كأنها تطلب منه طمأنتها قبل أن تُتم اعتذارها. عند باب الغرفة وقفا متجاورين؛ استطاعت أن ترى نور وراء الزجاج، تتحدث إلى الأخصائية عن خطين رسمتهما بلونين مختلفين.

سأل يونس بصوت لا يصل إلى الداخل: «هل كانت تعرف أن خلاياها استُخدمت لإنجاب نور؟»

هنا فقط فهمت ميرا أن الاسم الذي خرج من السجل لن يعود إليه بإجابة واحدة.

قالت: «نعم. أعطت موافقة منفصلة. وأنا طلبت منها أن تنتظرني في إخباركما.»

أطبق فمه ثم فتح الباب.

رفعت نور الرسم إليهما.

«تعالوا. هذه المرة عرفت كيف أريكم.»

دخلت ميرا وراءه، تحمل الصورة الأولى في جهازها، فيما كانت ابنتهما تحاول أن تجد شكلًا لما يجري داخل رأسها الآن.

الفصل التاسع

الأطفال الذين عاشوا

لم يكن الطفل يريد أن يمشي نحو أمه.

وقفت المرأة عند نهاية المسار، تفتح ذراعيها كلما طلبت منها المعالجة، فيلتفت عنها إلى الطاولة التي عليها قطع خشبية. قال إنهم وعدوه بالرافعة الحمراء، وإنه مشى إليها أمس، وإن على أمه أن تتحرك قليلًا إن كانت تريد أن يصل.

ضحكت المرأة ضحكة انفلت منها آخرها. قالت المعالجة: «حسنًا. نغيّر الوجهة.»

نقلت الرافعة إلى المقعد الأقرب. ثبت الطفل نظره عليها، ورفع قدمًا. بقيت الأخرى في مكانها أطول مما توقع يونس، فاستعد جسده هو لتدارك سقوط لا يستطيع بلوغه. تحركت وحدة الدعم خلف الطفل، لكن المعالجة لم تلمسه. انتظرت.

جاءت الخطوة الثانية.

كان اسمه إلياس. سبع سنوات، وتدخل علاجي قبل تسعة أشهر، ثم أسابيع من تدريب لا يظهر في الصور التي تعرض عادةً أول خطوة. لم يعرف يونس هذه التفاصيل إلا بعد أن جلس مع الأم بإذنها. عرف قبلها أمرًا أصغر: أن الطفل يكره أن يعد له الكبار محاولاته بصوت مرتفع.

«يشعر أنهم ينتظرون أن ينتهي»، قالت.

جلس إلياس على المقعد، جذب الرافعة نحوه، ثم وجد الخيط معقودًا. طلب من أمه أن تفكه. قالت إنه يستطيع أن يحاول. أعادها إليها بعصبية طفل سليم من كل معنى يريد زائر أن يعلقه به.

كان يونس قد جاء بناء على اقتراح سلمى، بعد شرح نتيجة نور. ثبت أن اضطرابها يقع عند انتقال الإشارات بين أجزاء من منظومتها، وأن نموها جعل التعويض القديم أقل قدرة على الاستقرار. يمكن تخفيف الحمل مؤقتًا، ويمكن إعداد واجهة أنسب؛ لكن تركيبها سيحتاج تدخلًا ومتابعة طويلين. لم يعرض أحد حلًا يزيل الجزء الصناعي ويعيد جسدًا آخر من تحته. نور نشأت بما فيها، وأي حديث عن الإزالة الكاملة يعامل تكوينها كقطعة إضافية لم تكن يومًا كذلك.

طلب يونس وقتًا لمراجعة الخيارات. أعطوه إياه، ثم دلته الطبيبة على جناح التأهيل. خاف أن يحسم النظر إلى الأطفال قراره.

وقف ليث قرب الباب، يراقب المعالجة وهي تجمع قطع المسار. حين رآه إلياس طلب منه أن يأتي بالقطعة الصفراء، فجاء بها ووضعها في المكان الخطأ.

«هذه للقاعدة.»

«اعتقدت أنها أعلى الرافعة.»

«لو كانت فوق ستسقط.»

أعاد ليث القطعة إلى الطفل. كان يونس يعلم، وهو يراه، كيف يستعمل المرء طبيعته اللطيفة من غير أن يكون يتظاهر بها. كان ليث يحب أن يفيد، ويعرف أثر الفائدة في من يشاهدها. اجتماع الأمرين يجعله أصعب من رجل يكذب.

في الغرفة التالية لم يسمعوا ضحكًا.

كان صبي أكبر مستلقيًا قرب نافذة مغلقة، وقد وُضعت ساقه على حامل. حول موضع التوصيل احمرار امتد تحت حافة الضماد. تبعهم بعينيه ثم قال لأبيه إن التلفاز توقف مرة أخرى.

طلب ليث الإذن بالدخول. قالت المعالجة التي معه إن الزيارة قصيرة، وإن الصبي يستطيع إنهاءها متى شاء. قدّم يونس نفسه طبيبًا وأبًا لطفلة تتلقى تقييمًا في الجناح الآخر. قال الصبي: «هل جئتم لتقولوا لي إنه يتحسن؟»

«لا أعرف حالتك بما يكفي»، أجابه.

«إذن جيد.»

كان اسمه تيم. إلى جانب سريره حذاء واحد نظيف، وفي أسفل الخزانة الآخر في كيس. لم يسأل يونس لماذا؛ كانت في الجواب المحتمل حياة لا يحق له تفتيشها بحجة أنه أب قلق.

شرح الأب ما أراد شرحه: تحسن أولي، ثم اضطراب في التوافق واستجابة التهابية استدعت وقف مرحلة من البرنامج. العودة إلى الخيار السابق لم تعد بسيطة. يسكنون بعيدًا، وكانت الأم تتنقل بين ابنها هنا وابنتها في بيت أختها. قال إنهم اختاروا التدخل بعد سنوات من الألم، وإنه لا يعرف كيف يجيب حين يسأله الناس إن كان نادمًا.

«في الأيام الجيدة أقول لا. في الليل حين لا ينام، لا أحب السؤال.»

لم يقاطعه ليث.

أصلحت المعالجة اتصال الشاشة. ظهر برنامج عن أحواض سمك، فقال تيم إن هذا اختيار أبيه، وإنه يريد المباراة. دخل عامل يحمل قطعة احتياطية، وانتظر حتى استقرت الصورة. في الممر سأله يونس عن عدد الحالات المشابهة، فقال ليث إن الأرقام ستُرسل كاملة بحسب نوع التدخل، وإن تيم لا يصلح وحده لتقدير خطر نور، كما أن إلياس لا يصلح وحده لوعدها بالنجاح.

«هذا موجود في تقارير المتابعة.»

«في التقارير، نعم. احتجت إلى سماعه منك.»

خرجا إلى شرفة داخلية. كانت أرضها خشنة كي لا تنزلق أحذية المرضى، وفي وسطها شجرة قصيرة في وعاء كبير. تحت الأوراق أنبوب رفيع يوصل

الماء. عند الجذع تراكمت ورقتان يابستان؛ ربما تأخر عامل النظافة، وربما تركوهما عمدًا كي يبدو المكان أقل ترتيبًا. كره يونس أنه صار يشك حتى في ورقتين.

قال: «هل دعوتني إلى هنا كي أرى من نجح علاجهم؟»

«دعوتك كي ترى حياة بعد غرفة التدخل. ويمكنك أن تتحدث إلى أسر تختارها أنت.»

«ومن خرجوا من هنا ولم يستطيعوا العودة؟»

«تصل إليهم فرق المتابعة بدرجات غير متساوية. لا أستطيع أن أقول غير ذلك.»

«بدرجات غير متساوية بسبب ماذا؟»

«المكان. المال أحيانًا، وإن دفع النظام جزءًا كبيرًا. مواصفات قديمة لم تعد تُنتج. قراراتنا أيضًا.»

كان يونس ينتظر دفاعًا أكثر نعومة. لم يطمئنه الاعتراف؛ ذكّره بما يحدث حين يجعل المحترف حدود النظام واضحة إلى درجة يظن معها أنه أدى ما عليه تجاهها.

أخرج ليث من جيبه شريطًا رقيقًا، ثبته إلى موضع خلف أذنه، وانتظر حتى انطفأ ضوؤه.

«تحتاج إلى صيانة؟» سأل يونس.

«إلى قياس قبل الجرعة المسائية.»

«منذ كم وأنت تفعل ذلك؟»

«بهذا الشكل؟ ست سنوات. بأشكال أخرى، معظم حياتي.»

بدا عمره في تلك الإجابة أكثر مما بدا في وجهه. مئة وثمانية عشر عامًا؛ عاش زمنًا يجعل أيام يونس الأولى في كلية الطب حديثة العهد. كان يستطيع أن يستعمل العمر سلطة، وقد فعل في اجتماعات كثيرة. هنا أخرج علبة صغيرة وعاد إلى سؤال تيم: هل يتحسن؟

«لا يوجد جسد انتهينا من صنعه»، قال. «حتى الذي ولد من غير تدخل.»

قال يونس: «لكن توجد أجساد يستطيع الناس العناية بها من غير أن تطلب الإذن من شركة.»

«ولهذا وافقت على مشاركة البيانات مع التعاونية.»

«وافقت على ملف نور. أنا أسأل عن الناس الذين لا يعرفون طبيبًا يمكنه أن يضغط.»

نظر ليث إلى الشجرة. على الجانب الآخر منها كانت امرأة تساعد زوجها على الوقوف. عدّت له حتى ثلاثة، فبدأ عند اثنين، واضطربا ثم استقرا. تقدّم الروبوت الواقف عند الباب نصف مسافة فقط، ثم بقي.

«هناك تعديلات في عقود الصيانة»، قال ليث.

«وصلتني. كتبت اعتراضات على بعضها.»

«لم تتوقف عن استعمال ما نعطيك.»

«لأن المرضى لا يستطيعون انتظار أن أصبح مرتاحًا إلى كل شيء.»

«هذا ما يحدث لي كل صباح.»

للمرة الأولى في الحديث شعر يونس بأن الرجل قد قال الحقيقة في موضعها الصحيح تمامًا، وأن استعمالها بعد ذلك سيحوّلها إلى عذر. كان بينهما هذا الصباح أيضًا؛ ابنة تنتظر في غرفة، ومعيار حضاري لا يصلح لوصف ألمها.

سأله عن تقنيات يمكن أن تسمح بإصلاح محدود بدل ربط نور بمسار أكثر اندماجًا. فرّق ليث بين ما يمكن فعله الآن، وما يجري اختباره، وما يتمنى المهندسون أن يصبح ممكنًا. رسم على ورقة ثلاثة مسارات، ثم شطب سهمًا حين وجد أنه يوحي باستقلال غير موجود.

«هذا الجزء لن يحتاج الشبكة لكي تعمل كل حركة»، قال. «لكنه يحتاج إلى صيانة ومواد ومعرفة لن تملكها أسرة وحدها. الاستقلال له درجات.»

«وكيف تصير الدرجة وعدًا؟»

ترك ليث القلم.

«في الدعاية بسهولة. في الغرفة التي أنت فيها، يجب ألا تصير.»

أخذ يونس الورقة. لم يكن فيها قرار، لكنها أقل غموضًا من القلق الذي حمله منذ جرح المطبخ. ظل شيء آخر يحز فيه: إلياس سيكبر، وستُصنع مدارس تلائم طريقته في التعلم والحركة، وسيجد الأطفال الذين يشبهونه مكانًا أوسع. من سيبقى خارج ذلك سيحتاج إلى ترتيبات تضاف إلى الأصل الجديد، كما أضافوا اليوم هذا الممر الخشن لمن يمشون على مهل.

دخل طفلان إلى الشرفة، أحدهما يسوق مقعدًا بقدمه، والآخر يحمل طبقًا فيه فاكهة مقطعة. تبادلا شيئًا من غير كلام، ثم ضحكا. لم يعرف يونس على ماذا. منذ أيام صار يراقب هذا النوع من الضحك كمن يسمع لغة يجيد كلماتها ويفوته سبب النكتة.

قال: «ما الذي يحدث للذين لا يستطيعون مجاراتهم؟»

«نهيئ لهم ما يحتاجون.»

«وإذا صاروا قليلين؟»

لم يجب ليث فورًا.

«نحتاج إلى نظام لا يجعل العدد وحده معيارًا.»

«النظام الذي تعمل فيه يفعل ذلك.»

«وأنت تعمل فيه أيضًا.»

كان يمكن أن يواصل الجدال، لكنه رأى إلياس عند الباب يبحث عن أمه. تحركت المعالجة نحوه، فطلب أن يجرب الوصول إلى الشجرة. قالت له إن أمامهما موعدًا آخر، وإنهما يستطيعان التجربة غدًا.

قال الطفل: «غدًا سأريد شيئًا آخر.»

انحنت الأم تضحك، ثم طلبت من المعالجة دقيقة.

حمل يونس جملة الطفل إلى غرفة نور.

وجدها تقطع ورقًا ملونًا لتصنع مقعدًا للمجسم. كانت ميرا في الحمام، والممرضة تجمع أدوات القياس. سألت نور أين ذهب، فأخبرها عن إلياس والرافعة. لم يذكر تيم حتى سألته إن كان كل من هناك يتحسن.

قال: «لا. هناك طفل يمر بوقت صعب.»

توقفت المقصات.

«مثلما يمكن أن يحدث لي؟»

جلس قبالتها. «كل حالة مختلفة. سنسأل عن حالتك تحديدًا، ولن نختار من قصة طفل واحد.»

«لكن القصص تدخل رأسك.»

«نعم.»

«حسنًا. قل لي القصتين.»

حكى لها ما يسمح به إذن الأسرتين من غير أسماء ولا تفاصيل تخصهما. استمعت إلى قصة الخطوتين ثم إلى الحذاء الذي ينتظر صاحبه. وضعت المقص على الطاولة، وطلبت قطعة الورق التي كان قد رسم عليها ليث.

قرأ معها ما يستطيع شرحه، وأقر بما يحتاج إلى سؤال آخر. حين خرجت ميرا من الحمام وجدتهما منحنيين على الورقة نفسها. في وجهها حذر لم يكن يخص العلاج وحده. أحس بعودة غضبه، ثم رأى ابنته تتحرك قليلًا لتترك لها موضعًا.

جلست ميرا.

بعد أن انتهوا قالت نور إنها تريد أن تتحدث إلى الطبيبة وحدها في جزء من الموعد التالي. نظر يونس إلى أمها. كانت هي أيضًا تتعلم كيف لا تجيب سريعًا حين يمس السؤال مكانها.

«من حقك»، قال.

أعادت نور الورقة إليه. «لا أريد أن أتعلم كل شيء كي أطمئنكما. أريد أن أعرف ما سأختار.»

في تلك الليلة، بعد أن نامت، فتح يونس صور طفولتها التي أرسلها إليه الجهاز تلقائيًا. نور في الثالثة، تنظر إلى كلب خارج الإطار؛ نور عند البحر، تحمل حذاءً مملوءًا بالرمل؛ ميرا تُبعد طبقًا ساخنًا، ويظهر على كفها أثر الحرق القديم.

مرّ على الصور إلى أن وجد هالة.

كانت جالسة في طرف مائدة عيد ميلاد، تحمل شريطًا أحمر تحاول نور عقده حول علبة. لم تلتفت إلى الكاميرا. نظر إلى عينيها، ثم أغلق الصورة قبل أن يكبرها.

قالت ميرا من المقعد المقابل: «هل وجدت شيئًا؟»

لم يعرف منذ متى تراقبه.

أطفأ الشاشة.

«وجدت أننا كنا سعداء في ذلك اليوم.»

لم تجبه. بقيت بينهما تلك السعادة، صحيحة تمامًا، وعاجزة عن إصلاح ما يعرفانه الآن.

الفصل العاشر

الطفل الذي يريده الجميع

عرفت سارة أنها صارت خبرًا حين أعاد إليها بائع الزيتون نقودها.

قال إن هذه المرة على حسابه، وقرّب الكيس من أنس قبل أن يستطيع أحد الاعتراض. ظنت أنه يعرف أمها، أو أنه يحتفل مع بقية السوق بعودة العائلات التي أُخرجت من طرف الحي ليلة فحص الحاجز. ثم نظر إلى بطنها وقال: «الله يكمل عليكم. نحتاج إلى فرحة مثل هذه.»

كانت تعرف كيف تقبل دعاءً. لم تعرف كيف ترفض الحاجة التي وضعها الرجل بعده.

أخذت الكيس، ومضت خطوتين، ثم أعطته لأنس. سألها إن كانت تريد العودة إلى البيت. قالت إنها خرجت لأنها سئمت سؤال الناس إن كانت تريد العودة إلى البيت.

«كنت أسأل عن التعب.»

«خرجت مني هكذا. لم أقصد التعب.»

مرّا تحت قطع قماش زرقاء ربطها التجار بين السقوف. على الطاولات خبز وحلوى وأكواب شاي، وعلى باب مخبز لافتة ترحب بالجيران. عاد بعض سكان البيوت بعد إجلاء احترازي قصير؛ قال لهم التقييم إنهم يستطيعون النوم فيها مع متابعة مواضع الشقوق. خرج الناس إلى السوق كأن العودة من مسافة شارعين تحتاج احتفالًا كي تصبح عودة حقًا.

رأت امرأة تحمل وعاء نبتة وتري جذورها لجارتها. قالت إن الآلة نقلت الخزانة كلها لكنها كادت تنسى النبتة، وإن ابن الجيران لحق بها في آخر لحظة. عند الطرف الآخر وقف روبوت حمل منخفض، يتيح للأطفال أن

يضعوا عليه صناديق فارغة ثم يعيد ترتيبها. كان الرجل المسؤول يشرح لهم أنه ليس لعبة. سأله طفل لماذا ينتظر إذنًا من طفل إن لم يكن لعبة. لم يسمع أحد جوابه لأن الطبل بدأ.

جلست سارة عند طاولة قريبة من المخبز. كانت أمها قد سبقتها، وجلست قرب عمود يساعدها على النهوض. وضعت أمامها طبقًا صغيرًا، ثم أبعدت الكرسي كي تجد سارة مساحة لبطنها.

«كولي شي حاجة قبل ما يبرد.»

أكلت لقمة كي تتجنب حديثًا تعرفه، فبدأ حديث آخر.

«جاءني اتصال من امرأة. تسأل إن كنت أمك.»

خفضت سارة الخبز.

«من؟»

«قالت من الجمعية. قلت لها: أي جمعية؟ قالت التي تحمي حق الناس في الولادة كما خلقهم الله.»

نظر أنس إلى سارة، ثم شغل نفسه بكيس الزيتون.

«وماذا قلت لها؟»

«قلت لها: بنتي عندها أم وطبيبة. إذا احتاجت إلى جمعية ستتصل.»

أرادت سارة أن تضحك، لكنها شعرت بالخوف أقرب.

«هل أعطيتِها شيئًا عن الفحوص؟»

تغير وجه الأم.

«لا.»

«أنا لا أتهمك.»

«إذن لا تسأليني كأنني خرجت أبيع خبرك.»

وضعت سارة الخبز في الطبق. كان في صوت أمها أثر مكالمتهما الأولى من العيادة، وشيء أقدم: امرأة بذلت عمرًا كي لا يكتشف الآخرون أن في بيتها ما

يجعل ابنتها أقل قبولًا. لم تكن تعرف كيف تطلب الخصوصية من أم تعتقد أن الحماية حقها الأول في حياة ابنتها.

«أريد فقط أن نعرف من أين يسمعون.»

قال أنس: «قالت لهم امرأة من المركز القديم إن هناك حملًا بلا تحسين اختياري. ربما خرج الكلام من هناك.»

«قلت ربما»، أضاف حين نظرت إليه.

كانت أمينة قد شرحت لهم أن التحقق جارٍ، وأن وصف «غير معدل» أوسع من المعلومات المتاحة. بقيت سارة، بعد الشرح، تبحث عما تقوله للناس. طلبت أمينة فقط ألا يُنشر ما يختصر الرعاية في شعار.

في نهاية الممر ظهر رجل يحمل صندوق أكواب فارغة. وضعه عند المخبز، ثم مسح ماءً انسكب على كمّه. تعرفت سارة إلى صوته قبل أن يقدّم نفسه؛ هو الذي اتصل بها، بصوت لطيف حرص على ألا يقول أولًا من أخبره عن حملها.

«جلال الناصري.»

أشار إلى أمها بتحية، ثم وقف على مسافة لا تجبرها على النهوض.

«أزعجتك بمكالمتي.»

«قليلًا.»

«كان يجب أن أبدأ بسؤال إن كنت تريدين سماعي.»

قالت: «يمكنك أن تبدأ به الآن.»

نظر إلى الكرسي الفارغ. قالت إنها تستطيع سماعه دقائق، فجلس.

كان يرتدي سترة داكنة عند كوعها خيط خرج من موضع إصلاح. على هاتفه شرخ صغير لا يحجب الصورة. حين أضاء ظهر طفل بعينين ضاحكتين، فأطفأه ووضعه مقلوبًا.

قال إنه يعرف بعض سكان الحي، وإن الجمعية تساعد في الإقامة المؤقتة والنقل والمراجعات. أشار إلى امرأة عند باب المخبز؛ أمضت ليلتين في بيت شقيقته بعد الإجلاء. سألت المرأة سارة إن كانت تريد شايًا، من غير أن تتدخل في الحديث.

«نستطيع أن نساعدكما في مصاريف المتابعة»، قال.

رد أنس قبلها: «نحن نتابع.»

«لا أقصد أنكما لا تستطيعان. أقصد ألا تضطرا إلى اختيار برنامج لا تريدانه لأن الباقي أغلى.»

كانت هذه، بالضبط، جملة احتاجت سارة إلى سماعها من أحد. أغضبها أنها جاءت منه؛ ستجعل الرفض أصعب إذا طلب شيئًا بعد قليل.

سألته عما يريده في المقابل.

«أن يعرف الناس أن الطريق الآخر موجود.»

«أي طريق؟»

«أن يولد الطفل من غير أن نصنع له احتياجات لا يستطيع العيش دونها.»

قالتها أمها قبله في البيت بألف صورة. لكن سماعها هنا، وسط آلات تنقل الخبز ومراقبة تجعل عودة الناس ممكنة، أعطاها وزنًا مختلفًا. كانت سارة تريد أقل تدخل ممكن؛ رغبة تخص جسدها وطفلها، قابلة للتغيير إذا ظهرت حاجة. في فم جلال صارت طريقًا يحتاج إلى من يمشي أمام الناس كي يثبت أنه لم يُغلق.

قالت: «لا نعرف كل شيء بعد.»

«لا أحد يعرف كل شيء. هذا لا يمنعهم من تغيير أطفالنا.»

«لا أقصد الفلسفة. أقصد فحوصي.»

مال نحو الطاولة قليلًا، ثم رجع حين رأى انزعاجها.

«هل هناك مشكلة؟»

«هذه مسألة أتكلم فيها مع الطبيبة.»

قال نعم، ثم تناول كأسه ولم يشرب. بدا صمته مجهودًا. سارة، التي تعبت من الذين يسألون، وجدت نفسها تريد أن تعرف ما الذي يمسكه قبل أن يخرج.

نظرت إلى الهاتف. «ابنك؟»

رفع الجهاز وأراه لها. طفل على دراجة صغيرة، إحدى قدميه على الأرض، والشارع خلفه أكثر فراغًا من شارعهم.

«اسمه سامر.»

انتظرت، فواصل.

«كان يظن أنني أبطئ عمدًا كي يسبقني. ثم صار يبطئ هو كي أصل.»

تحدث عن ولد يغضب إذا كُسرت البسكويتة في الكيس، وعن دراجة احتفظوا بها لأن شقيقته أرادت أن تركبها حين تكبر. انحنى أنس ينظر إلى الصورة، ثم عاد إلى مقعده دون تعليق.

قال جلال إنه وافق على تدخل حين تدهورت حالة ابنه. كان من الذين يدافعون عن البرنامج في البداية. عرضوا عليهم احتمال تحسن لم يكن أي علاج آخر يعد به؛ قرأ، وسأل، ووقّع. بعد ذلك جاءت مضاعفات لم يستطع أحد إيقافها.

«هل أخفوا الخطر؟» سألت سارة.

«ذكروا أخطارًا. لا أعرف إن كانوا ذكروا الخطر الذي قتله بما يكفي. أعرف أنني سمعت كلمة فرصة ولم أسمع بعدها كما ينبغي.»

رفع هاتفه ثم وضعه مرة أخرى.

«لهذا أريد أن يكون للناس باب آخر.»

لم تستطع أن ترد على رجل يتكلم عن ابنه بجملة جاهزة. قالت إنها آسفة، وشعرت بضعف العبارة وهي تقولها. لم يبدُ أنه ينتظر تعزية. كان ينتظر شيئًا تستطيع التعزية أن تقرّبه.

وصلت فتاة تحمل أوراقًا ملونة. سألت جلال أين تضعها، فقال عند المدخل، ثم عاد إلى سارة.

«هناك لقاء صغير الأسبوع المقبل. أطباء وأسر. إن قلتِ جملتين فقط...»

قالت: «لا.»

توقف.

«ليس خطابًا. حضورك يكفي.»

«قلت لا.»

صمت أنس إلى جانبها. أحبته لأنه لم يشرح رفضها بدلًا منها.

تحدث جلال عن نساء يشعرن أنهن وحدهن، وعن حقها في عدم الظهور، وعن إمكان الاكتفاء بصوت من غير صورة. بدا كأنه يعطيها خيارات، لكنها كانت جميعًا طرقًا للذهاب إلى المكان الذي رفضته.

«أنا حامل»، قالت. «وقد أحتاج إلى شيء لم أكن أريده. لا أستطيع أن أعد الناس بجسدي.»

«لن نطلب منك وعدًا.»

«أنت تطلبه الآن.»

جاءت أمها بالشاي، بعد أن ابتعدت لتمنحهما بعض الخصوصية. نظرت إلى وجهها، ثم إلى جلال.

«خليوها تاكل وترتاح. راه ماشي وقت هاد الكلام.»

نهض الرجل. اعتذر، وقال إن المساعدة لا تتوقف على الموافقة. أعطاها رقمًا يمكن استعماله للنقل إلى العيادة، وترك بطاقته تحت طبق فارغ كي لا تحملها مرغمة.

رأته بعد دقائق يساعد امرأة على إنزال صندوق عن عتبة مرتفعة. الروبوت بجواره يثبت الصندوق، وهو يوجهه إلى الباب الصحيح. جعل عمله ما حدث بينهما أشد إرباكًا.

حاولت سارة استعادة السوق. اشترت جوربين صغيرين بلون أصفر، ثم أعادتهما إلى الطاولة لأنهما بدوا صغيرين أكثر مما تحتمل. قال البائع إن الأحجام كلها تبدو كذلك قبل الولادة. اختارت حجمًا آخر، فضحك وقال إن الطفل لن يحتاجه في يومه الأول.

«دعه يكبر إذن»، قالت.

عند العودة تعبت قبل نهاية المنحدر. عاد الثقل الذي تعرفه، وضاق تنفسها حتى توقفت. اتصل أنس بعربة قريبة، وانتظرا في ظل باب مغلق. من بيت مجاور خرجت موسيقى قديمة، ثم صوت امرأة تصحح للمغني كلمة يعرفها جيدًا. انحنت سارة لتعدل كيس الجوربين فوق ركبتيها.

قال أنس: «كان يمكن أن نغادر أبكر.»

«كنت أريد أن أقضي يومًا خارج الفحص.»

«قضيناه خارج الفحص.»

نظرت إليه، فرأى بنفسه ما في الجملة من خطأ.

«أقصد... أعرف.»

وضعت كفها على بطنها. تحرك الجنين تحتها، دفعة قصيرة لا تنتظر أن تتفق هي وأنس. استراحا إلى الحركة كما يستريح شخصان إلى ثالث يدخل غرفة خلاف فيطلب ماء.

في المساء أرسلت لها صديقة صورة، وكتبت: لماذا لم تخبريني أنك ستتكلمين؟

فتحتها سارة وهي في المطبخ. كان أنس يغسل طبقين، والصنبور يضرب الستانلس بصوت منتظم. في الصورة وجهها، مأخوذ من صورة عامة قديمة لاحتفال مهني، وقد قُصّ من حولها الناس. تحت الوجه: لقاء للدفاع عن مستقبل الولادة البشرية. وتحت ذلك عبارة أثقل، بخط أصغر: مع أسرة تنتظر أحد آخر المواليد غير المعدلين في منطقتنا.

لم يكن اسمها كاملًا، لكنه لم يكن مطلوبًا. وجهها يكفي.

قرأت السطر مرتين. لم يختفِ في الثانية.

أرت أنس الشاشة. أغلق الصنبور، وبقي الماء يقطر عن الطبق الذي يحمله.

«قلت له لا»، قالت.

«سمعتك.»

اتصلت بجلال. لم يجب. أرسلت له الصورة وجملة واحدة: لم أوافق على هذا.

بعد دقائق جاء الرد. قال إن التصميم أُعد قبل لقائهما، وإن فريق التواصل فهم إمكان مشاركتها من حديث أولي، وإنه سيطلب سحبه. ثم أضاف أنهم يستطيعون تعديل الوصف كي لا يسبب لها حرجًا.

كتبت: اسحبوا الصورة والدعوة باسمي. لا تعدّلوا الرفض.

لم ترسل جملة ثانية. جلست عند الطاولة وأخرجت الجوربين الأصفرين. كان أحدهما قد انقلب داخل الآخر، ففصلتهما ووضعتهما متجاورين.

على الهاتف بدأ عدد المشاركات يرتفع.

الفصل الحادي عشر

بيت هالة

كانت هالة قد نزعت باب الخزانة كي لا تضطر إلى نقلها كلها.

وجدتها ميرا جالسة على الأرض، مفكًّا بين ركبتيها، والباب الخشبي مسندًا إلى كتف السرير. قالت من مكانها: «قلت لي لا تحركي الصندوق. لم تقولي شيئًا عن الخزانة.»

وضعت ميرا حقيبتها قرب المدخل، وركعت أمام المفصلة السفلى.

«كيف نزلتِ إلى هنا؟»

«ببطء. المشكلة في الصعود.»

سمعت ميرا التعب تحت المزاح. نظرت إلى الركبة المتورمة، ثم إلى مسافة الدرج التي صعدتها قبل قليل. كانت العربة قد تركتها عند أول الزقاق لأن جهاز مسح يقف عند المنعطف، ووجدت أمام البيت خطًا جديدًا بلون برتقالي يمتد على الحجر. لم تكن تتذكر هذا اللون في الزيارات السابقة.

جاءت وحدها في رحلة الصباح. بقي يونس مع نور في المنشأة لإتمام أيام المراقبة، وقال لها إنهما يستطيعان تدبير اليوم. لم يعد يسألها لماذا تريد زيارة هالة؛ صار السؤال بينهما متى ستستطيعان الحديث من غير أن يقاطعه فحص أو خوف.

أخبرا نور في الليلة السابقة.

كانت قد سألت أولًا إن كانت هالة تعرف، ثم سألت إن كان أبوها يعرف قبل هذا الأسبوع. قالت ميرا لا. أخذت نور الجواب بجدية لم تكن مستعدة لها، وسألت: «لماذا يكون كل شيء عني معروفًا للجميع، وكل شيء عنكما يأتي عندما تقرران؟»

حاول يونس أن يشرح الفرق بين معلومات العلاج وحياة شخص آخر، فالتفتت إليه: «كنت تسأل السؤال نفسه قبل قليل.»

لم ينكر.

لم تسمِّ نور هالة أمًّا ثانية أو جدّة. طلبت أن تراها، ثم قالت إن لديها موعدًا مع المعالجة وإنها لا تريد أن تبدأه باكية. أجّلا المكالمة إلى المساء باتفاقها. حملت ميرا معها هذه المهلة، لا كإعفاء بل كشيء يجب ألا تبدده.

رفعت هالة نظرها إليها.

«قلتِ لهم.»

«نعم.»

«وأنت الآن جئت تنقذين خزانتي حتى لا أبدأ بالسؤال.»

أخرجت ميرا المسمار الأخير.

«جئت لأنك تحتاجين إلى من يحمل معك.»

«الأمران صحيحان.»

ساعدتها على النهوض. انتظرت حتى وجدت هالة ثقلها على الساق السليمة، ثم قربت الكرسي. كانت هالة تكره الحركة التي تجعلها حمولة، مع أنها تسمح لآلة بحمل الخبز من السوق من غير اعتراض.

في الحائط خلف الخزانة بقعة داكنة امتدت إلى أعلى. رفعت ميرا طرف الورق القديم، فتفتتت طبقة رقيقة تحته. لم يكن البلل واسعًا عند الأرض، لكنه ترك رائحة حامضة تسكن الغرفة حتى لو فتحت النافذة.

«منذ متى؟»

«منذ صارت الخزانة تلتصق بالحائط.»

«هذا ليس تاريخًا.»

«هذا تاريخ البيت.»

كان الصندوق المطلوب تحت السرير، في الجهة التي لا يصل إليها الضوء. أخرجته ميرا، ومسحت غطاءه بخرقة. فوقه علبة حديدية عليها رسم برتقالتين، وتحتها رزم قماش وصور في ظرف سميك. قالت هالة إن الألوان في العلبة، وإن على نور ألا تحكم عليها قبل أن تجربها؛ بعض الأشياء تبدو يابسة من الخارج وتبقى صالحة في الداخل.

فتحت ميرا العلبة. أقلام قصيرة وقطع لون، وقطعة طباشير زرقاء ملفوفة في ورق. تذكرت الكرة الزرقاء في السجل، ثم غضبت من ذهنها لأنه بدأ يصنع القرابات التي تخافها.

«لماذا الأزرق؟» سألت.

قالت هالة: «لأن الأحمر خلص.»

ضحكت ميرا، ضحكة استراحت إليها أخيرًا.

جاء من الخارج صوت طرق على الحجر. عند الباب وقف عامل تعرفه هالة، يحمل حقيبة أدوات يتقدمها جهاز صغير على أربع قوائم. حيّاها باسمها، ثم طلب أن يدخل. قالت له إن التي معها ميرا، وإنها تصلح ما لا يستطيع هو أن يقنع الإدارة بإصلاحه.

قال: «إذن أعطيني إدارتها.»

كان اسمه عبد السلام. فتح الحقيبة وأخرج مقياسًا، ثم وضع الجهاز الصغير عند البقعة. امتدت منه ذراع دقيقة، لامست الحائط في ثلاثة مواضع، وبقي الرجل يقرأ القياس على شاشة متسخة عند الحافة. على جيب سترته مستطيل أفتح لونًا يدل على شارة قديمة نُزعت.

سألته ميرا عن الخط البرتقالي.

«موضع متابعة. ليس حكمًا بأن البيت سيسقط.»

قالتها هالة معه تقريبًا، كأنها حفظت الجملة.

سألته عن الحاجز، وعن الفرق التي كانت تعمل فيه. أخرج رأسه من خلف الخزانة واعتدل بصعوبة.

«كنت واحدًا منها.»

«ومتى تركته؟»

«لم أتركه. نقلونا. أولًا لستة أشهر، ثم صار لكل موسم سبب.»

حكى وهو يفحص، لا كما يحكي رجل يريد أن تُكتب شهادته. مرة تعطلت شبكة التبريد في جناح رعاية، ومرة تأخر خط مواد تحتاجه منشأة أجساد، ومرة صار إصلاح الجزء الغربي أغلى لأن عدد البيوت المأهولة انخفض. كانت الأرقام تتغير في كل دورة؛ بقيت النتيجة أن الفريق لا يعود.

«حين كنا هنا، كان يمكن تبديل القطع قطاعًا قطاعًا. الآن لا يُصلحون قطعة من غير أن يسألوا عما وراءها.»

قالت هالة: «وما وراءها نحن.»

نظر إلى جهازه.

«رفعت ذلك في التقرير.»

«خذ واحدًا منهم معك المرة المقبلة. الكراسي ما زالت عندي.»

قال إنه يرسل الصور والقياسات، وإن القرار لا يكون لشخص واحد. سرد ما يحدث له: طلب، ثم تقدير، ثم إعادة تقدير لأن الموسم تأخر وازداد الضرر، ثم اقتراح نقل عدد قليل من الأسر إلى مساكن أكثر أمانًا.

قالت ميرا: «فيصير عدد السكان أقل في التقدير التالي.»

أغلق الحقيبة ولم يجب فورًا.

«نعم.»

كان الاعتراف خفيف الصوت، لا يناسب حجمه. نظرت ميرا إلى الخزانة المفككة، ثم إلى النافذة. في الخارج عملت رافعة عند أنبوب جديد يمتد بمحاذاة الطريق. رأت الأنابيب نفسها من جهة البحر في رحلة العودة؛ كانت تنقل مواد وحاجات حقيقية لأجساد تحتاجها كي تعيش، ومنها جسدها وجسد نور. لم تجد في المشهد جهة تستطيع أن تنزع عنها الخير كله كي يصبح الغضب سهلًا.

سألها العامل إن كانت تستطيع أن تبيت مع هالة إن صدر توجيه بالمغادرة. قالت إنها تستطيع ترتيب من يبقى أو ينقلها، لكنها تريد أن تعرف درجة الخطر الآن. شرح ما وجده: الرطوبة تحتاج معالجة، والشق لا يكفي وحده للحكم، والمتابعة مرتبطة بحالة القطاع الساحلي. إن تغير الإنذار فلن ينتظروا تقييم كل غرفة.

أعطاها رقم الفريق الميداني، ثم طلب من هالة ألا تعيد الخزانة إلى الحائط.

قالت: «لقد فككتها. هل تريد ضمانًا أكبر؟»

عند الباب التفت إلى ميرا.

«لا تحملوا الأشياء الثقيلة إذا جاء الإخطار. الناس يضيعون الوقت وهم يقررون أي طاولة تستحق أن تنجو.»

بقيت الجملة في الغرفة بعد خروجه.

صنعت هالة الشاي، ورفضت أن تقوم ميرا بكل شيء. أعطتها الصينية فقط، وتركت لها اختيار موضعها. جلستا في الغرفة التي تطل على الطريق؛ كانت أقل رطوبة، لكن ضوءها أضعف. علقت على جدارها صورة امرأة تحمل طفلًا لا ينظر إلى الكاميرا. لم تسأل ميرا عنه في زياراتها الأولى. بعد سنوات عرفت أنه أخو هالة، وأن المرأة أمها؛ معلومة لا علاقة لها بالخلايا، ولذلك تأخرت حتى صار لسماعها معنى.

قالت هالة: «كيف غضب؟»

«يونس؟»

«لا، الخزانة.»

خفضت ميرا عينيها إلى الشاي.

«سأل لماذا لم أثق به. وأنا قلت له أشياء أعرف أنها لم تكن كلها جوابًا.»

«وأنا؟ هل صرتُ في نظره شريكتك في الإخفاء؟»

«لم يقل ذلك.»

«قد يقوله لاحقًا. من حقه أن يسألني.»

«كان قراري.»

«وانتظاري كان قراري.» توقفت هالة عن صب الشاي. «كان عندي رقمه. كان يمكن أن أتصل به.»

وضعت هالة كأسها قرب علبة الألوان. كانت ميرا قد سمعت منها تفاصيل التبرع من قبل؛ اليوم احتاجت إلى سماعها من غير أن يكون هدفها تبرير نفسها.

كانت هالة شابة حين دخلت البرنامج الأول. احتاجت أسرتها إلى المال، وكانت تدرس وتعمل في الوقت نفسه. لم تتظاهر أن القرار كان تبرعًا خالصًا. قالوا إن الخلايا ستُستخدم في أبحاث أنسجة وأجساد حيوية صناعية، وشرحوا استعمالات لم تكن تتصور شكلها حتى بعد شرحها. قرأت، وسألت، ووقّعت. بعدها بسنوات وصلت دعوة لتوسيع الاستعمال، ثم تواصل من فريق مستقل لترتيب لقاء مع ميرا التي طلبت التعرف إليها.

«كنت أخاف أن أجد امرأة تعتقد أنني مدينة لها بحياة كاملة»، قالت.

«وأنا كنت أخاف أن تجدي نسخة سيئة منك.»

«وجدتك تسألين إن كنت أحب القهوة.»

تذكرت ميرا. سؤال صغير أعدته كي لا تبدأ بالسؤال الكبير.

«وأنت قلتِ إنك تشربينها لأن الشاي يحتاج إلى وقت.»

«وكان الشاي على الطاولة. كنت مرتبكة وأكذب في أشياء تافهة.»

بدا لها اللقاء الأول فجأة أقل حتمية. امرأتان في مقهى، إحداهما تحمل خلايا من خط الأخرى، وكلتاهما تحاول أن تعثر على كلام لا يفرض قرابة ولا يهينها. ما جاء بعد ذلك لم يكن مكتوبًا في النسيج؛ الزيارات، والخلاف على طعم الزيتون، ومرض الركبة، وصبر هالة على أسئلة نور. كان يمكن أن تنتهي العلاقة بعد فنجان واحد.

«وحين طلبوا موافقتك على الاستعمال الإنجابي؟»

«سألت عن الطفل، وعمن سيربيه، وعما يعنيه ذلك لي. قالوا بوضوح إنني لن أكون أمّه القانونية. قلت إن القانون ليس السؤال الوحيد.»

«لم تقولي لي هذا.»

«كنت مشغولة بما سيقولونه لك.»

جرحها الكلام، لكنها بقيت تسمع.

قالت هالة إنها وافقت بعد شرح منفصل ووقت للتفكير، وإنها لم تتصور أن تدخل حياة الطفلة باسم مستعار؛ اسمها الحقيقي موجود، لكن علاقته بها مؤجلة. لم ترغب في انتزاع شيء من ميرا. أرادت فقط أن تستطيع قول حقيقة من غير أن تشعر أنها تخون صديقة.

عند المساء اتصلت نور.

وضعت ميرا الجهاز فوق كتاب كي يستقر، ثم ابتعدت قليلًا. ظهر وجه ابنتها، وخلفها حافة المجسم. كان يونس في طرف الغرفة، واضحًا بما يكفي لتعرف أنه لم يترك نور تواجه الحديث وحدها.

قالت هالة: «الألوان عند أمك.»

لم تجب نور عن الألوان.

«لماذا لم تقولي لي؟»

لم تبدأ هالة بشرح موقف ميرا.

«لأنني وافقت أن أنتظرها. انتظرت أكثر مما ينبغي.»

«هل كنت تعرفينني قبل أن أولد؟»

«كنت أعرف أن هناك طفلًا تحاول أسرتك إنجابه. أنت عرفتك بعد ذلك.»

فكرت نور، ثم سألت إن كانت تشبهها. قالت هالة إنها لا تعرف كيف تجيب من غير أن تجعلها تبحث في المرآة عن وجه شخص آخر.

«لكن بعض الأشياء يمكن أن تتشابه.»

«نعم. وبعضها نتعلمه ممن نجلس معهم. أنت تقولين عبارتي عن الألوان لأنك سمعتني أقولها عشر مرات، لا لأن قلمًا كان مخبأ في الخلايا.»

خرجت من نور ضحكة صغيرة.

سألت بعد ذلك عن أم هالة، وعن الصورة على الحائط، وعن اسم الطفل الذي فيها. أجابت المرأة. ظلت ميرا خارج مركز الصورة، تستمع إلى حكاية تعرف بعضها وتجهل بعضها.

قبل نهاية المكالمة قال يونس لهالة إنه يريد زيارتها حين يعود. أجابت: «تعال. لكن لا تجعلني أفتح عيادة في رأسي.»

قال إنه سيأتي ليسمع.

كان هذا أكثر ما تستطيع ميرا أن تطلبه في ذلك المساء.

بعد أن انقطع الاتصال عاد إلى البيت صوته القديم: غليان خفيف في المطبخ، جرّ كرسي من الشقة المجاورة، عجلات فوق الحجر. وضعت ميرا الألوان في حقيبتها، ثم بدأت تجمع الصور في غلاف لا تدخل إليه الرطوبة. أوقفتها هالة عند صورة واحدة؛ أرادت إبقاءها في موضعها.

لم تجادلها.

وصل الإخطار بينما كانتا تعيدان باب الخزانة إلى جانب السرير. ظهر على جهاز هالة، ثم على لوحة صغيرة قرب المدخل لم تكن ميرا قد لاحظتها من قبل: انتقال احترازي خلال ثمانٍ وأربعين ساعة لسكان القطاع المحدد، مع إمكان العودة بعد التقييم، وترتيب أولوية النقل لمن يصعب عليهم النزول.

قرأت هالة حتى النهاية. سألت عن الشارع المجاور، ففتحت ميرا الخريطة. كان الحد يمر خلف بيتين، ثم يلتف عند الممر إلى البحر.

قالت: «يعرفون كيف يرسمون طريق إخراجي بالدقة نفسها التي لا يجدون بها طريقًا لإصلاح الحاجز.»

كانت ميرا قد فتحت طلب النقل. بقي إصبعها فوق خانة الموافقة.

«أريدك في مكان آمن.»

«وأنا أريد أن أعيش هنا في مكان آمن. كيف صار الطلب الثاني أكبر من حقّي؟»

لم تغلق ميرا الطلب، ولم تضغط بعد.

من النافذة جاء صوت الرافعة عند الأنبوب الجديد. كانت تنزل حملًا بحرص شديد، خشية أن ينكسر.

الفصل الثاني عشر

ما أنقذ الجدة

عادت أمينة إلى غرفة الفحص وفي كمها أثر حليب.

لم تفسره في البداية. اعتذرت عن تأخرها عشر دقائق، ووضعت حقيبتها تحت المكتب، ثم سألت يونس عن نور. كان قد عاد إلى طنجة في الليلة السابقة مع أسرته بعد استقرار القياسات بما يسمح برعاية مرحلية في البيت. خرجوا بتعليمات واضحة، وموعد مراجعة قريب، واتصال مباشر لا يمر بانتظار الاستقبال. لم يخرجوا بحل.

قال إن نور أفضل في الأنشطة البسيطة، وإنها تغضب حين يشعرها أحد أن البساطة هي كل ما ينبغي أن تريده.

«هذا تحسن أيضًا»، قالت أمينة.

كان يعرف أن من يستطيع الغضب يملك مساحة لا يمنحها الألم أحيانًا، ويعرف كذلك أن الغضب قد يكون آخر ما تبقى من المساحة.

دخلت والدة سارة قبلهما إلى الغرفة المجاورة مع الممرضة. كان موعدها لأخذ قراءة متابعة عادية، ثم الحديث عن المقارنة التي وافقت عليها. سارة وأنس ينتظران في الاستقبال. طلبت أمينة أن تتكلم إلى الأم أولًا فيما يخصها، ثم إلى سارة، ثم تسمح بما تختار مشاركته.

قال يونس: «أردتِ حضوري؟»

«لأنك طبيبها، ولأن جزءًا مما سأقوله يتعلق بإحالات قديمة تعرفها. لا أريدك أن تسمع النتيجة في ممر وتضطر إلى اتخاذ موقف قبل أن تفهم.»

نظرت إلى كمها، ومسحت الموضع بالماء.

«ابنة أخي. رفضت أن تشرب وحدها هذا الصباح.»

كانت أمينة قد أوصت الأسرة نفسها قبل أشهر بتدخل ينقذ الطفلة من تدهور متوقع. تذكّر يونس الملف ولم يقل شيئًا. قالت هي إن موعد صيانة الوصلة تزامن مع وردية أم الطفلة، فذهبت معها. خرجت الصغيرة من الفحص تريد حليبًا من الكوب الذي في البيت، لا من الكوب المتاح.

«كنت أشرح لأخي أمس لماذا لا ينبغي أن تُغلق عيادة حينا»، قالت. «وصباح اليوم أخذت ابنته إلى المركز الذي انتقلت إليه خدماتها.»

قال: «لا يناقض أحدهما الآخر.»

«العيادة هنا، وموعد الطفلة هناك. ذهبت إلى موعد الطفلة.»

غسلت الكوب الذي استعملته، ثم عادت إلى عملها.

جلس يونس إلى جانب المكتب حين دخلت الأم. كانت تحمل حقيبة قماش طوتها فوق ركبتيها، ولم تسأل عن النتيجة فورًا. سألت إن كانت سارة ستحتاج إلى انتظار طويل. قالت أمينة إن موعد سارة بعد نصف ساعة، وسحبت كرسيًا أقرب إلى المكتب.

قالت المرأة: «لا تقولوا لي شيئًا ثم تقولوا لا تخبري ابنتك. تعبت من الناس الذين يحمون بعضهم بالكتمان.»

أخرجت من الحقيبة صورة قديمة. لم تطلبها أمينة، لكن المرأة أحضرتها لأنها وجدت نفسها تفتح أشياء أمها بعد الجلسة الأولى. في الصورة طفلة تقف أمام شجرة، وشريط أبيض عند عنقها، وامرأة نصف ظاهرة تحمل حذاءً.

«هذه أمي. لم تكن قوية كما كانت تقول.»

تحدثت عن تعب متكرر في شباب الجدة، وعن علاج قيل للأسرة إنه يجعل الجسم يقبل ما يحتاج إليه. كانت تفاصيل قليلة؛ بعضها سمعته طفلة، وبعضها وصل إليها بعد وفاة الأم على ألسنة أقارب لا يتفقون. من أجل ذلك لم تعتمد أمينة على الحكاية وحدها. قارنت ما سمحت به الأسرة من عينات وسجلات علاج محددة، ثم أرسلت النتيجة إلى مختبر مستقل.

وضعت أمام المرأة رسمًا بسيطًا لشجرة نسب، لا صورًا للخلايا.

«وجدنا في عينتك ترتيبًا وراثيًا يطابق تعديلًا علاجيًا موثقًا في خط والدتك.»

بقيت المرأة تنظر إلى الصورة التي أحضرتها.

«يعني أنني مريضة؟»

«لا. وجوده ليس تشخيص مرض. نحن نسأل عن مصدر علامة وجدناها أثناء متابعة سارة.»

«لكن أمي عولجت. أنا لم أفعل ذلك.»

شرح يونس قبل أن يتدخل خوفها في الفاصل. لم يكن المقصود أن علاجًا عاديًا تلقته الجدة في ذراعها انتقل إلى أولادها، ولا أن قطعة صناعية ورثتها سارة. التدخل القديم الذي يتتبعونه وقع في مرحلة مبكرة جدًا من تكوين الجدة، قبل ولادتها؛ استهدف مسارًا بيولوجيًا متصلًا بالتوافق مع أنسجة علاجية، ووصل التغيير في بعض الحالات إلى الخلايا التي تعطي لاحقًا البويضات. العلاج الذي تتذكره الأسرة في شبابها كان متابعة لذلك التكوين، لا بداية القصة.

قالت الأم: «إذن لم تكن هي التي اختارت؟»

«في تلك المرحلة اختار لها والداها والفريق»، قالت أمينة. «أما ما اختارته بعد أن كبرت، فنحتاج إلى أن نفصل بينه وبين ما بدأ قبلها.»

رفعت المرأة الصورة إلى الضوء.

«قالت لي إنها فعلت كل شيء لكي تراني أكبر.»

لم يصحح لها أحد الجملة. ربما كانت الجدة قد فعلت ذلك فعلًا في علاج لاحق، وربما جمعت عمرًا من التدخلات في عبارة واحدة تقولها لابنتها. التفاصيل الناقصة لا تجعل الحب كاذبًا.

سألت عن سارة. قالت أمينة إن العينة المقارنة من سارة تحمل العلامة ذاتها، وإن هذا يدعم انتقالها عبر الأسرة. أما القراءة الأولى المنسوبة إلى

الجنين فلا تكفي وحدها لإعلان أنه يحملها؛ يلزم تأكيد مستقل يميز مادته عن المادة الأمومية التي قد تختلط بها في العينة.

«وقد لا يحملها؟»

«هذا ما سيحسمه الفحص الذي وافقت سارة على استكماله. لن أسبق نتيجته.»

خرجت الأم إلى ابنتها بإرادتها، وطلبت أن تناديها بنفسها. بقي يونس ينظر إلى رسم الشجرة. أربعة مواضع، وسهمان مثبتان، وسهم أخير لم يثبت بعد. كان الأمر أصغر من الرواية التي بدأ الناس يروونها عن آخر طفل، وأشد قدرة على هدمها.

دخلت سارة. توقع الصدمة، فرأى الغضب.

«إذن كلمة غير معدل لم تكن شيئًا يعرفه المركز؟»

قال يونس: «كان يعرف أنك لم تختاري تحسينًا في هذا الحمل. هذا مختلف عن إثبات عدم وجود تعديل موروث.»

«وهل قلتم لي هذا الفرق؟»

راجع في ذاكرته الجلسة الأولى. قالوا إن الحمل لا يتضمن تحسينًا اختياريًا، وإن الفحوص جيدة، وإنهم يراجعون تعارضًا. كانت الجمل صحيحة. تركت بينها مساحة ملأها كل شخص بما يريد.

قال: «كان ينبغي أن نقوله أوضح.»

«قبل أن أكتشف أن الجميع يعرفون أي طفل ينتظرون مني.»

لم ينشر صورتها، لكنه كان واحدًا ممن يملكون اللغة التي خرجت بها من المركز مطمئنة إلى وصف أوسع مما تضمنه.

سألت إن كان طفلها يحتاج إلى علاج الآن. أعادت أمينة الحديث إلى القياسات والنمو؛ لا يوجد من النتيجة وحدها ما يفرض تغيير الرعاية اليوم، والمتابعة مستمرة لأي سبب يظهر في فحصه الفعلي. كانت هذه الجملة أهم

لسارة من أصل التعديل، ورأى يونس كيف استقام جلوسها قليلًا حين سمعتها.

قالت: «يمكنكم أن تتكلموا إلى ليث عن البرنامج. لا تستخدموا اسمي في نقاشاته العامة.»

سجّلت أمينة اختيارها، ثم قالت إنها تريد من ليث جوابًا عن تاريخ التدخل وشرح مخاطره، وإن أمكن فصل ذلك عن ملف سارة تمامًا فستفعل. وافقت سارة على مراجعة محددة لبياناتها لدى الفريق المعني، ورفضت المشاركة الإعلامية. لم تكن توقّع مرة واحدة على العالم كله.

بعد خروجها، وضع يونس كفيه على طرف المكتب. قال لأمينة إنه عرف بعض أسماء البرنامج من إحالات سابقة، لكن الصيغ التي وصلته ركزت على الاستقرار العلاجي ولم تُظهر أثرًا موروثًا محتملًا بهذا الوضوح.

«هل كنت تعرف أن المسألة لم تُغلق؟» سألت.

كان يستطيع أن يقول إن التنبيهات كانت موزعة على أكثر من صفحة، وإنه لم يكن المختص المسؤول عن التصميم الأول، وإن كل مريض جاءه كان يحتاج إلى شيء لا يحتمل الانتظار. بدل ذلك فتح ذاكرته إلى العبارة التي كان يمر عليها.

«كنت أعرف أن هناك متابعة طويلة غير مكتملة.»

«وهل شرحت ذلك بهذا المعنى؟»

«شرحت الحاجة إلى المتابعة. لا أظن أنني شرحت ما قد يمتد إلى الأبناء كما ينبغي.»

أغمض عينيه قليلًا، لا بحثًا عن راحة؛ كان يحاول تذكر وجوه لا أرقام. امرأة تسأل إن كانت ستنجب، رجل يسأل عن كلفة الانتقال، أم تحمل طفلها وتريد أن تعرف إن كان سيستطيع الذهاب إلى المدرسة. كان جوابه يبدأ دائمًا بما يمكن فعله هذا الشهر.

وصل ليث في اتصال بعد الظهر، من غرفة صغيرة لا تظهر فيها شعارات. شغّلت أمينة التسجيل بعد أن أخبرته به، وبدأت بالسؤال عن تاريخ البرنامج. قالت ما ثبت بالمقارنة، وسمّت النطاق الذي لم يُحسم.

استمع، ثم قال إن النتيجة تتفق مع تدخلات قديمة استُخدمت في ظروف ضيقة قبل أن يتسع البرنامج. لم يكن هو صاحب التدخل الأول في كل حالة؛ أشرف لاحقًا على المتابعة، وشارك في قرارات الصياغة التي أُرسلت إلى العيادات.

سأل يونس: «هل كنتم تعرفون أن التغيير قد يصل إلى السلالة؟»

«في بعض المسارات، نعم.»

«ولماذا صارت العبارة توافقًا مستقرًا وحسب؟»

سمعوا في الخارج بابًا يغلق، ثم تحرك على الكرسي حتى صار أقرب إلى الشاشة.

«لأننا خفنا أن يقرأ الناس احتمالًا غير محسوم فيوقفوا علاجًا كانوا يحتاجون إليه.»

قالت أمينة: «وماذا كان يحق لهم أن يفهموا؟»

«أكثر مما قلناه.»

لم يكن الاعتراف انتصارًا. أحس يونس بشيء بارد في صدره؛ كان قد هيأ غضبه لرجل يناور، لا لرجل يعترف ثم يبقى كل ما سببه موجودًا.

«هذا إخفاء»، قال.

«نعم. لم نعرض امتداد بعض النتائج بالوضوح الواجب. استخدمنا لغة تضيق بما نعرفه.»

سألته أمينة عن الحالات التي تراجع الآن، وعن العائلات التي تحتاج إلى إخطار، وعن الجهة التي تستطيع التحقق من غير أن تعتمد على المؤسسة نفسها. أجاب بما يعرف، وحدد ما يحتاج إلى فتحه للجهة المستقلة. انتهى الجزء المسجل عند التزامات واضحة، لا عند اعتذار عام.

بقي يونس بعد خروج أمينة للرد على مريضة أخرى.

قال ليث: «لم تمت الجدة في طفولتها.»

نظر إليه يونس حتى أكمل.

«أعرف أنك ستقول إن النجاة لا تبرر الإخفاء. وأنا لا أقول إنها تبرره. لكنني كنت أراها كلما طلبت مني لجنة أن أكتب الاحتمال في السطر الأول. كنت أرى الأشخاص الذين سيخافون من الكلمة قبل أن يفهموها.»

«فاخترت ما ينبغي أن يخافوا منه.»

خفض ليث رأسه.

«نعم.»

من وراء زجاج الباب رأى يونس أمينة تحمل طفلة إلى مقعد انتظار؛ لم تكن ابنة أخيها، بل طفلة لمريضة تحتاج إلى استخدام الحمام. جلست الصغيرة على ركبتيها وشدت كمها المتبقع. هنا، في أمتار قليلة، كانت الحياة التي يعرفون كيف ينقذونها تزاحم الحق الذي لا يعرفون كيف يعطونه وقته.

قال يونس: «سارة لا تريد أن تصبح قضيتها دليلًا على شيء غير ما يخصها.»

«سيستعمل الآخرون الأمر.»

«ليس هذا إذنًا لك.»

انتهى الاتصال. بقيت صورته السوداء في الشاشة، وعاد وجه يونس عليها. فكر في نور، وفي حاجته إلى التقنية نفسها، وفي أنه سيطلب إلى الرجل الذي اعترف قبل قليل أن يشارك في إنقاذها. لا توجد براءة يجدها في نقل الملف إلى جهة أخرى، ولا بديل يخرج من غضبه فورًا.

اتصل بالمنزل.

أجابت نور. قالت إن المعلمة أرسلت نشاطًا يستطيع الجميع إنجازه إلا هي، لأن الجزء الممتع يحتاج إلى تشغيل الوصلة في نمط لم يسمح به الطبيب

بعد. قالت ميرا إنها تستطيع إعداد نسخة يدوية، فردت نور بأنها تعرف كيف تقص الورق منذ كانت في الرابعة.

«هل تريدين أن أكلم المدرسة؟»

«أريد أن أصلح جسدي، لا أن تغيروا كل شيء كي لا ألاحظ.»

كان الهاتف عند أذنه، والغرفة أمامه خالية. لم يعد يستطيع أن يفصل هذه الجملة عن جملة ليث.

قال: «أنا عائد.»

«وبعدها؟ تأتي، ثم... ماذا نفعل بعد أن تأتي؟»

الفصل الثالث عشر

أنت تتحدث عنا

صنعت نور الدرج أكبر من الباب.

رأت الخطأ بعد أن جف الغراء، وكان يمكن أن تنزع القطعة وتعيدها، لكنها تركتها. في البيت الحقيقي أيضًا أشياء لا تتسع لما يفترض أن يمر منها. يكبر الناس أولًا، ثم يبدؤون في إخبارك أن تنحني.

وضعت المجسم على الطاولة قرب النافذة. منذ عودتهم من المنشأة مضى نحو أسبوعين صارت أيامهما متشابهة بما يكفي لتضيع: قياس صباحي، درس قصير، راحة لا تشعر دائمًا بالحاجة إليها، ثم قياس آخر. تتحسن الأعراض حين تخفض النشاط؛ يقول الجميع هذا كأنه خبر سعيد كامل. كانت تسمعه على نحو آخر: تستطيعين أن تبقي بخير إذا عشت أقل.

لم تقل الجملة لأبيها. تعرف كيف سيشرح أن الراحة مرحلة، وأنها لا تُختصر فيها، وأن الفريق يعمل. كان صحيحًا. كل الأشياء التي تمنعها صارت صحيحة في الوقت نفسه.

في أحد تلك الأيام زارتهم هالة من السكن المؤقت الذي نُقلت إليه. وصلت في عربة أتاحوا لها ركوبها مجانًا، ومعها كيس خبز اشترته من مخبز لا تعرف صاحبه. قالت إن الخبز جيد، ثم ظلت تشرح لماذا لم تشترِ منه النوع الذي تريده.

كان في المسكن مصعد، وحمام لا تحتاج إلى شد الباب فيه، وجرس تستجيب له المساعدة أسرع من جيران شارعها. قالت نور إن هذا أفضل لركبتها. أجابت هالة: «نعم»، ثم سألت أين تضع عكازها.

لم تجد له موضعًا في الغرفة لا يقطع الطريق. وضعته أخيرًا إلى جانبها على الأريكة، كأنها تحجز مقعدًا لمن جاء معها.

بعد الغداء طلبت إلى نور أن تريها الرسم. جلستا وحدهما، وميرا في المطبخ. كان باستطاعة نور الآن أن تسأل عن كل ما لم يخطر لها في المكالمة، لكنها بدأت بالخيط الذي لا يثبت في إطار النافذة. أخرجت هالة من جيبها دبوسًا قديمًا، وثبتت الطرف به.

«لا تتركيه حين تستعملين الغراء. ستنسينه ويصدأ.»

سألتها نور: «هل كنت تجيدين صنع الأشياء؟»

«كنت أجيد إخفاء الموضع الذي أخطأت فيه.»

فكرت نور في الاسم المخفي، ثم خجلت من الفكرة. لاحظت هالة سكونها ولم تتظاهر بأنها لا تفهم.

«يمكنك أن تغضبي مني أيضًا.»

«غضبت.»

«جيد.»

«لا تقولي جيد كأن الغضب درس.»

وضعت هالة الخيط. «حسنًا. ليست لدي كلمة أفضل الآن.»

أراحها ذلك. مدت علبة الألوان بينهما، وطلبت أن تختار هالة لونًا للجدار. اختارت الأصفر، فرفضته نور لأنه يجعل البيت يشبه قالب حلوى. قالت هالة إن البيوت الحقيقية أيضًا قد تشبه الحلوى إذا أخطأ من دهنها. اختلفتا على الدرجة حتى خرجت ميرا تسألهما إن كانتا تريدان الشاي.

في نهاية الزيارة انحنت هالة لتأخذ عكازها، فتألمت. أمسكت نور بطرفه وناولتها إياه قبل أن تقف. كانت امرأة تعرفها تحتاج إلى عصا قريبة.

بعد أيام سمح التقييم للسكان الراغبين بالعودة إلى بعض البيوت تحت المتابعة، مع إبقاء ترتيبات المغادرة جاهزة. عادت هالة. اعترضت ميرا، ثم ذهبت معها لترفع الصناديق عن الأرض وتضع ما قد تحتاجه في حقيبة واحدة. سألها يونس إن كانت تفهم أن الإذن مشروط، فقالت إن كل ما منحوه لها في ذلك الشهر كان مشروطًا إلا رغبتها في بيتها.

منذ ذلك اليوم صار هاتف ميرا يصدر نغمة مختلفة لإخطارات الساحل. حفظتها نور كما حفظت نغمة جهاز مراقبتها. كان في البيت الآن أكثر من طريقة لانتظار الخلل.

أرسلت سهى مقطعًا من الورشة. المظلة صارت فوق الممر، والناس يعبرون تحتها بمشيتهم البطيئة. عند أول المطر ارتفعت القطع المتحركة، وثبت طرفها قبل أن تصل امرأة تحمل أكياسًا إلى موضع انقطاع الغطاء القديم. في آخر المقطع ظهر آدم، يلوح لهم أن يُبعدوا آلة التصوير عن وجه الرجل الذي جاء يجرب الممر. ضحكت سهى، فانتهى التسجيل على ضلع من المعدن.

أعادته نور ثلاث مرات. في الثالثة لم تنظر إلى المظلة؛ نظرت إلى الموضع الفارغ الذي كانت تستطيع أن تقف فيه.

كتبت: نجحت.

حذفت الكلمة، وكتبت: القطعة الصغيرة عند المفصل الأيسر تبدو أضيق.

جاء الرد بعد دقيقة: آدم قال إنها قطعتك. ننتظر أن تجربيها.

أغلقت الشاشة. كان في الدعوة لطف يجعل الغيرة أسوأ.

في الغرفة المجاورة كان أبوها يتحدث إلى رجل لا تعرفه. كان صوته أبطأ من صوت ليث، ويترك جمل يونس تكتمل. خرجت لتبحث عن المقص فسمعت كلمة مدرسة، ثم أناس لا يملكون التكيف، ثم تراجع البشر.

بقيت عند رف الكتب.

قال الرجل إن الخدمات تُنقل إلى حيث يحتاجها عدد أكبر، وإن الحفاظ على كل شكل قديم من الحياة ليس ممكنًا بالقدر نفسه.

قال أبوها: «أنا لا أطلب تثبيت المدينة. أطلب ألا تصبح الخيارات التي تقولون إن الناس يملكونها مستحيلة في الحياة اليومية.»

وجدت المقص، لكنها لم تأخذه.

«الأعداد تتراجع»، قال الصوت. «وتتغير طبيعة الطلب.»

«الأعداد تتراجع لأن شروط البقاء تتراجع أيضًا. كل مرة نغلق مدرسة أو ننقل عيادة نجعل الاختيار الذي نريد قياسه أصعب.»

كانت نور تعرف أنه يتحدث عن الحي وقرار نقل بعض الخدمات. سمعته يناقش هذا قبل أن تمرض. الجديد أنه قال «البشر» مرة أخرى، وقالها الرجل الآخر كأنهما يعرفان من يقصدان، وكأن نور لا تحتاج إلى أن تكون في الغرفة حتى يُحسب لها مكان.

انتهى الاتصال. خرج يونس فوجدها عند الرف.

«كنت أبحث عن المقص»، قالت.

نظر إليه، قريبًا من كفها، ثم إليها.

«هل تحتاجين مساعدة؟»

«هل كنت تتحدث عني؟»

لم يقل فورًا لا، وهذه الوقفة نفسها زادت غضبها.

«كنت أتحدث عن خدمات الحي.»

«قلت إن البشر يتراجعون.»

«نعم.»

«وأنا أين أذهب في هذه الجملة؟»

كان يمكن أن يرى أنها غاضبة فيعتني بالغضب بدل السؤال. انتظرت، تراقب كيف سيختار.

جلس على المقعد المقابل للطاولة.

«تعالي نجلس.»

«أنا واقفة جيدًا.»

«حسنًا، ابقي واقفة.»

بقي جالسًا. أعجبها أنه لم يقف ليجعلها تجلس؛ أغضبها أن انتباهه لهذه التفاصيل يجعل الرد عليه أصعب.

قال إنه يتحدث عن جماعات تتناقص قدرتها على العيش كما اعتادت، وعن مدن تتغير بحيث لا يبقى فيها مكان متاح بالقدر نفسه لأجساد مثله. قال إن الحقوق قد تبقى مكتوبة فيما يصبح استعمالها متعبًا ومكلفًا.

«وأجساد مثلي تجعل ذلك يحدث.»

«ليست بهذه البساطة.»

«لكن أجسادنا... قلت إن المدينة تتغير بسبب ما نحتاجه.»

دخلت ميرا من المطبخ تحمل منشفة. رأت المقص في موضعه، ونور واقفة، ويونس جالسًا. وضعت المنشفة وبقيت قرب الباب.

قال يونس: «أنت ابنتي. وأنت شخص له حق أن يعيش بطريقته، لا نتيجة أحاسبها على مدينة تتغير.»

«لم أسألك إن كنت تحبني.»

فتح فمه، فسبقته إلى الكلام.

«كل مرة تقول إنني ابنتك. أنا... لا أسأل عن ذلك. هل تتمنى أن يكون العالم أقل شبهًا بي؟»

كان السؤال أقسى حين سمعته كاملًا. لم تعد تستطيع سحبه. رأت أثره في وجه أبيها، ثم خافت أن يجيب كي ينقذها من قولها.

مرّت عربة في الخارج. حملت أسطوانات طويلة إلى الجهة الجديدة من الساحل. استطاعت أن تسمع تثبيت الحمولة عند المنعطف؛ كان الناقل يبطئ أمام بيتهم احترامًا للحد المطلوب في الشارع. حتى هذا الاحترام بدا لها الآن شيئًا قد يستعمله أحد في حجة.

قال يونس: «أتمنى أن يكون فيه مكان لك ولي. أخاف أن يضيق المكان المتاح لي ولمن يشبهونني حتى يختفي. وأعرف أن أشياء كثيرة تجعلك تعيشين أفضل تشارك في هذا التغيير.»

لم يقل أكثر. انتظرت نور التفسير الذي يزيل الوخزة، فلم يأت.

«إذن هذا صحيح.»

«صحيح أنني خائف. ليس صحيحًا أنك مذنبة.»

«لكنني سأشعر أن عليّ الاعتذار كلما أردت شيئًا جديدًا.»

قالت ميرا من موضعها: «لا يجب أن تفعلي.»

التفتت إليها نور.

«وأنت؟ هل لا تخافين؟»

اقتربت ميرا من الطاولة. «أخاف أشياء كثيرة. أخاف أن يطلب مني أحد أن أختار أي جزء من حياتي يستحق أن أبقى معه. أخاف على أبيك، وعليك. لكن خوفي ليس حكمًا على ما تريدين.»

كان أبوها ينظر إلى أمها. لم تعرف نور إن كان بينهما حديث آخر يمر داخل هذا الحديث؛ منذ الاسم الذي أخبروها به صارت تنتبه إلى المسافات التي لا يشرحانها.

قالت: «هل تتمنيان أحيانًا لو لم تنجباني هكذا؟»

رفع يونس رأسه بسرعة.

ثم توقف.

عرفت أنه سمع الفخ في السرعة؛ النفي الجاهز قد يعني أنه لم يفهم ما تسأله.

«أتمنى أحيانًا لو عرفت أكثر مما عرفت قبل أن نقرر»، قال. «كي أستطيع أن أحميك من أشياء لم أفهمها. لكنني لا أستطيع أن أتمنى طفلة أخرى ثم أسميها أنت.»

جلست نور، لا لأن أحدًا طلب منها، بل لأن ساقيها تعبتا. أبقت المقص بعيدًا عن يدها. في الجملة ما أراحها، وفيها ما لم يرحها؛ كان أبوها يتكلم بصدق لا يستطيع أن يجعل كل أطرافه ناعمة.

«لا أريد أن أصبح مثلك»، قالت.

لم تكن قد قصدت قولها بهذا الشكل.

«أعرف أنك لا تريدين أن تكوني طبيبة.»

«لا. أقصد... أنت تستطيع أن تعيش من غير أن تفكر في التأخر بين صوتك ووجهك. أنا لا أستطيع. حين أقول أريد العلاج، لا أقول إنني أفضل منك.»

طال صمته، ثم قال: «كان يجب أن أسمع هذا قبل أن تحتاجي إلى شرحه.»

سحبت المجسم نحوها، وأرته الدرج الكبير.

«كنت أريد أن يصل الرجل إلى البيت. ثم اكتشفت أن الباب صغير.»

نظر إلى الدرج، ثم إلى فتحة الباب.

«نغير الباب.»

«ستكبر الفتحة على البيت.»

قاسها يونس بطرف القطعة. «نجرّب أولًا.»

بقيت نور تريد أن تثق أن خوف أبيها لن يصبح توقيتًا يؤخر قرارها. وبقيت ترى في ميرا قدرة على العيش بين عالمين لا تعرف ثمنها. لكن الجمل صارت موجودة في البيت؛ لن يضطروا بعد ذلك إلى التعامل معها كأنها صوت من الغرفة المجاورة.

في المساء جاء آدم.

حمل علبة فيها قطعتان صغيرتان للمجسم، ونسخة من تعليق تقني أرسله الفريق إلى الطبيبة. قال إنه راجع ما أتيح له، وإن بعض الأجزاء يمكن صيانتها بوسائل مستقلة إذا اختيرت واجهة تسمح بذلك، لكن التدخل نفسه يحتاج إلى المنشأة وإلى فريق يعرف تكوين نور.

قالت: «إذن لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا هنا.»

«نستطيع أن نفعل أشياء. هذا الشيء تحديدًا لا أستطيع أن أعدك به في الورشة.»

كرهت الجواب، واحترمته من حيث لا تريد.

جلس مع أبيها عند الطاولة. عرضا الشاشة حيث تراها، وتوقفا عندما سألت. كان هناك فرق بين واجهة تُضبط لحالتها الحالية وبين مسار يسمح بتكيف أوسع لاحقًا، وفروق في المتابعة والمخاطر. لم تكن الخيارات علبًا مستقلة يختار المرء إحداها؛ بعض ما يجعل العلاج أنسب لها يجعل فصلها عن نظامه أصعب.

سألت آدم عن الذين أصلحوا المظلة. هل سيحتاجون إلى الشركات دائمًا؟

قال: «نحاول أن يجعلنا كل إصلاح أقل اعتمادًا. لكن المواد لا تظهر لأننا كتبنا دليلًا جيدًا.»

«وحين تستطيعون صنعها؟»

«سنحتاج إلى أشخاص وماء وطاقة ومكان. سنكون مستقلين عن جهة أكثر، لا عن العالم.»

كانت تريد العالم. هذه هي المسألة التي يصعب شرحها لأبيها؛ لا تخاف ارتباطها به كما يخاف هو. تخاف أن تبقى وراء الباب وهي تعرف أن في الداخل مكانًا يمكنها بلوغه.

أخرج آدم القطعتين. واحدة لتوسيع فتحة المجسم، وأخرى مائلة تخفض ارتفاع الدرجة من غير أن تسد الشارع الذي رسمته. جربت الثانية، فاستقر فيها شيء.

«لماذا صنعت اثنتين؟»

«لأنني لم أعرف ما تريدين أن يبقى.»

اختارت القطعة المائلة، ووضعت الأخرى في العلبة. قربها يونس من نافذة المجسم، وقرّب الغراء. أبعدته نور حتى تستقيم القطعة.

بعد مغادرة آدم طلبت نور أن تكمل وحدها. بقي والداها في المطبخ، قريبين بما يكفي لتسمع صوت كأس يوضع، ثم حديثًا خافتًا لا تستطيع تمييزه.

حدث الاضطراب وهي تنظر إلى خط الغراء.

رأت القطعة تميل، ثم رأتها ثابتة. لم تسقط. لم يتكرر الشيء أمامها كما حدث في الورشة؛ هذه المرة تباعدت تفاصيله. الحافة في موضع، وإحساس إصبعها في موضع آخر، والصوت الذي قالته لا يصل إلى داخلها كما تعرفه.

نادت أمها.

سمعت ميرا النداء قبل أن تسمعه نور، وهذا أخافها أكثر من الرؤية.

أبعدت نفسها عن الطاولة كما دُرّبت، وبقيت جالسة. حاولت النظر إلى النقطة الثابتة على الجدار، لكنها صارت علامتين، ثم علامة لا تستطيع أن تقسم المسافة بينها وبين عينها. وصل يونس إلى جانبها ولم يلمسها فجأة.

«أنا هنا. سأخفض الضوء.»

رأت المصباح يخفت. أحست بالمقعد تحتها على دفعات، كأن جسدها يتلقى أثقالًا صغيرة بدل ثقل واحد.

قالت: «لا تسألني كم إصبعًا.»

«لن أسألك الآن.»

تكلمت ميرا مع الفريق عبر الاتصال المباشر. سمعت نور كلمات قصيرة لا قصصًا طويلة: بداية منذ دقيقة، واعية، جالسة، لا سقوط. كانت هي التي علمتهما أن يتركا وصف ما تشعر به لها، فأخذت الجهاز حين استطاعت.

«الصورة لا تبتعد. الأشياء لا تصل معًا.»

أعاد صوت الطبيبة العبارة كي يتأكد، ثم طلب منها أن تواصل التنفس على راحتها وألا تحاول اختبار الخلل بالحركة. نفّذ يونس ما أوصى به الفريق من ضبط مؤقت عبر الوحدة المخصصة، وبقي الاتصال مفتوحًا حتى وصلت الرعاية المحلية.

لم تفقد الوعي. عاشت الدقائق كلها، وهذا ما جعلها أطول. لم يكن هناك ظلام تستيقظ منه على خبر أن ما حدث انتهى؛ كانت موجودة بين وجوه أهلها التي تعرفها، وتنتظر أن تعود المسافات إلى طريقتها.

وصلت مسعفة ومعها روبوت يحمل المعدات. انخفضت المنصة حتى صار الفحص في مستوى مقعد نور. سمعت أباها يسأل عن النقل، ثم يصمت حتى تستكمل المسعفة تقييمها. كان قادرًا على قراءة بعض ما تعرضه الشاشة؛ تمنّت ألا يكون قادرًا، كي لا ترى المعنى يصل إليه قبل أن يقوله أحد لها.

انحسرت العلامة الثانية. بقي صداع وثقل في المعدة، وإرهاق يشبه ما يأتي بعد بكاء طويل. لم تكن قد بكت.

قالت: «هل يمكن أن يحدث وأنا نائمة؟»

أجابتها المسعفة بما يعرفه الفريق عن المراقبة وما يستدعي التنبيه، من غير وعد مطلق. ثم قالت إنهم سينقلونها إلى وحدة المتابعة القريبة الليلة، وإن المنشأة ستراجع التسجيل لتحديد الموعد الأنسب للتدخل. لم يعد جدول الفحوص كما كان صباحًا.

سألت نور: «هل تأخرنا؟»

رأت يونس يفتح فمه ثم يترك الجواب للطبيبة على الشاشة.

«لم نتجاهل شيئًا كان يفرض التدخل قبل الآن. هذا تغير جديد، ونتصرف بناء عليه.»

التقطت نور الجملة كما يتلقّى المرء مقبضًا في درج مظلم. لم تجعل المستقبل آمنًا، لكنها منعت الماضي من التحول كله إلى اتهام.

عندما تحسن جلوسها طلبت حذاءها. كانت ميرا قد وضعته في الحقيبة، فأخرجته. هذا هو العمل الآن: أن تقبل كرسي النقل، وأن تذكر اسمها، وأن تقول إن الضوء يزعجها قليلًا.

عند الباب التفتت إلى المجسم. القطعة المائلة ما تزال في مكانها، والغراء لم يجف تمامًا.

«لا تحملوه هذه المرة»، قالت.

قال يونس: «يمكن أن يبقى حتى نعود.»

لم تعد كلمة العودة بسيطة كما كانت حين غادروا إلى الضفة الأخرى. رأت أمها تنظر إلى النافذة الحقيقية قبل أن تطفئ الضوء، ثم خرجت وراءهم.

في وحدة المتابعة، بعد أن هدأت الحركة حول السرير، طلبت نور أن تتكلم إلى أبيها.

جلس قريبًا، وترك لها أن تبدأ. في وجهه تعب جعل لحيته أشد وضوحًا. لم يبدُ كبيرًا، بل قابلًا للتعب بطريقة تخاف أن يظنها هي نقصًا فيه.

قالت: «لا أريد أن أكون سببًا في نهاية عالمك.»

أحنى رأسه، وبقي يسمع.

«لكنني لا أستطيع أن أبقى مريضة كي أساعده على البقاء.»

قال: «لن أطلب منك ذلك.»

«أريدك أن تتذكر أنك قلتها، حين نخاف.»

مدّ كفه على الغطاء، قريبًا منها. أخذتها عندما عادت المسافة إلى طبيعتها.

بعد قليل وصلت رسالة من المنشأة. راجع الفريق التسجيل الأول، ويريد تقييمًا مشتركًا في الصباح لترتيب التدخل في أقرب نافذة آمنة، مع استمرار الرعاية المحلية واستعداد النقل الطبي. قرأها يونس، ثم ناولها إلى نور بدل أن يلخصها من عنده.

نظرت إلى الموعد، ثم إلى أبيها.

لم تقل هل سنذهب.

قالت: «ماذا يلزمني أن أعرف قبل أن أوافق؟»

الفصل الرابع عشر

سقوط آخر أمل

اختارت سارة اسمًا لطفلها في الليلة التي سبقت اليوم الذي صار فيه غير صالح لآمال الآخرين.

لم تعرف ذلك حين اختارته. كانت تبحث عن اسم تستطيع أن تناديه به إذا تأخرت العربة، وإذا لم يرد من الغرفة، وإذا أفسد شيئًا وأرادت أن تغضب من غير أن يتحول نداؤها إلى خطاب. قالت لأنس: «*بشير*.»

كرر الاسم بصوت منخفض، ثم قال إنه يحب أن يكون الاسم قصيرًا.

«لأنك ستناديه كثيرًا؟»

«لأنني سأنساه في البداية وأقول تعال هنا.»

ضحكت، ثم تحرك الطفل، كأنه يعترض على احتمال أن يعيش أيامه الأولى بلا اسم. وضع أنس راحته على موضع الحركة. كان قد تعلّم أن ينتظر؛ بعض الحركات تتوقف حين يريد أحد أن يراها.

في الصباح اتصلت أمينة. قالت إن نتيجة التأكيد وصلت، وإنها تستطيع مقابلتهما في الموعد المتفق عليه.

سألت: «هل هناك ما يستدعي أن نأتي الآن؟»

«لا طارئ في النتيجة وحدها. أريد أن نشرحها معًا، وأن نراجع ما تعنيه وما لا تعنيه.»

أخذت سارة معطفها رغم دفء النهار. منذ دخلت الفحوص حياتها صارت الغرف باردة قبل أن تصل إليها.

في الطريق مرّا بجلال.

كان عند باب بيت تُنقل منه صناديق إلى مركبة كبيرة. رأته يشرح لرجل مسن كيف يضع علامة على صندوق كي يصل إلى غرفته الجديدة. لم يرَهما في البداية، ففكرت سارة أن تواصل. ثم رفع رأسه وجاء إليهما، يحمل قلمًا عريضًا بلا غطاء.

«سحبت الصفحة الدعوة»، قال.

«بقيت الصور عند الناس.»

«طلبنا حذفها.»

«كان يمكنك أن تنتظر موافقتي قبل أن تطلب من الناس حذف رفضي.»

قبِل العبارة من غير اعتراض. قال إنه أخطأ حين سمح بالتحضير على أساس احتمال، وإنه لم يأمر بالنشر، لكنه مسؤول عمن نشر باسمه. كانت هذه أول مرة تسمع منه اعتذارًا لا تأتي بعده دعوة أخرى.

أخبرها أن اللقاء أُجل، وأنهم سيكتفون بمساعدة الأسر المنقولة في الوقت الحالي. لم تسأله إن كان سبب التأجيل اعتراضها أو الإخطارات الجديدة.

قال أنس إن عندهما موعدًا. ابتعد جلال عن الطريق، ثم سأل سارة إن كانت بخير.

«سأعرف أكثر بعد قليل.»

عاد إلى صندوقه.

في العيادة كانت أمينة قد أعدت كرسيًا يسند ظهر سارة جيدًا. جلس يونس إلى جانبها بعد أن عاد من وحدة نور لساعة محددة؛ عرفت ذلك حين سألت عن ابنته. قال إن حالتها مستقرة تحت المراقبة، وإن الفريق يرتب الخطوة التالية.

قالت أمينة: «الفحص التأكيدي يثبت أن الجنين يحمل التعديل الذي تتبعناه في خط العائلة.»

وضعت العبارة أولًا، بلا ممر طويل من التمهيد.

بقيت سارة تسمع جهازًا في الغرفة المجاورة. كان يصدر نغمة كل بضع ثوان، تعرف أنها قد تكون تذكيرًا بسيطًا، لكنها أرادت لو يسكت.

«هو أيضًا.»

«نعم.»

قال أنس: «والتأكد من أن العينة تخصه؟»

شرحت أمينة أنهم أعادوا الفصل والتحليل بطريقة مستقلة، وقارنوا مواضع تميز المادة الجنينية عن مادة الأم، وأن النتيجة لم تعد استنتاجًا من عينة سارة وحدها. وبيّنت أين كان الشك وكيف ضاق.

«هل سيولد مريضًا؟» سألت سارة.

«لا يظهر في فحصه الآن ما يدل على ذلك. سنواصل متابعة النمو، ونضيف ما يلزم لتاريخه العائلي.»

«وهل يحتاج إلى أجزاء صناعية؟»

«لا يفرض وجود التعديل ذلك تلقائيًا. وظيفته وتاريخه شيء، وما قد يحتاجه الطفل فعلًا شيء نحدده من حالته.»

أعادت سارة السؤال بصيغ أخرى. هل تغير الولادة؟ هل هناك دواء؟ هل فعلت شيئًا؟ أجابتها أمينة حتى توقفت، ثم طلبت منها أن تقول ما فهمته.

قالت: «أنه لم يكن كما كتبوا. وأن هذا لا يعني أنني فقدته.»

تغير وجه يونس عند الجملة الثانية.

«لم تفقديه»، قال.

أحست سارة أنها كانت تحتاج إلى سماعها منه، مع أنها تعرف أنه لا يضمن المستقبل. في الأيام السابقة صار الطفل ينسحب من بطنها إلى عبارات الناس: آخر فرصة، أصل سليم، دليل على إمكان العودة. الآن انهارت العبارات، وبقي فيها ثقله. للمرة الأولى منذ بدأت الضجة بدا الحمل خاصًا بها قليلًا.

أرادت أن تبكي. لم تعرف هل تبكي خيبة لم تكن تعترف بأنها حملت جزءًا منها، أم ارتياحًا لا يليق بالخبر كما سيسمعه الآخرون. كانت قد وجدت في فكرة أن طفلها غير معدل عزاءً صغيرًا؛ اعتقدت أنها استطاعت أن تمنحه شيئًا بسيطًا في عالم يطلب التعقيد. لم تكن بريئة تمامًا من الرمز، وإن رفضت أن يملكه جلال.

قالت ليونس: «أنا أيضًا صدّقت بعض الكلام.»

«من حقك أن تتخيلي حياة لابنك.»

«لكنني أحببت أن يكون دليلًا، قليلًا. كنت أقول إنني لا أريد ذلك، ثم أرتاح حين أفكر أنه مختلف.»

قال إن المعرفة الجديدة لا تطلب منها أن تحاكم كل شعور سابق في جلسة واحدة.

رفعت عينيها إليه.

«وهذا ما تقوله لنفسك بشأن نور؟»

بدا السؤال شخصيًا أكثر مما قصدت. همّ أنس بالتدخل، فأشارت إليه أن يتركها.

قال يونس: «أحاول.»

كان في الجواب ما جعلها تثق به أكثر من لو قال إنه تجاوز الأمر.

ناقشوا الخطوات التالية. الرعاية تستمر، وتُضاف متابعة مناسبة للتاريخ العائلي، وتُحفظ النتيجة بحيث تستطيع الأسرة الوصول إليها من غير أن تُستعمل مادة دعائية. أما البرنامج القديم، فستتابعه جهة مستقلة ضمن نطاق يسمح بحماية العائلات وإبلاغها بما يخصها.

قالت سارة: «أريد تصحيح ما نُشر.»

سألتها أمينة عن مقدار ما تريد كشفه. تستطيع أن تقول إن وصف الحمل غير المعدل لم يكن مثبتًا، وإنها لم توافق على استعمال صورتها، من غير أن تعرض تفاصيلها الوراثية للناس.

فكرت سارة. كان من حقها أن تصمت، لكن صمتها سيترك الجنين يعمل في الحكاية التي صنعتها الجمعية. أرادت أن تقطع الوظيفة عنه، لا أن تسلمه لوظيفة أخرى.

«أريد أن يعرفوا أن الوصف غير صحيح. والتفاصيل تبقى هنا.»

كتبوا معها صياغة قصيرة. قرأتها بنفسها، وحذفت جملة تعتذر عن أي سوء فهم. لم يكن سوء الفهم قد صنع نفسه.

قالت: «لا أريد أن أعتذر لأن طفلي لم يوافق توقعاتهم.»

في الاستقبال اتصلت بأمها قبل أي شخص آخر. قالت النتيجة كما فهمتها: إن التعديل انتقل، وإن الطفل سيستمر في المتابعة، وإنهم لا يرون من النتيجة وحدها سببًا لتغيير الرعاية العاجلة.

صمتت الأم، ثم سألت إن كانت سارة قد أكلت.

هذه المرة لم يغضبها السؤال.

«بعد قليل.»

«تعالي عندي. ما غاديش نهضر إلا بغيتي نسكت.»

تعلقت سارة بالجملة أكثر مما توقعت. قالت إنها ستأتي بعد أمر واحد.

أرسلت التصحيح إلى جلال وطلبت منه نشره في الموضع نفسه الذي استُعملت فيه صورتها، من غير إضافة تعليق عن معنى الطفل أو مستقبل البشر. اتصل بدل أن يكتب.

«هل يمكن أن نتكلم؟»

قالت: «نحن نتكلم.»

«أقصد وجهًا لوجه.»

لم ترغب في الذهاب إلى مقر الجمعية. اختارت الساحة القريبة من العيادة، حيث يوجد مقعد يمكنها الجلوس عليه، وحيث لا تكون ضيفة في

حجة أحد. جاء أنس معها، وبقي على المقعد المجاور حتى لا يتحول الحديث إلى رجلين يتكلمان عنها.

وصل جلال يحمل الهاتف مفتوحًا على التصحيح.

«ربما من الأفضل أن ننتظر.»

كانت قد توقعت ذلك، ومع ذلك أوجعها.

«انتظرنا التأكيد. وصل.»

«مختبرات تعمل بأدوات من الجهات نفسها. قد يكون معنى التعديل مختلفًا...»

«هل ستنشر التصحيح؟ لا أطلب تفسير التحليل. هل ستنشره؟»

جلس على الطرف الآخر من المقعد. بدت عليه قلة النوم، ورأت بقعة طلاء على حذائه. ربما أمضى الصباح في مساعدة الناس حقًا. لم تجعل هذه المعرفة صوته أقل ضغطًا.

«هناك أسر تعلقت بالخبر.»

«أنا واحدة من الأسر. تعلقت بطفلي.»

أعاد قراءة السطر القصير. قال إن الخصوم سيستعملونه ليقولوا إن الطريق أغلق وإنهم كانوا على حق. قالت: «وماذا أفعل أنا؟ أتركهم يكررون الخبر؟»

«ليست كذبة إذا كنا لم نعرف.»

«لكننا عرفنا الآن. وأنت ما زلت تطلب مني الانتظار.»

أبعد الهاتف عن نظره. كان الأسوأ أنه بدا منكسرًا، وأن على سارة الآن أن تقاوم رغبتها في مواساته بما لا تملك.

قال: «حين مات سامر، قالوا إن الحالة استثنائية. ثم جاءت أسر أخرى. لم يكن أحد يكذب جملة كاملة. كانوا فقط يقسمون الحقيقة حتى لا يحملها شخص واحد.»

«إذن لا تفعل هذا بي.»

رفع رأسه.

مرت بينهما امرأة تحمل طفلة نائمة، ودفع روبوت مقعد رجل إلى ظل شجرة. انتظر الرجل حتى تجاوزته المرأة قبل أن يطلب من الجهاز التحرك. وجدت سارة نفسها تنظر إليه كي لا تترك لجلال كل مساحة وجهها.

قال أخيرًا: «سأنشر أن المشاركة لم تكن مؤكدة.»

«وأن الوصف غير صحيح.»

«دعيني أراجع العبارة.»

«هل سأرجع إليك بالسؤال نفسه بعد أن يولد؟»

نهضت ببطء. جاء أنس إليها ولم يسأل إن انتهيا. كان يعرف أن النهاية لا تحتاج موافقة الطرف الآخر.

عند باب العيادة رن هاتفها من جديد. كانت أمينة؛ وصل طلب من مكتب ليث لعقد حديث قصير معها، بإذنها، بعد وصول النتيجة. سألت سارة عن الغرض. قالت أمينة إنهم يريدون شرح ما يتصل بالمتابعة، وإنها ستكون حاضرة إذا رغبت.

عادت إلى الغرفة. لم تعد تملك طاقة لحديث آخر، لكنها خافت أن يكون في الرفض ما يؤخر شيئًا يخص الطفل. التقطت أمينة ترددها وقالت إن الموعد يمكن تأجيله ولا يؤثر في الرعاية. عندئذ فقط وافقت؛ لأنها استطاعت أن ترفض.

ظهر ليث على الشاشة. بدأ بالاعتراف الذي سمعته من أمينة: لم يوضح البرنامج القديم بعض احتمالاته كما يجب، وستصل الأسرة إلى ما يخصها من معلومات.

ثم تحدث عن أن الخبر قد يخفف الوهم القائم على فصل حاد بين بشر تقليديين وأجساد تغيرت، وعن أن معظم الاستمرارية تعبر حدودًا لا ينتبه إليها الناس.

قالت سارة: «هل تريد أن تستعملوا حالتي لشرح ذلك؟»

توقف، ثم قال إن مشاركة مجهولة الهوية قد تساعد في النقاش، إن وافقت لاحقًا.

«لا.»

«لن نستخدم اسمك.»

«ولا قصتي.»

تدخلت أمينة لتؤكد أن الرفض يشمل الاستعمال العام، وأن المتابعة الطبية المستقلة المتفق عليها لا تمنح إذنًا آخر. وافق ليث، لكنه قال جملة بقيت في الغرفة:

«التحول يحدث بالفعل. النتيجة تجعل ذلك أوضح.»

شعرت سارة بالغضب يعود كاملًا.

«أمامي رجل يقول إن طفلي يجب أن يثبت أن التحول يمكن إيقافه، وأنت تقول إنه يثبت أن التحول حدث. هل يمكن أن تتركا له شيئًا يفعله حين يولد؟»

لم يرد ليث.

«اسمه بشير»، قالت. «لم أسمّه لكي يبشركم بشيء.»

نظر أنس إليها. كان قد سمع الاسم في المطبخ، هادئًا وقابلًا للنسيان. الآن صار له وزن شخص تدافع عنه قبل أن يصل.

انتهى الاتصال بعد مراجعة ما يحتاجه الحمل فعلًا. أعطاها يونس رقمًا للمناوبة التي ستتولى المتابعة إذا اضطر إلى السفر مع نور، وعرّفها إلى الطبيبة التي سترافق أمينة في الأيام المقبلة. قالت إنها تعرف أن عليه أن يذهب.

«لا تحتاج إلى أن تختار أي طفل يستحق خوفك أكثر.»

أخذ الجملة بصمت. لم تكن هدية تصلح لإصلاح عجزه، لكنها كانت شيئًا يستطيع حمله في تلك الليلة.

خرجت سارة إلى أنس. لم يُنشر التصحيح بعد؛ جاء إشعار يقول إن الدعوة الأصلية أُزيلت من الصفحة، أما النص الجديد فما يزال قيد المراجعة. أرسلت صياغتها إلى الدائرة التي وصلتها منها الصورة، مع طلب واضح بألا يُضاف إليها تفسير. لم تستطع أن تسحب كل نسخة، لكنها استطاعت أخيرًا أن تضع كلامها بجوارها.

ذهبا إلى بيت أمها.

في الطريق اشتد الهواء، فالتصق قماش المعطف ببطنها. توقفت مركبات نقل عند أول الشارع، وانتظر أشخاص يحملون حقائب صغيرة أمام لوحة توزيع المساكن المؤقتة. كانت الإخطارات تتسع إلى بيوت جديدة. قال أنس إنهما يمكن أن يسلكا طريقًا أعلى عند العودة.

لم تعد تريد أن تفكر في العودة قبل الوصول.

في بيت الأم كان الغداء قد برد قليلًا. سخنته المرأة من غير أن تسأل عن جلال أو ليث أو السلالة. وضعت أمام سارة طبقًا، ثم نظرت إلى بطنها وقالت: «بشير؟»

قال أنس: «أخبرتها في الطريق.»

كررت الأم الاسم، فبدا مختلفًا في فمها؛ نداء يمكن أن يأتي من مطبخ، لا من منصة.

أكلت سارة. حين تحرك الطفل توقفت لتدع أنس يشعر به، ثم واصلت الطعام. على الشاشة الصامتة في الطرف الآخر من الغرفة مرت أخبار الساحل، وصورة آلة ترفع حاجزًا عند منشأة جديدة. لم تطلب تشغيل الصوت.

بعد الغداء وصلها من يونس رد قصير على سؤالها عن نور: استقرت الليلة، لكن موعد القرار تقدم. شكرت له الرد، ثم تركت الهاتف مقلوبًا.

كانت أمها ترتب الأطباق، وأنس يحاول أن يمنعها من حمل الصينية كلها. بدأا يختلفان على شيء صغير، فاستمعت سارة إليهما بارتياح غريب. هذا أيضًا ما تريد أن يولد الطفل فيه: أصوات لا تطلب منه معنى قبل أن ينطق.

وضعت كفها فوق الموضع الذي تحرك فيه.

لم يكن آخر أمل.

كان ابنها، وكان عليها أن تحميه من الذين لن يسامحوه على ذلك.

القسم الثالث

ما نختار إنقاذه

الفصل الخامس عشر

الماء عند العتبة

كان الماء يدخل بيت هالة من تحت الباب المغلق، رقيقًا في البداية، حتى خُيّل إلى يونس أن البلاط نفسه يعرق.

وقف في المدخل يحمل حقيبة لم يفتحها. عند طرف البساط ارتفعت شرابة، ثم عادت إلى الأرض؛ حركة صغيرة، لا تشبه شيئًا مما أراه الناس له في نشرات البحر. جاء صوت هالة من الداخل يأمره بألا يقف هناك. خلع حذاءه تلقائيًا، ثم نظر إلى جوربيه في الماء وشعر بالسخف.

«خلي صباطك عليك، آ ولدي. ما بقى ما نوسخوا.»

أعاد الحذاء إلى قدميه. كانت هالة فوق الدرجة التي تفصل المطبخ عن الممر، تضع أكياسًا في حوض الغسيل. إلى جانبها رُفع كرسي على الطاولة. عرف أنهما أضاعا الوقت في ترتيب أشياء لن تستطيع حملها. في الخارج كانت ميرا تسأل فريق النقل عن وسيلة تصل إلى أول الزقاق، بعد أن أعاد الماء المركبة الصغيرة إلى الخلف.

قبل خمسة أيام قال لهم التقييم إن العودة ممكنة مع إبقاء الحقائب جاهزة. لم يكن يونس قد صدّق كلمة «ممكنة» كما صدقتها هالة، لكنه زارها حين عادت، وشرب الشاي، وساعدها على وصل جهازها قرب السرير. الآن كان السلك نفسه يطفو، مفصولًا عن مأخذه، ويضرب رجل الطاولة كلما دخلت دفعة جديدة.

«أين الحقيبة؟»

«قربك.»

كانت مفتوحة خلفه. ملابس ملفوفة، علبة دواء، ظرف صور؛ وفوقها غطاء وسادة مطوي بعناية. أغلقها وهو يسمع هالة تتحرك في المطبخ. عندما استدار وجدها تحمل قدرًا.

«لن نأخذ هذا.»

«ليس لنأخذه. فيه ماء.»

لم يفهم، فأرته الغطاء. كانت قد ملأت القدر من الصنبور قبل أن ينقطع الضخ. وضعت ماء الشرب فوق المائدة، بعيدًا عن ماء البحر الذي وصل إلى قدميها. لم يملك في تلك اللحظة أن يقول لها إن لا أحد سيبقى ليشربه.

دخلت ميرا، وخلفها رجل بسترة برتقالية. طلب الرجل إطفاء القاطع الداخلي، فأخبرته هالة أن عامل البناية فعل ذلك. تفحص جهازًا صغيرًا قرب الإطار، ثم قال إنهما يستطيعان الخروج. كانت هذه الدقائق العملية تمنح يونس راحة قصيرة. خطر محدد، إجراء محدد، علامة تتغير على شاشة. في بقية الأشياء كان يعرف أكثر مما يستطيع استعماله.

قالت ميرا لهالة: «المقعد في آخر الزقاق. نمشي إليه معًا.»

«أمشي.»

حاولت النزول عن الدرجة. انثنت ركبتها، والتقطت المائدة قبل أن تصل إليها ميرا. سقط غطاء القدر، وأصدر رنينًا طويلًا ظل يدور بعد أن توقف هو عن الحركة. شتمت هالة ركبتها بصوت منخفض، ثم طلبت عكازها.

ثبت العكاز على موضع جاف، وقال لها أين تضع قدمها. يعرف عن الألم أنها قد تقبل المساعدة إذا بقي لها شيء تفعله بنفسها. تقدمت نحو المدخل ببطء، ثم توقفت عند الغرفة اليمنى.

«الصورة.»

ذهب إلى الحائط. كانت صورة أمها وأخيها ما تزال معلقة فوق المستطيل الذي تركته الخزانة. رفعها من مسمارها؛ انسلخ معها جزء من الورق الخلفي

المبتل. رأى على وجه المرأة الميتة انعكاس الضوء القادم من الباب. حملها أمام هالة كي تتأكد، فطلبت منه أن يقلبها حتى لا تُخدش.

في الزقاق لم يكن الماء عميقًا بما يكفي ليخافه المرء من بعيد. وهذا ما جعله أصعب: يشبه ماء غسل فائضًا، حتى يحاول الجسد وضع قدمه فيكتشف القوة التي تعمل تحته. مرّت قطعة خشب عند ساق يونس، واصطدمت بباب منزل مغلق. خلف الباب كان صوت رجل يكرر رقم الشقة، مع أن البيت كله يعرفه.

أنزلت آلة نقل ساقين إضافيتين من جانبيها، فصار المقعد ثابتًا فوق ست نقاط. جسمها رمادي منخفض، وعلى مقدمته شريط أصفر يتسخ كلما لامس الجدار. تراجعت قليلًا لتسمح لهالة بالدوران. كان في انتظارها شيء مهذب إلى حد يبعث على الغضب؛ لم تحتج إلى استعجال المرأة كي تكون مستعدة لها.

جلست هالة. وضع يونس الحقيبة والصورة في الحامل الخلفي. سأل الرجل عن الأدوية، ثم قرّب حزامًا مبطنًا إلى خصرها. رفعت هالة طرف معطفها كي لا ينحشر تحته.

«إلى أين هذه المرة؟»

«المدرسة العليا. هناك نقطة تجميع، ومنها إلى السكن.»

«أي سكن؟»

نظر الرجل إلى شاشة معصمه. «سيحددونه هناك.»

ظلت عيناها على الباب الذي خرجت منه، فيما كانت الآلة تدور بها نحو الزقاق الأعلى. طلبت ميرا من يونس أن يرافقها قليلًا؛ ستتأكد هي من خروج الجارة التي لا تسمع النداء. ترك لها مفتاح بيتهم، واتفقا على اللقاء عند أول الطريق.

عند المنعطف رأى البحر.

كان سطحًا مضطربًا، يعلو ثم ينخفض خلف الحاجز، ويدفع في كل ارتفاع ماءً أكثر عبر الجزء الذي هبطت حجارته. إلى اليسار، أمام منشأة التبريد الجديدة، كانت ألواح سوداء ترتفع من قواعدها. تتداخل أطرافها، وتملأ وحدات صغيرة الفراغات بينها. ارتدت عنها دفعة بيضاء وتناثرت إلى الأعلى. وراءها ظلت أضواء المنشأة ثابتة.

عرف يونس بعض ما تحميه تلك الألواح. محاليل وأنسجة ومعدات نقل، وأجساد لن تحتمل انقطاعًا طويلًا. في وحدة المتابعة التي ترقد فيها نور كانت علبة من هناك موصولة بجهازها منذ الصباح. راقب الماء الذي لم يستطع تجاوز الجهة الجديدة، ثم عاد إلى الزقاق الذي يخرج منه الناس حاملين أحذيتهم. لم يجد طريقة للنظر إلى الجهتين من غير أن يشعر أنه يتخلى عن واحدة.

على الطريق الأعلى وقف عبد السلام قرب رجل من البلدية. لم يعد يحمل حقيبته القديمة؛ كانت أداة القياس مربوطة إلى صدره كي تبقى ذراعاه فارغتين. كان يشير إلى مدخل جانبي ويقول إن ثلاث شقق لم تُفحص بعد. سأله يونس عن قطاع الحاجز.

«الجزء الذي في تقريري.»

كان في فمه شيء بين التعب والحذر. أراه موضع الانفصال من بعيد، ثم جرى نحو رجل يحاول النزول إلى مخزنه.

توقف مقعد هالة قبل أن يصل إلى الشارع. ازدحم الممر بعربة تحمل امرأة موصولة بالأكسجين. انخفضت منصة هالة، وضمت إحدى ساقيها إلى الداخل، وتركت العربة الأعلى تمر. رأى يونس وجه المرأة خلف القناع. كانت نائمة أو مغمضة العينين، لا يمكنه الجزم. إلى جانبها ولد يمسك كيسًا فيه فردة حذاء واحدة.

رن هاتفه.

كانت الممرضة من وحدة نور. أخبرته أن ابنته تسأل عنهم، وأن الاضطراب لم يتكرر منذ الظهر، لكن الفريق يريد الاجتماع في الصباح قبل نافذة النقل

التالية. سمعها تقلب ورقة، ثم صححت نفسها: ليس في الصباح؛ سيصل الفريق المستقل مساء اليوم عبر الاتصال.

نظر إلى الساعة. كان يظن أن لديهم يومًا آخر.

«هل تغيرت حالتها؟»

«التقييم نفسه الآن. الذي يتغير هو إمكان النقل. ستشرح لك الطبيبة.»

طلب أن يسمع نور. انتظر حتى جاء صوتها، قريبًا على نحو لا يناسب الشارع المبلل.

«خرجت هالة؟»

«هي معي.»

«وعلبة الألوان؟»

كاد يقول إن الألوان ليست ما ينبغي السؤال عنه. ثم تذكر أنها بقيت في بيتهم منذ الزيارة. قال إنها في الدرج، فتنفست نور بارتياح واضح.

«لا تجيبوا عن كل شيء بدلًا مني في الاجتماع.»

«سنكون معك.»

«هذا جواب آخر.»

ضحك رغمًا عنه. لم تكن النكتة مضحكة، لكن صوتها كان صلبًا بما يكفي ليقاومه. قال إنه سيأتي، ثم أغلق ورأى هالة تنظر إليه. أشارت إلى الحقيبة خلفها.

«لا تضيّع وقتك معي. أنا أصل.»

وصلت ميرا تقود الجارة بكتفها. كانت المرأة تمشي وحدها، إلا أنها لا تثق بالقدم التي لا تراها تحت الماء. في الخلف تدحرج روبوت تنظيف صغير، من النوع الذي كان يلمّع أرصفة الواجهة البحرية. أصبح يسحب حبل إرشاد مضيئًا، ويثبت مشابكه في الجدران. تتغير وظيفته، ويبقى شكله كشيء لا يستحق أن يُنتبه إليه.

أراد يونس سؤال ميرا إن كانت بخير. قبل أن يفعل دوّى صوت من الشارع الأسفل. ارتجف زجاج نافذة، وخرج رجال من منعطف ضيق. تعالت بضع كلمات متداخلة، ثم صفير متصل من جهاز الإنذار.

تغير الشريط على مقدمات آلات النقل من الأصفر إلى الأحمر. تحركت مقاعد كانت تنتظر أرقامها. قال الرجل ذو السترة البرتقالية إن عليهم إخلاء الطريق كله، ثم أمسك ذراع يونس ليدفعه إلى الجهة الصاعدة.

في الأسفل ارتفع الماء فوق أول درجة من السلم الحجري. رآه يبتلع الدرجة الثانية ببطء، ببطء شديد قياسًا بما أحدثه من عجلة في الناس.

لم ينتظر يونس أن تصل إلى الثالثة.

الفصل السادس عشر

موافقة ابنة

كانت نور قد كتبت ثلاثة أسئلة على ظهر ورقة الطعام، ثم شطبت السؤال الأول لأنه بدا لها سؤال أبيها.

هل سأبقى قادرة على العيش خارج الشبكة؟

قرأت الجملة حتى فقدت معناها. هي لم تعش خارج شيء قط. الماء يأتي من مكان، والطعام من مكان، وأمها لا تنام إن تأخرت شحنة صغيرة في موعد محدد. حتى جدتها التي لم تعرفها إلا في الصور ماتت في مستشفى، تحت ضوء ينتجه أشخاص آخرون. لكن ذلك لم يجعل السؤال باطلًا. أعادت كتابته بصيغة أقصر: إذا انقطع الاتصال، ماذا يحدث لي؟

كانت الجملة الثانية عن المدرسة. والثالثة لم تستطع كتابتها.

في السرير المجاور نامت طفلة جاءت من حي آخر. فصل بينهما حاجز من قماش يمكن تحريكه، لكنه لم يمنع صوت الأب وهو يروي لها حكاية يعرف نصفها. كان يتوقف عند أسماء الشخصيات، فتصلحه وهي مغمضة العينين. أعجبت نور طريقته في الخطأ؛ يتعمد بعضه، على الأرجح، كي تبقى الطفلة معه.

دخل يونس ومعطفه مبلل عند الطرف. وضعت نور الورقة تحت غطاء طبقها. رأته ينظر إلى الجهاز قبل أن ينظر إليها، فكرهت الجهاز للحظة، ثم رفعت ذراعها كي يرى الأثر الذي تركه السوار.

«هذا يضايقني.»

تفحص الموضع، وعدّل الرباط بمساعدة الممرضة. كانت تريد منه عملًا صغيرًا يؤديه هنا، لا أن يعود إلى الباب ليهاتف أحدًا. جلس بعدما انتهى، وبقيت ميرا واقفة قرب النافذة.

«المدرسة مزدحمة»، قالت ميرا. «هالة وصلت مع جارتها. أعطوها سريرًا قرب ممر واسع.»

«هل ستعود إلى البيت؟»

«لم يحددوا.»

انتظرت نور بقية الجملة. لم تأتِ. خارج النافذة مرت عربة مغلقة تحمل خزانات زرقاء، وانسحب ضوءها على السقف. حاولت أن تتخيل البيت من الداخل، لا كما يبدو في المجسم. المائدة قرب الحائط، آثار الأقلام في الدرج، حذاء أبيها الذي لا يستقيم إلى جانب الآخر. كانت التفاصيل تزدحم حتى تصير صورة واحدة تستحيل حمايتها.

جاءت الطبيبة التي تتابعها في الوحدة، ومعها امرأة لم ترها من قبل. اسمها دلال، اختصاصها تأهيل الحالات العصبية المعقدة. قبل أن تجلس أزاحت الكرسي من الممر لتترك مساحة للعربة المجاورة. ظهرت سلمى على شاشة عند طرف السرير، من المنشأة التي تعرفها نور في الضفة الأخرى.

قالت دلال إنها راجعت التقييمات، وإن عملها هنا التأكد مما فهمته نور ومما بقي غامضًا. سحبت نور ورقة الطعام. قرأت سؤال الاتصال، فأجابت سلمى بأن المنظومة المزمع تركيبها ستعمل محليًا في جسدها، ولن تحتاج إلى اتصال دائم كي تتحرك أو تشعر. احتاجت نور إلى سماع هذا بوضوح؛ كانت تتخيل سقوط العالم كله في رأسها إذا تعطلت إشارة.

ثم أكملت الطبيبة. العمل المحلي لا يعني أنها ستستغني عن المتابعة أو المواد أو التحديثات التي لا تُجرى بلا فحص. إذا تعطل جزء، لا تستطيع الأسرة تبديله كما تبدّل بطارية مصباح. هناك احتياطي محدود، وترتيبات للطوارئ، وأشياء لا يزال مداها على عشرات السنوات غير معلوم في حالتها.

كتب يونس شيئًا. التقطت نور حركة القلم من طرف عينها، وأعادت نظرها إلى الشاشة.

«وإذا قلت لا؟»

هذه المرة أجابت دلال. ستستمر الرعاية المرحلية، مع تقليل ما يثير الاضطراب ومراقبة قريبة. قد تُكسبهم وقتًا، لكنها لا تصلح الخلل الذي تكرر. لا تعرف متى تأتي النوبة التالية، ولا إن كانت ستبقى بالشدة نفسها. هناك مسار أقل اتساعًا للتدخل، لكنه في قياسات نور لم يُظهر الاستقرار الذي يحتاجونه، وقد يتركها تحت قيود أشد.

لم يقل أحد إن عليها الاختيار الآن كيلا تضيع الفرصة. كان ذلك يريحها ويغضبها معًا؛ لأنهم جميعًا يعرفون أن البحر في الخارج يضع ساعة فوق كلامهم.

«أريد أن أمشي من غير أن أنتظر رأسي.»

خرجت الجملة قبل أن تجهزها. نظرت ميرا إليها، فعرفت نور أنها قالت أخيرًا شيئًا يصلح أن تفهمه أمها من الداخل.

طلبت سلمى منها وصف ذلك. قالت إن الأشياء لا تتوقف، وإنها قد تبدو لمن يراها جالسة هادئة. لكن الباب الذي تعبره بعينيها لا يكون دائمًا حيث تتوقعه قدماها. إنها تتعلم كيف تخفي الخوف حتى لا يغيّر الناس وجوههم، ثم تتعب من مراقبة وجوههم أكثر مما تتعب من الباب.

لم يحاول أبوها إكمال الوصف.

سألت عن الذاكرة. أجابت سلمى بأن الهدف الحفاظ على البنية التي تعلمت بها، والعمل على مواضع الارتباط المتعثرة. لا توجد خطة لنسخها إلى جهاز آخر، ولا وعد بأن كل شيء سيمر بلا أثر. قد تتغير بعض الخبرات الحسية، وقد يحتاج الربط إلى تدريب طويل. هناك مخاطر للتدخل نفسه، ومخاطر لا يمكن محوها بإتقان العمل.

«هل سأصحو وأنا أعرفكم؟»

كان هذا السؤال الثالث.

رأت فم أبيها يتحرك ثم ينغلق. قالت سلمى إن هذا ما يتوقعه الفريق ويسعى إليه، وإنها لا تستطيع أن تمنحها ضمانًا مطلقًا. سألتها إن كانت تريد الحديث عن أسوأ الاحتمالات الآن أو بعد استراحة. قالت نور: «الآن.» ثم اضطرت إلى وضع الورقة على ركبتيها لأن حافتها بدأت ترتجف.

عرفت نور أن هناك أشياء قد تسوء أثناء التدخل، وأن الجسد قد لا يقبل كل ما يريدون منه، وأن النجاح نفسه قد يبدأ بأيام لا تستطيع فيها فعل ما تفعله الآن. حين انتهت الطبيبة، لم تكن نور أشجع. كانت فقط أقل وحدة في خوف عرفت أسماء بعضه.

سألت دلال والديها أن يتركا لها بضع دقائق معها. خرجا. قبل أن يغلق الباب، رأتهما نور يقفان على جانبيه من غير أن يتكلما.

«هل يقولان لك ما ينبغي أن تختاري؟»

نظرت إلى الورقة. «أمي تريد أن أتعالج. أبي أيضًا.»

«وأنت؟»

«أنا أريد أن ينتهي هذا.»

«قد لا ينتهي كله دفعة واحدة.»

«سمعت.»

سكتت دلال. في السرير المجاور صححت الطفلة اسمًا آخر لأبيها، ثم سألت إن كان يستطيع البدء من جديد. شعرت نور بغيرة مفاجئة: حكاية يمكن إعادتها من أولها، من غير أن يقال إن الوقت لم يعد مناسبًا.

قالت: «أبي لا يحب ما يحدث للمدينة.»

«هل يشعرك أن عليك إصلاح ذلك؟»

«لا يقولها هكذا.»

حاولت أن تشرح، فضاعت منها بداية الجملة. كانت تحبه، وهذا يجعل الشكوى منه تبدو إفشاء سر. قالت إنه يخاف على أناس لا يستطيعون الدخول إلى الأماكن الجديدة. وإنها حين تفكر في أن تصير أسرع وأقدر، تجد وجهه قبل أن تجد نفسها.

طلبت دلال منها أن تفصل ما تريده لجسدها عما تخشى أن يشعر به أبوها. لم تعرف كيف تفعل ذلك تمامًا. قالت إنها تريد العلاج، حتى لو ظل حزينًا، ثم بكت لأن العبارة بدت قاسية حين سمعتها.

ناولتها المرأة منديلًا، ولم تقل إنها قوية.

عندما عاد يونس كانت ميرا قد خرجت لتجيب عن اتصال من هالة. بقي وحده معها. مدت نور ورقة الطعام إليه. قرأ الأسئلة، ثم أعادها في الموضع الذي كانت فيه.

«لن أطلب منك أن تنتظري من أجلي»، قال.

لم تكن هذه بداية حديثها الذي تدربت عليه. نظرت إلى أصابعه، إلى خط الحبر على جانب السبابة، ثم رفعت رأسها.

«وألا تحزن؟»

«لا أستطيع أن أعدك بذلك.»

بلعت ريقها. «إذن لا تجعلني أراه كل مرة.»

أبعد القلم عن السرير. كان التعب في وجهه شديدًا حتى كرهت نفسها لأنها أضافت إليه. لكنها إذا سحبت الكلام الآن فلن تقدر على إعادته.

«حين تقول الناس، أو البشر، أكون هنا. أسمعك. ثم يصير جسمي...» توقفت تبحث عن الكلمة، وأغضبها أنها تعرف كلمات كثيرة لا تنفع. «كأنه المكان الذي سيحدث فيه كل شيء سيئ.»

انحنى إلى الأمام، لكنه لم يلمسها.

«آسف يا نور.»

قالها من غير تفسير. انتظرت جملة تبدأ بلكن. لم تأتِ.

«أنا لا أريد أن أختار ضدك.»

«اختيارك للعلاج ليس ضدي.»

«قلها غدًا أيضًا.»

أطرق قليلًا، ثم قال إنه سيحاول أن يتذكرها قبل أن يضطرها إلى تذكيره. بقي معها حتى عاد تنفسها إلى إيقاعه، ثم سأل إن كانت تريد أن يقرأ لها السؤال الذي لم تجب عنه الطبيبة: المدرسة.

من بين كل الأشياء، ضحكت عند هذا. نسياه جميعًا. ضغطت الجرس، وعندما حضرت دلال سألت نور إن كان التدريب سيمنعها من العودة إلى فصلها. قالت المرأة إن العودة ستحتاج إلى ترتيب مع المدرسة، وربما تبدأ من البيت. اعترضت نور على البيت قبل أن تتذكر أنه قد لا يبقى البيت نفسه.

عاد الصمت إلى الغرفة، أشد هذه المرة.

في الممر سمعوا اسم الحي في نداء نقل. تحرك يونس ليرى، فعاد إلى السرير قبل أن تسأله. أخبرها أن خط الطريق المباشر إلى الميناء صار مخصصًا للمعدات، وأن المرضى سينتقلون أولًا إلى وحدة أعلى، قريبة من نقطة الانطلاق. بعد تحسن نافذة العبور تُنقل إلى المنشأة. لن يتركوها وحدها.

«وإذا ساء الجو؟»

شرح الترتيب البديل بقدر ما يعرف، ثم توقف حين احتاج إلى معلومة ليست عنده. جاء بها الفريق. رأت في ذلك تعبًا قليلًا يزول عنها؛ لم يعد عليها أن تميز بنفسها بين ما يعرفه أبوها وما يقوله كي لا تخاف.

اختارت العلاج. قالتها بصوت عادي، لا يشبه الصوت الذي كانت تتخيله لقرار يغير الحياة. أعادت لسلمى ما فهمته: تحسن ممكن، تدريب، اعتماد طويل، واحتمال ألا يصير جسدها كما تتمنى. ثم طلبت أن تُشرح لها الخطوة التالية وحدها. بقية العمر يمكنها أن تفكر فيه حين تصل إليها.

وقّع يونس ما يخصه، بعد أن أتمت هي حديثها. رأت اسمه يتكون على الشاشة. كانت تعرف الخط نفسه من دفاتر المدرسة، ومن بطاقة تركها قرب

سريرها في طفولتها يوم اضطر إلى مناوبة ليلية. كان خط أبيها، بطيئًا عند حرف الشين.

في آخر الليل وصلت عربة النقل الأولى. أُزيلت عجلات السرير من أقفالها، وصارت الغرفة تتحرك حول نور. عند الباب تذكرت ورقة الطعام، فطلبت من أمها أن تحملها.

«لن تحتاجيها بعد الآن»، قال أحد المساعدين.

قالت نور: «أنا كتبت عليها.»

أخذتها ميرا ووضعتها في حقيبتها. اتسع الباب أمام السرير، ومرت نور منه بعينين مفتوحتين، تحاول هذه المرة ألا تقيس المسافة.

الفصل السابع عشر

زمنان في غرفة واحدة

اختلفا على وعاء لا يزيد ثمنه على وجبة.

كان يونس قد وضعه في صندوق الأشياء التي ستبقى، فأعادته ميرا إلى الحقيبة. رآه حين حاول إغلاقها، وأخرجه من جديد. وعاء خزفي أبيض، مكسور قليلًا عند الحافة، كان يحمل الملح في أول زواجهما قبل أن تنتقل وظيفته إلى مفاتيح وأزرار لا يعرفان أصحابها. قالت إنه لا يحتل مساحة. قال إن كل شيء لا يحتل مساحة، ثم تصبح الأشياء بيتًا آخر يحتاج إلى حمله.

وضعت الوعاء على المائدة، بينهما، واستمرت في جمع الملابس.

كان لهما وقت محدود. نور في الوحدة العليا تحت المتابعة، ومقعدان محجوزان لوالديها في وسيلة النقل التالية. عادت ميرا إلى البيت لأن الحقائب التي أخذوها في السفر الأول لم تكن تصلح لمغادرة لا يعرفون مدتها. جاء يونس معها بعد أن اطمأن إلى الممرضة، وقال لنور إنه سيحضر سترتها الرمادية. سألته أن يتأكد من أنها سترتها، لا السترة الأصغر التي يصر على الاحتفاظ بها.

لم يدخل الماء البيت بعد. كانت الرطوبة في الرائحة، والهواء يضغط على النافذة التي أصلحا مزلاجها مرتين. من المطبخ رأت ميرا مركبات تجوب الطريق الأدنى، وعلى واجهات بعض البيوت علامات ضوئية تدل على تمام الإخلاء. بيتهم ما يزال نقطة بلا علامة. خطر لها أن هذه أول مرة تنتظر فيها المدينة خروجهم كي تستطيع العمل.

مدت سلك المسح الصغير على حافة الرف. اشتغل الضوء، وبدأ الجهاز يلتقط الغرفة من زوايا متعاقبة. ليس شيئًا جديدًا في عملها؛ اعتادت أن

تحفظ مواضع النقوش قبل تنظيفها، وأن تعرف أين كانت قطعة قبل أن ترفعها. اليوم أرادت أن تطبق المهارة نفسها على البيت، فاكتشفت أن يدها تسرع كلما سمعت حركة شاحنة.

«أطفئيه قليلًا»، قال يونس.

«لن يؤخرك.»

«أريد أن أسمع.»

أوقفت الجهاز. وصل إليهما صوت طرق من الطابق الأعلى. كان الجار يفك سريره. ثلاث ضربات، ثم جرّ طويل. قال يونس إن الرجل ركب ذلك السرير وحده حين انتقل، وإنهما ساعداه فقط على دفعه عبر الباب.

«يمكن أن أضيف هذا إلى التسجيل.»

«لا، ليس لهذا قلت.»

التفتت إليه. لم يكن غاضبًا من الجهاز، أو لم يكن غضبه كله موجهًا إليه. كان واقفًا في موضع يعرفه جسدها حتى إذا أغمضت عينيها: قرب الطرف المكسور من المائدة، متجنبًا خدشه بملابسه. سنوات وهو يقول إنه سيصقله، وسنوات وهي تؤجل ذلك لأنها تستطيع حماية الخشب بطريقة أفضل.

«إذن لماذا؟»

أخذ قطعة قماش ولف بها الوعاء الخزفي. «لأنني تذكرت.»

وضعت الوعاء في الحقيبة هذه المرة، وتركه.

في غرفة نور كانت الأشياء أكثر مما ظنا. كتب، أسلاك قديمة، أحجار جمعتها الطفلة لأنها مسطحة بما يكفي لترسم عليها. وجدا كيسًا فيه أوراق مقصوصة، لكل منها نافذة صغيرة. حاول يونس أن يعرف أيها جزء من المجسم، ففصلت ميرا القطع التي تعرفها. رفع هو ورقة تحمل دائرة زرقاء.

توقف نظرها عندها. لم تكن الكرة التي رأتها في التسجيل القديم، ولا رسمًا لها، لكن اللون أعاد إلى صدرها ضيق الغرفة في المنشأة. عرف يونس أن شيئًا حدث. سألها، فأخبرته أنها تذكرت المقطع.

«هل تريدين أن أحمله؟»

كان يقصد الورقة، على الأرجح. قالت نعم. وضعها بين كتابين من غير أن يسأل أي علاقة تصلها بميرا قبل تنشيطها. ارتاحت إلى أن الرجل الذي غضب من الإخفاء يستطيع الآن أن يصون شيئًا لا يفهمه كله.

فتحت خزانة الثياب. أمسكت السترة الرمادية من كتفيها، وعرفت أنها الصغيرة قبل أن تقرأ القياس. تركتها على السرير. وجد يونس الثانية في درج لا توضع فيه السترات، فرفعها كمن يحل مسألة. كانت تنقصها سنّ من السحاب.

«هذه التي تريدها.»

«السحاب لا يغلق.»

«لذلك تعرف أنها لها.»

لم تحب ميرا سهولة الجملة في فمه، لأنه كان محقًا. يستطيع قبول عيب في شيء يحبه من غير أن يحوله فورًا إلى مشكلة ترميم. أما هي فكانت قد قضت حياتها تتعلم أي نقص يجب أن يبقى، وأي نقص سيأكل ما حوله إذا تُرك.

اهتز المنزل اهتزازًا خفيفًا. توقفا معًا. لا شيء سقط؛ ربما مركبة ثقيلة في الشارع. خرج يونس إلى النافذة، وبقيت ميرا تنصت إلى أزيز أنظمتها الداخلية. حين يخاف، يتسارع قلبه بصورة تستطيع سماعها إن اقتربت. حين تخاف هي، لا يكون كل شيء واضحًا له. يضبط جسمها بعض الاستجابات، وتحتاج إلى قول ما يحدث كيلا يظن أنها أهدأ منه.

قالت: «أنا خائفة.»

ابتعد عن النافذة. «نور ليست وحدها.»

«ليس من أجل نور فقط.»

جلس على طرف السرير، في المساحة التي تركتها السترة الصغيرة. انتظرت أن يسأل، لكنه كان يعرف أن عليها أن تصل إلى السؤال بطريقتها.

كانت قد حملته منذ رأت طبيبًا في المنشأة يتحدث عن تأهيل طويل كما يتحدث الناس عن موسم من العمل. طويل لمن؟ حين تقول سلمى عشرين عامًا، ماذا تسمع ميرا؟ وماذا يسمع يونس؟

«لو احتجت إلى علاج يزيد سنواتك...»

لم تكمل. شد قماش السترة بين إصبعيه ثم أرخاه.

«أي علاج؟»

«لا أعرف بعد.»

«إذن لا نعرف ما نناقشه.»

نهضت لتضع كتابًا في الصندوق. كان الجواب سليمًا، وهذا ما أوجعها. يستطيع أن يؤجل السؤال بالدقة، فيما هي تسأل عن شيء لا يحتاج اسم علاج كي يوجد.

«أنا أناقش أن أبقى.»

فهم هذه المرة. رأت الفهم يعبر وجهه قبل أن يحاول إخفاءه بحركة. لم يكن عجوزًا؛ سبعة وأربعون عامًا، وفي صدره تعب أيام متصلة، لا حكم نهائي على جسده. لكن الزمن الذي ينتظره ليس الزمن الذي تنتظره هي. لا تحتاج إلى فحص كي تعرف ذلك.

«قد تبقين قبلي حتى لو أخذت كل علاج.»

«وقد لا أبقى.»

رفع رأسه إليها. كانت هذه الحقيقة مما يعرفه نظريًا، ثم ينساه كلما رأى قطعة جديدة تعمل في جسدها. قالت إن الأجزاء لا تعدها بشيء، وإن الصيانة قد تفشل، وإنها لا تطلب منه أن يضمن لها مستقبلًا. كانت تريد فقط ألا يكون قد أغلق الباب كله في رأسه قبل أن يصلا إليه.

«لم أغلقه كله.»

«وأي جزء أبقيت مفتوحًا؟»

طال صمته. في الطابق الأعلى سكت الطرق، ثم سمعا شخصًا ينادي من الدرج. فكرت ميرا أن الحوار سيتوقف هنا كالعادة: يدخله العالم في اللحظة التي يصير فيها الكلام لازمًا، ثم يعودان إليه بعد أيام وقد تغيّرت صيغته.

قال يونس: «أستطيع أن أقول إنني سأفحص ما يُعرض عليّ. لا أستطيع الآن أن أقول إنني سأقبل كل ما يبقيني أطول.»

«لم أقل كل شيء.»

«أخاف أن تسمعي نعم، ثم أجرحك يوم أقول لا لشيء بعينه.»

وقفت قرب السرير. كانت تريد كلمة أوسع، كلمة يمكنها أن تضعها في حقيبة وتأخذها. لكنه لم يمنحها الوعد الذي يحول خوفها إلى شأن مؤجل. في البداية غضبت. ثم تذكرت كيف أراد هو منها حقيقة كاملة، وكيف أعطته أجزاء يمكن احتمال كل واحد منها وحده.

«أريد أن أعرف حين تبدأ في التفكير، لا حين تنتهي.»

نظر إليها طويلًا. «هذا أستطيع.»

جلست إلى جانبه. بقيت السترة الصغيرة بينهما، فرفعتها ووضعتها على ساقيها. بعد قليل جذب يونس طرفها، وراح يفتش جيبها. وجد غلاف حلوى قديمًا. كاد يرميه، ثم أراه لها. تذكرت نور يوم اشترتها وأخفت نصفها لأنها ظنت أن الأشياء المخبأة تعيش أطول.

ضحكا، ثم انقطع ضحكهما في وقتين مختلفين.

أكملت ميرا المسح. أبقت الصوت هذه المرة، فسجل الجهاز يونس وهو يغلق درجًا لا ينغلق إلا إذا رفعه قليلًا. طلبت منه أن يعيده. أعاده، ثم قال إنه يبدو الآن كمن يمثل أنه يعيش هنا. تركت التسجيل جاريًا ولم تطلب لقطة ثالثة.

عند المائدة قررا حمل الوثائق والأدوية والملابس وعلبة الألوان. المجسم لم يدخل في حقيبة؛ لفّاه بقطعة قماش، وتركا فراغًا عند الباب الصغير كيلا ينكسر. حمل يونس الصندوق، فانفصلت قطعة من السقف. وضعتها ميرا في

جيب مستقل، وكتبت عليه اسم نور، كأن الطفلة ستجد في ذلك دليلًا أن العطل قابل للإصلاح.

رن هاتفها بينما كانا يجرّبان قفل الباب.

كانت الممرضة. لم تتكرر النوبة كاملة، لكن نور قالت إن إحساس المسافة بدأ يتغير. أعادت الطبيبة تقييمها، وخففت المثيرات، والفريق جاهز. طلبت ألا يتأخرا. في خلفية الصوت سمعت ميرا نور تسأل عن السترة.

«معنا»، قالت. «التي لا يغلق سحابها.»

وصلها رد قصير، أقرب إلى الرضا منه إلى الكلام.

نزلت ميرا قبل يونس، تحمل الحقيبة. عند المنعطف التفتت فوجدته ما يزال أمام الباب. أدار المفتاح مرة واحدة، ثم اختبر المقبض كما يفعل كل ليلة.

كان يمكنها أن تخبره بأن القفل لن يمنع شيئًا مما يخافانه. انتظرته بدلًا من ذلك.

الفصل الثامن عشر

العبور الثاني

أخرجت أم سارة من الحقيبة قميصين، وأدخلت مكانهما كيس خبز.

رأتها سارة تفعل ذلك، ولم تعترض. كانت قد اعترضت على أشياء كثيرة منذ الصباح: مقدار الطعام، الطريق الذي سيأخذونه، رغبة أنس في النزول وحده إلى البيت لإحضار ما نسياه. الآن كان رأسها ممتلئًا بأسماء أماكن لا تعرف إن كانت ستصل إليها. نظرت إلى القميصين فوق الأريكة وفكرت أنها قد تحتاج إليهما، ثم تركتهما.

منذ ليلة إعلان النتيجة مرّت أيام بدت متشابهة حتى انفتح بينها هذا الصباح. اتسع الإخلاء إلى شارع أمها، لا لأن الماء بلغه، بل لأن الوصول إليه قد ينقطع. قال الرجل الذي قرأ الإعلان إن عليهم المغادرة قبل أن تصبح المغادرة عملية إنقاذ. بدا الفرق واضحًا في فمه، وأقل وضوحًا حين حاولت أم سارة أن تقرر هل تترك اللحم في المجمّد.

«غادي يخسر.»

«خليه يا أمي.»

«نعطيه لشي حد.»

لم يكن هناك أحد سيبقى. فتحت المرأة الثلاجة وأغلقتها، ثم أخرجت قطعة جبن صغيرة ووضعتها مع الخبز. راقبتها سارة من الكرسي. كانت تعرف أن أمها لا تعتقد أن الجبن أهم من حياتها؛ إنها فقط لا تستطيع أن تُخرج من رأسها سنوات كاملة من حفظ الطعام بأمر واحد.

جاء أنس من نقطة التجمع يحمل ورقة فيها رقم. قال إن القافلة ستنقلهم إلى مركز أعلى، وإن الطريق المعتاد أُغلق أمام المرور العام. طلبوا منهم ألا

يحملوا أكثر مما يستطيعون وضعه تحت المقعد. نظرت الأم إلى كيس الخبز كأنها تقدر وزنه للمرة الأولى.

«هل هناك مرحاض في المركبة؟» سألت سارة.

لم يسأل أنس عن هذا. رأته يلوم نفسه، فطلبت منه ألا يعود. سيعرفون حين يصلون. كانت تتعب من أن يصبح كل سؤال منها دليلًا جديدًا على تقصيره، ومن أن تضطر إلى مواساته بعد أن تطلب شيئًا بسيطًا.

نهضت. اشتد بطنها، صلبًا للحظات، ثم ارتخى. وضعت الكف على موضعه وانتظرت. حدث هذا من قبل، وسألت عنه في المتابعة، لكن الجسد لا يعيد الحدث نفسه مرتين بالخوف نفسه. سألها أنس إن كان الألم عاد. قالت إنه شدّ قصير، وإنها ستخبر الممرضة في نقطة التجمع.

عند باب البيت التفتت أمها. أوصت الهواء بأن يبقى كل شيء في مكانه، بكلمات عن النوافذ والغاز وسلة الغسيل. ثم أعطت سارة مفتاحًا آخر.

«احتفظي به معك.»

كانا يملكان ثلاثة مفاتيح للباب نفسه. وضعت الثالث في حقيبتها.

في الطريق رأوا المدينة تتخلى عن صغائرها. ألواح المحال مرفوعة إلى الداخل، أوانٍ بلا زهور على عتبات مغلقة، دراجة مقيدة إلى عمود غُمر نصفه بالطين. أمام المخبز وقف صاحبُه يوزع ما بقي من خبز، لكن الناس كانوا يمدون إليه المال. أغضبه ذلك. قال إنه سيغلق، وإن النقود تعطلهم. أصرت امرأة أن تترك القطعة المعدنية فوق الطاولة. رأت سارة في إصرارها شيئًا تفهمه: تريد أن تخرج من المخبز زبونة، لا منكوبة.

كانت نقطة التجمع في باحة مدرسة. عند السور خُصص ممر للعربات الطبية، وفي الوسط صفوف حقائب وأناس يجلسون فوقها. جرى روبوت صغير بين الأقدام وهو يكرر اتجاه المراحيض. تبعه أطفال، فعاد أحد المتطوعين بهم إلى أمهاتهم. كانت تعليمات الآلة واضحة إلى حد لم تعرف معه سارة لماذا خافت أن يضيعوا.

رآها جلال قبل أن تراه. أقبل يحمل دفترًا ورقيًا، وعلى كتفه حزام صندوق. سأل عن حالها، ثم نظر إلى أنس وقال إن هناك مقعدًا أماميًا يمكن تخصيصه لها.

«هل خصصوه لحامل؟»

«نعم، وسيسهل...»

توقف عند وجهها. أكمل بأن الناس يعرفونها، وأن نقلها بسرعة سيطمئن من يتابعون أخبارهم.

شعرت بطفلها يتحول مرة أخرى إلى وسيلة لتهدئة أناس لا يعرفهم. لم ترغب في معركة هنا؛ كانت تريد الجلوس، وقد حفر حزام الحقيبة في كتف أنس خطًا أحمر.

«اسأل الممرضة عن المقعد. هي تعرف من يحتاجه.»

«هو فارغ الآن.»

«إذن اسألها.»

جاءت الممرضة قبل أن يذهب إليها. فحصت بطاقة سارة، وسألتها عن الشد الذي شعرت به وعن الحركة وعن أشياء أجابت عنها بصوت منخفض. وضعت علامة على رقمها لتبقى قريبة من الفريق الطبي. قالت إن المقعد الأمامي مناسب لامرأة تحتاج إلى تمديد ساقها المصابة، أما سارة فستجلس عند الممر في الصف الثاني.

رضيت سارة بالمكان حين عرفت السبب. كان ذلك أسهل كثيرًا من مناقشة الحق في الأولوية مع كل رجل يحاول مساعدتها.

سجل جلال التغيير. لم يعتذر، ولم يعلق. ذهب إلى المرأة ذات الساق المصابة، وانحنى ليربط حزام صندوقها إلى العربة. كانت ترى عملًا نافعًا يؤديه، وتكره أن يجعل هذا طلبها السابق للتصحيح يبدو ترفًا.

فتحت الهاتف. وصلتها ردود كثيرة على الصياغة التي أرسلتها. امرأة تسأل إن كانت بخير؛ رجل يريد اسم المختبر؛ قريبة تقول إن المهم أن يولد سليمًا،

ثم تضيف دعاءً يجعل كلمة سليم ثقيلة مرة أخرى. لم تجد نسخة منشورة من جلال. بحثت باسمه، لكن الاتصال تباطأ ثم عرض إعلانًا قديمًا لا علاقة له بالخبر.

أغلقت الهاتف. لم يكن الوقت مناسبًا للبحث، وكان في ذلك انتصار صغير له، حتى إن لم يقصده.

جلست أمها إلى جوارها على حافة حوض زرع. أخرجت قطعة الجبن وبدأت تقسمها بغطاء علبة بلاستيكية. قالت سارة إنها لا تريد الأكل. أكملت المرأة التقسيم، ووضعت نصيبها على منديل من غير أن تدفعه إليها. بعد دقائق أخذته سارة.

في الطرف الآخر من الباحة كانت عربة أطفال تهتز وحدها. ظنت أولًا أن آلة صغيرة تحركها، ثم رأت رجلًا مسنًا يدفعها بطرف حذائه، بينما تقف أم الطفل في الصف. كانت عكازته تحت إبطه، وحركة قدمه ضئيلة لكنها كافية. لم تسأل سارة إن كان الطفل هجينًا. استراح نظرها عند العمل البسيط الذي جمعهما، ثم أفزعها أنها احتاجت إلى أن تنتبه لغياب السؤال.

صعد أنس ليتأكد من مكان الحقائب. عاد مبتل الجبهة رغم برودة الهواء. قال إن المركبات جاهزة، لكنهم ينتظرون نقل المقيمين في جناح المدرسة الداخلي، حيث نام المسنون منذ الليلة السابقة. بعضهم يحتاج إلى مقاعد خاصة، وواحدة من العربات عادت بسبب طريق مسدود.

«كم ننتظر؟»

«لم يقولوا.»

ظهرت على اللوحة عبارة «المغادرة بعد اكتمال الصعود». رأتها سارة تتكرر بلغتين، ثم شاهدت الرقم الذي تحتها يعود إلى الصفر ويبدأ من جديد. لم يكن عدّادًا إلى المغادرة. كان عدد الأماكن المتاحة يتغير كلما أُضيف اسم أو نُقل إلى مركبة أخرى. مع ذلك ظل الناس يرفعون رؤوسهم إليه كأنه يعدهم بوقت.

مر جلال قربهما. نادته أم سارة لتسأله عن جارتها، ففتح دفتره. تذكر اسمها، لكنه لم يعرف إن كانت في المركبة الأولى أم لم تصل بعد. ذهب ليتحقق، وترك الصندوق عند سارة. على الغطاء صور صغيرة لأشخاص مفقودين عن أسرهم في النقل، وأرقام هواتف، وشريط لاصق انتهى نصفه. كان الصندوق نافعًا، متسخًا، ومثقلًا بأعمال لا يستطيع إنكارها أحد.

حين عاد قالت له سارة: «هل نشرت؟»

عرف ما تعنيه. نقل الصندوق من جوار قدمها إلى كتفه.

«سيراه الناس.»

«هذا ليس جوابًا.»

أشار رجل من عند المدخل، فاستدار جلال نحوه. «هناك امرأة لا تستطيع النزول. أعود.»

ذهب. هذه المرة كان هناك حقًا من يحتاج إليه، ولم تستطع سارة منعه من الذهاب كي يكمل ما بدأته. بقيت جملته معلقة كشيء أُجّل لأن حياة أخرى أكثر استعجالًا.

بدأ المطر خفيفًا. نُقلت المقاعد إلى ما تحت المظلة. احتج رجل لأنه فقد موضعه في الصف، ثم خجل حين رأى المرأة التي حلت مكانه تسند رأسها إلى أسطوانة أكسجين. حمل حقيبته ووقف قرب السور. كان التعب ينقل الناس من العناية ببعضهم إلى الخصام، ثم يجمعهم تحت المظلة من جديد.

استدعت الممرضة سارة إلى المركبة. ساعدتها أمها على الصعود، ثم نزلت لتحضر الكيس الذي تركته. صاحت سارة أن تدعه، ولم تسمعها. عاد أنس به قبلها، فغضبت المرأة لأنه لم يغلقه جيدًا. انسكبت قطعة خبز، التقطها، ونفضها من غير أن يقول شيئًا.

في الداخل كان الهواء دافئًا أكثر مما ينبغي. جلست سارة عند الممر. رأت من الزجاج جناح المدرسة، وسلمًا قصيرًا تظهر عنده امرأة تعرف معطفها.

كانت هالة، بعكازها، وبينها وبين الأرض ثلاث درجات فقط. جلال واقف أسفلها، ورجل آخر يحاول إنزال مقعد إلى موضع لا يسمح له بالدوران.

انتظرت سارة أن تتحرك هالة. بدلًا من ذلك جلست المرأة على الدرجة العليا، وأبعدت العكاز عن الطريق.

أُغلقت فتحة سقف المركبة. جاء السائق، وهو رجل بشري هذه المرة، وتفحص مقاعد القافلة على الشاشة. ظل الضوء فوق الباب أحمر.

قالت أم سارة: «لماذا لا نذهب؟»

لم تجبها. كانت تنظر إلى الدرج، وتحاول أن تقرر إن كان الماء اللامع على حافته مطرًا فقط.

الفصل التاسع عشر

رائد تحت الأنقاض

وصل التصحيح إلى سارة من امرأة تشكر جلال على توضيح الحقيقة.

فتحت الرسالة وهي تظن أنها ستقرأ أخيرًا الكلمات التي كتبتها في العيادة. كان اسمها ظاهرًا، وصورتها أُزيلت. تحت عنوان صغير جاء أن مشاركة السيدة سارة الإدريسي في اللقاء لم تكن مؤكدة، وأن الجمعية تحترم قرار الأسرة تأجيل الظهور العام، وتواصل دعمها لكل الأسر التي تحافظ على إمكان ولادة أطفال غير معدلين.

وفي السطر التالي: «يبقى حمل السيدة سارة بطفل غير معدل مصدر أمل لكثيرين، بعيدًا عن أي استعمال سياسي.»

لم تكن هناك جملة تقول إن الوصف غير صحيح.

أعادت القراءة. في النسخة التي أرسلتها إلى دائرتها كانت العبارة واضحة: أظهرت المتابعة أن وصف جنينها بأنه غير معدل غير صحيح، ولا تريد استعمال حملها دليلًا في النقاش العام. لا أسماء تحاليل، ولا تفاصيل عن جدتها، ولا اعتذار عن خيبة أحد. هنا صار قرارها تأجيلًا، وصار التصحيح حماية لها من السياسة، بينما بقي الطفل يؤدي العمل نفسه.

ظهر تحت الرسالة تعليق: «كنا نعرف أنها لن تتخلى عنا.»

بدأت تكتب. حذفت أول كلمة لأنها شتيمة. كتبت: «جلال، هذا ليس...» ثم سمعت أمها تناديها لتبتعد عن الباب. كان الفريق يحاول إدخال امرأة إلى المقعد الأمامي. سحبت سارة ساقيها، وانزلقت الحقيبة عن ركبتيها. وضع أنس الهاتف في يدها بعد أن كاد يسقط، لكن الشاشة انطفأت.

خارج المركبة كان جلال ما يزال عند هالة. رأته يرفع طرف المقعد مع الرجل الآخر. لم يتسع المدخل. مالت هالة إلى الحائط، وصرخت حين حاولت تثبيت ركبتها. توقف الرجلان.

اقتربت آلة ذات جسم عريض، تنتهي مقدمتها بحامل مبطن يمكن رفعه. عرفت سارة هذا النوع من مركز التأهيل؛ يحمل الأشخاص من السرير إلى المقعد. كانت تسير الآن فوق ألواح مؤقتة، يقودها مسعف عبر جهاز في كفه. وقف جلال في طريقها لثانية، يشير إلى السلم ويتحدث بسرعة. لم تسمع الكلمات من خلف الزجاج.

قال المسعف شيئًا، وأشار إلى السماء ثم إلى قدمي هالة. بسطت المرأة ذراعها نحو الحامل. رأى جلال الحركة، فتراجع. انحنى، وأخذ منها العكاز. رفع المسعف طرف معطفها عن موضع التثبيت، وأدخلت الآلة حاملها تحت جسدها ببطء. أمسكت هالة بكتف جلال حين ارتفعت، ثم تركته عندما استقر المقعد.

بقي واقفًا يحمل العكاز في الهواء. لم يعد هناك ما يسنده به.

جاء خلف الآلة حتى باب المركبة. وضعت هالة في المقعد، ودفع الرجل الحقيبة تحت قدميها. حين رفع رأسه رأى سارة وهاتفها المفتوح. عرف، أو خُيّل إليها أنه عرف، من غير أن يحتاج إلى السؤال.

قالت: «حذفتَ الجملة.»

تحرك المسعف بينهما ليفحص الحزام. اضطر جلال إلى التراجع نصف خطوة.

«نتكلم حين نصل.»

«أرسلتها لك كاملة.»

أُغلق الباب قبل أن يجيب. لو أراد كان يستطيع أن يرفع صوته؛ لكنه بقي وراء الزجاج، عكاز هالة في يده. انتبهت المرأة، فضربت النافذة بإصبعها. فُتح الباب ثانية، ومده إليها. لم ينظر جلال إلى سارة هذه المرة.

تحركت المركبة.

بقيت الجملة التي لم ترسلها في خانة الكتابة. أضافت إليها كلمات، ثم انحنى جسدها على شدّ جديد في أسفل البطن. انتظرت أن يخف. خف، وعادت إلى الشاشة، فإذا بالمركبة تمر إلى جانب ناقلة طبية بيضاء، ومن خلف زجاجها وجه صغير تعرفه.

نور.

لم تكن متأكدة أولًا؛ ثم رأت يونس في المقعد المقابل، ورأت ميرا واقفة عند باب النقطة الطبية، تتحدث إلى رجل يحمل صندوق أدوات. رفعت سارة كفها. انتبه يونس، ورفع رأس نور قليلًا لتراها. ردت الطفلة بإصبعين، كأنها في رحلة مدرسية لا تعرف كيف ينبغي توديع أهلها.

كانت الممرضة تقول لسارة شيئًا. لم تسمعه من المرة الأولى.

«هل عاد الشد؟»

قالت نعم. سألتها عن الزمن بينه وبين الذي قبله، فلم تعرف. أخذت الممرضة الهاتف لتفتح الساعة، وأعادته بعد أن أخبرت السائق أن يبقى قريبًا من المسار الطبي.

بعد دقائق جاء الألم من الظهر إلى الأمام، مختلفًا بما يكفي لتترك سارة الهاتف في الحقيبة. رأت الطريق من النافذة يتشعب. واصلت قافلة نور نحو الميناء، فيما انعطفت مركبتهم إلى المركز الطبي في الجهة العليا من المدينة.

لم تعد النسخة الناقصة أمامها. بقيت منشورة في الخارج، تعمل بلا حاجة إلى وقتها.

⁂

لم تستطع ميرا أن ترى البحر من الممر، لكنها كانت تسمعه يتغير كلما انسد منفذ جديد.

كانت قد وصلت مع نور إلى نقطة الانطلاق قبل قليل. احتاج فريق النقل إلى استبدال حامل مكوّن في العربة، فجاء آدم من الورشة القريبة ومعه رائد. أخبرها آدم أنه عاد من المنشأة منذ أيام مع وحدات التعاونية، وأنهم يستعملون معرفته بالمعدات القديمة حين تعجز الوصلات الجديدة عن التوافق معها. كان مستشعره الأكبر يلتفت نحو حقائب المرضى، وذراعه ذات اللحام القديم ثابتة إلى جانبه.

بعد انتقال نور إلى العربة النهائية جاء النداء من المبنى المجاور. جناح انتظار أُخلي معظمُه، لكن ممره الخلفي تضرر بعد هبوط جزء من الطريق الساحلي. بقي ثلاثة أشخاص في غرفة خدمات، وعامل يحاول الوصول إليهم. سمعت ميرا أصواتهم وراء جدار يمكنها أن تلمسه.

قالت ليونس أن يرافق نور حتى بوابة الميناء. ستلحق بهما مع فريق الخدمات. لم يعدها بأن ينتظر؛ الوقت الذي يسمح بالعبور يخص مرضى آخرين أيضًا. أعطاها حقيبتها، فتركتها عند آدم كي لا تعيقها. ثم دخلت خلف رائد.

كان الممر مظلمًا عند نصفه. الألواح السقفية ساقطة، وماء مختلط بالتراب يجري على الجانب الأيسر. في آخره ظهر مصباح يتحرك. نادى العامل بأنه لا يستطيع سحب الكرسي عبر الفجوة. أمرته امرأة من فريق الإنقاذ بالبقاء حيث هو حتى يثبتوا الممر.

عرفت ميرا بعض المبنى. رممت زخرفة في قاعته منذ سنوات، حين كان مركزًا صغيرًا لاستقبال العائدين من العلاج. كان الممر الذي تقف فيه وقتئذ واسعًا، مصقولًا، ورجل يحرس بابه من عربات الشحن كيلا تخدش الأرض. الآن كانت الخدوش آخر ما يمكن أن يلحق بالأرض من أذى.

تقدم رائد حتى الحافة. أرسل صورة للممر إلى جهاز القائدة. سمعته يقول إن الحامل السفلي لا يحتمل عبور الكرسي في موضعه الحالي. أشارت المرأة إلى لوح معدني عند الحائط، وطلبت من وحدة خلفهم سحبه. امتدت ذراع،

ثم توقفت عند حجارة تسد الزاوية. احتاجوا إلى مساحة للدوران لا يملكها المكان.

قال رائد: «أستطيع تثبيت الطرف.»

لم يقل كيف إلا حين سألته القائدة. فتح دعامتين من جانبيه، ومد الجزء الخلفي من هيكله إلى الحائط السليم. كان يمكنه أن يصير نقطة ارتكاز لجزء اللوح، بزاوية لا تستطيع الوحدة الأكبر بلوغها. أرسل التقدير، وحذر من أنه سيضطر إلى تعطيل الحركة ما دام الحمل فوقه.

فحصت القائدة الأرقام سريعًا، ثم طلبت تدعيم الجهة الأخرى. تحرك الناس لأن عليهم الحركة. نُقل اللوح، ومد عامل حبلاً، وأضيء موضع القدم الأولى.

جلست ميرا عند الطرف القريب لتستقبل من يعبرون. كان أولهم شابًا يمشي، لكنه لا يرى جيدًا. أعطته صوتها كي يتبعه. حاول الاعتذار لأنه يدوس على أدواتها، فقالت له أن يضع القدم التالية حيث تقول. وصل إليها، فسلّمته إلى مسعف خلفها.

في الجانب الآخر امرأة مع طفل أكبر من أن يُحمل بسهولة. ضغط الطفل رأسه في صدرها. كلما حاولت فصل ذراعه عن عنقها تشبث أكثر. قالت القائدة إن عليه العبور وحده مربوطًا بالحزام، لأن جمع وزنهما على الموضع نفسه يزيد الخطر. بدأ الطفل يبكي قبل أن ينتهوا من الشرح.

عرفت ميرا ذلك البكاء: رفض التعليمات لأن تنفيذها يجعل الخوف حقيقيًا. زحفت قليلًا فوق الطرف الثابت من اللوح، وأرته رباطًا أصفر في معصمها. قالت إنه يستطيع أن ينظر إليه فقط. انتظرت أن تخف قبضة أصابعه على ثوب أمه، ثم طلبت منه أن يغضب منها لاحقًا إذا أراد.

عبر وهو يشتمها بصوت باكٍ. حين وصل أمسكت به حتى ابتعد عن الحافة، ثم أعادته إلى ذراعي مسعفة. كان صوته العالي دليلًا أنها استطاعت إخراجه إلى مكان يستطيع فيه أن يكرهها.

تحرك اللوح تحت المرأة حين بدأت عبورها. ليس كثيرًا، لكن بما يكفي ليصدر عن رائد صوت احتكاك غريب. نظرت إليه ميرا. ضغطت الدعامتان على الجدار، وصار مستشعره الصغير مائلًا إلى الأسفل. ظهرت على جهاز القائدة علامة إنذار، فطلبت من المرأة أن تثبت قدمها وألا تعود إلى الخلف. أكملت العبور على ركبتيها، وجرحت راحتها في حافة المعدن.

بقي صاحب الكرسي والعامل.

كان الرجل على الكرسي صامتًا. ربطوا جسده إلى مقعد نقل أخف، وحمل العامل طرفه بينما سحبت القائدة الطرف الآخر بالحبل. تقدمت ميرا إلى الموضع الذي يمكنها فيه استقبال الوزن. قالت له أن يخبرها إن زاد الألم، فنظر إليها كأنه لا يفهم لماذا يسألونه عن الألم في مكان كهذا.

في منتصف الطريق دوّى كسر خلف رائد. لم ينسحب اللوح، لكنه هبط قليلًا من جهة المبنى. شدّت ميرا ذراعيها حتى استقر المقعد على الطرف القريب. كان الجلد عند قاعدة إبهامها يضغط على حافة صلبة، والحس الجديد الذي أعطاها إياه رائد منذ أيام يرسل إنذارًا واضحًا. رفعت الرجل مع القائدة، وأخرجتاه.

صرخ العامل أن طرف سترته عالق. رأت ميرا ما أمسك به: شريحة من المعدن تحت حافة الحامل. لم تستطع القائدة العودة بوزنها. مد رائد ذراعه العاملة، فأمسك القماش قريبًا من موضع الانحشار، وجذبه حتى انشق. سقط العامل إلى الأمام، وزحف على اللوح وهو يترك جزءًا من سترته وراءه.

وصل.

لم تتحرك ميرا مع الآخرين. رفعت رأسها إلى رائد. كانت إحدى دعامتيه قد غاصت في طبقة الجدار، والأخرى ترتجف ارتجافًا سريعًا لا يظهر إلا في طرفها. قالت للقائدة إنهم يستطيعون إزالة اللوح الآن. بدأت المرأة ترسل أمرًا إلى الوحدة في الخارج، ثم وصل صوت منخفض من رائد:

«ابتعدي عن الحافة.»

أرادت أن تسأله عن نقطة الفصل. عرفت الموضع الذي يمكن عنده تعطيل إحدى الدعامتين يدويًا، لكنها لم تعرف ما يحمله الهيكل فوقها بعد أن سقط السقف الجزئي. تذكرته في الورشة يطلب منها ألا تحرك المعصم قبل انتهاء القياس. الصوت نفسه، والاقتصاد نفسه في الكلمات؛ هذه المرة لم تحتمل الطاعة.

وضعت ركبتها على اللوح.

أمسكت القائدة كتفها وسحبتها بعنف. انشق شيء فوقهما، وانفجر الغبار في الممر. لم ترَ سقوط القطعة الكبرى؛ رأت الضوء يختفي، ثم سمعت المعادن وهي تتضارب تحت ثقل لا تستطيع تقديره. ارتطم ظهرها بالجدار، ودخل طعم التراب إلى فمها.

حين هدأ الصوت كان طرف اللوح ما يزال ظاهرًا، لكن ما وراءه صار جدارًا من ركام جديد.

نادت رائد. جاء على جهاز القائدة رد آلي يعلن فقد الاتصال بوحدة ميدانية. نادته باسمه مرة أخرى، كأن النظام أخطأ في الطريقة التي يخاطبه بها.

لم يجب.

استطاعت أن ترى جزءًا من ذراعه عبر فجوة صغيرة. اللحام القديم ظاهر، والمفصل ملتف في وضع لا يحدث أثناء العمل. مدت أصابعها نحو الفتحة، فأخرجتها القائدة من الممر. قاومتها هذه المرة، فالتفتت المرأة إليها وقالت: «إذا رجعتِ، سأحتاج إلى إخراجك أنت أيضًا.»

كانت جملة خشنة. بقيت ميرا تكرهها طوال الطريق إلى الضوء، ثم لم تجد فيها كذبة واحدة.

في الخارج جلس الطفل الذي شتمها على صندوق، يشرب ماء من غطاء زجاجة. وصلت أمه، فسكب الماء حين نهض إليها. كانت دمعة قد تركت خطًا نظيفًا وسط الغبار على خده. أرادت ميرا أن تشعر بأن هذا يكفي. لم تستطع.

جاء آدم. رأى عينيها وسأل عن رائد قبل أن يسأل عن الجرح. هزت رأسها، ثم قالت إنها لا تعرف. كانت لا تريد إعطاء الموت اسمًا قبل أن يعود الفريق إلى الركام. طلب آدم سجل الاتصال الأخير، وحفظه في جهازه. قال إن وحدات رائد ترسل أجزاء من عملها إلى التعاونية، وإن ذلك قد يساعدهم في فهم ما تعطل.

«هل يعيده؟»

«لا أعرف طريقًا يعيده كما كان.»

نظرت إلى الحقيبة التي تركتها عنده. كانت هناك، سليمة، وزرّها مغلق. أخذتها بيدها المصابة. من الميناء جاء النداء الأخير لرحلة المرضى. تحرك آدم معها، ووراءهما أعادت القائدة توزيع فريقها على مدخل آخر.

لم يتوقف الإنقاذ حين غاب رائد. كانت الآلات الأخرى تعمل، وهذا ما لم تستطع ميرا احتماله وهي تمشي.

الفصل العشرون

النجاة

طلبت الممرضة من ميرا أن تنظف يدها قبل أن تلمس نور.

كانت قد عبرت المضيق من غير أن ترى منه إلا قطعًا بين النوافذ المعتمة. جاء يونس إليها حين وصلت إلى المركب، وأخذ الحقيبة. رأى الدم عند إبهامها، فسأل. قالت إن الجلد انفتح، وإنها تستطيع تحريكه. سأل عن رائد، فلم تستطع أن تجيب أمام نور. تراجع إلى المقعد، ووضع الحقيبة بين قدميه، وترك للسؤال موضعًا فارغًا حتى يصلوا.

الآن، تحت الضوء الأبيض، بدا الجرح صغيرًا. غسلت الممرضة ما علق فيه من غبار، وفحصت ما تحته. لا ضرر ظاهرًا في الجزء الداعم، ولا تسرب في خط التغذية. وضعت ضمادًا مرنًا، وطلبت من ميرا معايرة الضغط حين يهدأ كل شيء. كادت تضحك عند العبارة. الشخص الذي كانت ستذهب إليه ليقيس الضغط لم يعد في ورشته.

نور مستلقية في الغرفة التي ستنتظر فيها بدء التدخل. أعادوا الفحوص، وراجعوا ما تغير خلال النقل. أعطاها الانتظار فرصة لتخاف من جديد، وأعطى ميرا وقتًا تتخيل فيه كل ما لا يُرى وراء الأبواب.

قالت نور: «لماذا يدك ملفوفة؟»

«جرحتها وأنا أساعد في إخراج الناس.»

«خرجوا؟»

«الناس خرجوا.»

لم تكن تنوي أن تجعل كلمة الناس حاجزًا. سمعتها بعد أن قالتها، ورأت يونس ينظر إليها. سألت نور عن رائد، فقد رأته في نقطة الانطلاق. جلست ميرا قرب السرير.

«بقي تحت جزء من المبنى. لم يستطع الفريق الوصول إليه بعد.»

نظرت نور إلى الضماد، ثم إلى الباب. ظل وجهها ساكنًا على نحو خافت منه ميرا أكثر مما كانت ستخاف من بكائها.

«هو الذي أصلح يدك.»

«نعم.»

لم تطلب نور تفاصيل. قربت السترة الرمادية إلى صدرها. بعد قليل قالت إنها لا تريد الحديث عنه قبل أن تدخل، وإنها تريد أن تعرف حين تخرج. وعدتها ميرا بذلك وحده.

جاءت سلمى ومعها فني من مدار. كان آدم ينتظر في الخارج، يحمل صندوقًا نحيفًا. طلبه الفني لمراجعة قطعة تكييف خارجية تخص وحدة الدعم التي ستستعملها نور في التأهيل. نموذجها الأول قديم، ودفعة النقل الأخيرة جاءت بحامل أحدث. كان بالإمكان تدبير بديل، لكن آدم يعرف القطعة التي صنعها قبل السفر، ويستطيع اختصار وقت التحقق من ملاءمتها.

سمعت ميرا الفني يقول إن عليهم إبقاء واجهة الصيانة مفتوحة للتعاونية. كان رجلان من جهتين مختلفتين يحاولان ألا تعطل وصلة صغيرة عمل غرفة كاملة. اعترضا على قياس، أعاداه، ثم اتفقا على قطعة لن يراها أحد حين تُغلق الوحدة.

سألت سلمى نور عن الاسم الذي تريد أن يناديها به الفريق حين تستيقظ. استغربت السؤال، ثم قالت: «نور. هو اسمي.»

ابتسمت الطبيبة وقالت إن بعض الناس يفضلون اسمًا عائليًا. فكرت نور قليلًا.

«لا تقولوا لي بطلة.»

قالت سلمى إنها ستكتب ذلك أيضًا.

عندما جاء وقت النقل أمسكت نور بكم أبيها. لم تتراجع عن القرار. أرادت فقط ألا يذهب إلى مكان آخر وهي في الداخل. أراها يونس المقعد الذي سيجلس فيه، كأن تحديد قطعة أثاث يجعل الوقت أقل اتساعًا. ثم التفتت إلى ميرا.

«والورقة؟»

أخرجتها ميرا من الحقيبة. ظهر على ظهرها رسم مطبوع لطبق خضار، وتحت الرسم سؤال عن الاتصال. وضعتها نور قرب سترتها، وتركتها لأمها.

دخل السرير، وتبعه الطاقم. ظل الباب مفتوحًا قليلًا قبل أن ينغلق. كانت ميرا تستطيع في تلك الثواني أن ترى قدمي ابنتها تحت الغطاء، وتشتهي شيئًا غير معقول: أن يتأخر الباب مقدارًا صغيرًا، من غير أن يتأخر العلاج.

جلس يونس على المقعد الذي أراه لنور. بقيت هي واقفة.

بعد ربع ساعة حاول أن يجعلها تجلس. قالت إنها مرتاحة. بعد ساعة جلست، لا لأنها اقتنعت، بل لأن جسدها بدأ يطلب دورة تغذية لم تنتبه إلى موعدها. أخرجت العبوة من الحقيبة. كان غطاؤها محكمًا أكثر مما تستطيع يدها المجروحة احتماله. أخذه يونس وفتحه، ثم أعاده من غير أن ينظر إلى موضع الاتصال.

شرب هو ماءً. لم يأكل. قسمت قطعة خبز من كيسهم، ووضعتها على ركبته. ظلا هكذا، يقدمان أحدهما للآخر أشياء يستطيع رفضها، لأن الشيء الذي يريدانه ليس عند أي منهما.

وصل اتصال أمينة قرب الظهر. كانت سارة في المركز الطبي بطنجة. التقلصات استمرت، والفريق يحاول التعامل مع الولادة المبكرة بحسب تطور الحالة. دخلت الأسبوع الثاني والثلاثين حديثًا. أخبرتهما أن الجنين تحت المتابعة، وأن أنس وأم سارة معها.

قال إنه يستطيع الكلام إن احتاجوا شيئًا من التاريخ السابق. أجابته أن ما يلزمهم موجود، وإنها ستبلغه حين يكون هناك جديد. بعد أن أغلق، سألته ميرا إن كان يريد النزول إلى غرفة يستطيع الاتصال منها. هز رأسه.

«أنا هنا الآن.»

وضعت ساقيها متوازيتين فوق البلاط، كما طلب منها رائد في أول معايرة تتذكرها. جاءها الفعل من غير أن تختاره. غيرت وضعها بسرعة، فالتفت يونس إليها. عندئذ أخبرته.

قالت إن هيكله كان يحمل اللوح، وإن الآخرين عبروا، وإنها حاولت الرجوع. سأل إن كان الفريق عاد إلى الموضع. وصلها من آدم خبر قصير: عادوا إلى مدخل جانبي، لكن الركام غير مستقر. حفظ ما أمكن من الاتصال. لا إشارة جديدة.

نظر يونس إلى الرسالة. قال: «كنتِ تعرفينه منذ البداية.»

هزت رأسها. كانت العبارة البسيطة أكثر مما استطاعت احتماله. وضعت وجهها بين كفيها، ثم أبعدت اليد المصابة. لم تكن تبكي كما يبكي البشر؛ بعض استجابات جسدها تأتي على نحو مختلف، لكن الألم لم يكن أقل ضيقًا لأنه لا يتخذ الشكل الذي يتوقعه الناس.

جلس أقرب. بقي الكوعان متجاورين فوق مسند لا يكفيهما.

في العصر جاء فني ليخبرهما أن المرحلة الأساسية انتهت، وأن الفريق يراجع الاستجابة قبل نقل نور. سأل يونس سؤالين محددين. لم تعرف ميرا من صياغتهما إن كان مطمئنًا أم خائفًا. طلبت من الفني أن يقول لها ببساطة إن كانت حية وفي حال مستقرة الآن. قال نعم، الآن. تمسكت بالكلمة الأخيرة لأنها تمنع الجواب من أن يصير وعدًا كاذبًا، وكرهتها لأنها تترك المستقبل كله خارج الباب.

انتظرا أكثر.

في طنجة وُلد بشير قبل أن تستيقظ نور.

جاء الخبر في رسالة من أنس، من خمس كلمات أخطأ في كتابة واحدة منها. اتصل يونس. سمعته ميرا يسأل عن سارة، فأجابه الرجل أنها في الرعاية، مرهقة، وأن الطفل نُقل إلى وحدة حديثي الولادة. احتاج إلى دعم للتنفس ومتابعة، ولا يستطيعون الآن أن يقولوا أكثر. ثم سكت أنس حتى ظن يونس أن الاتصال انقطع.

«رأيته»، قال أخيرًا.

في الخلفية سمعا أم سارة تطلب منه الجلوس لأنه يسد الباب. لم تضحك ميرا، لكن شيئًا في صدرها ارتخى. تلك المرأة، حتى هنا، تحاول أن تعيد لكل شخص موضعًا يمكن الوقوف فيه.

لم تصل صورة للطفل فورًا. وصلت بدلًا منها صورة كيس ملابس فوق كرسي. اعتذر أنس؛ ضغط على الملف الخطأ. كتب يونس أنه لا بأس.

حين خرجت سلمى كان الضوء خارج النوافذ قد تغير. شرحت لهما ما أُنجز، وما بقي للمراقبة، ثم سمحت لهما بالدخول واحدًا بعد الآخر في البداية. دخلت ميرا أولًا لأن يونس أشار إليها.

لم يكن وجه نور مختلفًا كما تخيلت. كانت الشفتان جافتين، وهناك أثر شريط على الخد، وشعر أُبعد عن موضع العمل. عيناها نصف مفتوحتين. قالت ميرا اسمها، فتأخر النظر قليلًا ثم استقر عليها.

«ماما.»

جلست ميرا كيلا يسقط منها جسدها دفعة واحدة. قالت الممرضة إن على نور ألا تتعب. سألت نور إن كان أبوها في المقعد، فأخبرتها أنه خلف الباب. أغمضت عينيها، ثم فتحتهما.

«لا تتركيه هناك.»

جاء يونس. وقف قريبًا منها، وسمعته ميرا يقول جملة لا تصلح لأي شخص آخر: «أحضرت السترة الصحيحة.»

حاولت نور أن تضحك، فخرج صوت قصير متعب. شددت أصابعها على طرف الغطاء. كانت الحركة غير متساوية بين الجانبين، ورأى يونس ذلك، ورأت ميرا أنه رآه. لم يختفِ الأمر لأنهم فرحوا. سيعودون إليه غدًا مع الفريق، وسيصير جزءًا من الأيام التي تلي.

في المساء شرحت سلمى خطة المراقبة والتأهيل الأولى. الاستقرار الحالي مشجع، لكن التعب والإحساس والحركة تحتاج إلى وقت وإعادة قياس. لا يريدون اختبار كل شيء في ليلة واحدة. خرج الأبوان من الغرفة، وتركَا نور تنام تحت رعاية لم تعد تشبه ما كانا يعرفانه حين وُلدت، وإن بقيت الفتاة نفسها تطلب سترتها القديمة.

عند النافذة فتح يونس أخيرًا صورة بشير. طفل صغير وسط ما يبدو كثيرًا من المعدات على جسد واحد. لم يكن يواجه الكاميرا. طرف قبعة، خد، وكف بحجم لم تستطع ميرا تقديره إلا حين رأت إصبع أنس قريبًا منها.

كتب يونس لسارة تهنئة قصيرة لا تتضمن كلمة مستقبل. أضافت ميرا أنها ستأتي حين يستطيعون.

ثم وصلت صور الحي.

أرسلها عبد السلام ضمن تحديث للأسر: الشوارع خالية، الإخلاء اكتمل في القطاع، لا عودة قبل فحص جديد. في الصورة الثالثة ظهر بيتهم خلف حبل إغلاق. النافذة سليمة، والضوء مطفأ، وعند الباب الوعاء الذي كانوا يضعون فيه نبتة ماتت قبل سنوات ولم يرمياه.

كبرت ميرا الصورة. كانت تستطيع أن ترى الحافة التي ترك عندها يونس صندوقًا فارغًا. لم تفتقد شيئًا بعينه في تلك اللحظة. عرفت فقط أن الغرفة التي تنتظر ابنتها في طنجة لم تعد تنتظرها كما تركتها.

من الداخل جاء نداء الممرضة: نور تسأل إن كان بشير قد وصل.

أغلقا صورة البيت، وعادا إليها بالخبر الجميل.

الفصل الحادي والعشرون

قرار رحيم آخر

بعد تسعة أيام من علاج نور، وقف يونس في شارع بيته ولم يستطع أن يعرف أي رائحة كانت للمكان قبل أن يجف فيه البحر.

كان الطين قد تحول إلى قشرة تتفتت تحت الأحذية. في واجهة الدكان علق نصف إعلان ورقي، وتحته خط بني يحدد ارتفاع الماء. بدت العلامة أدق من ذاكرته؛ الأشياء تحفظ أحيانًا مقدار ما حدث لها أفضل ممن عاشوا فيه. عند المنعطف رأى شاحنة صغيرة تمتص الماء من حفرة، ثم تترك وراءها سطحًا يكاد يبدو صالحًا للمشي. أوقفته المهندسة قبل أن يخطو عليه.

«هذه طبقة رقيقة فوق فراغ.»

اسمها نادية. كانت تحمل عصًا معدنية وجهازًا، وتستعمل العصا أكثر. ضربت الأرض أمامه، فجاء الصوت أجوف. خلفها تمركز روبوت فحص رباعي القوائم عند الشق، وأنزل أداة إلى الداخل. ظهرت صور لم يفهمها يونس تمامًا. أشارت إلى الحافة التي هبطت، ثم إلى مسار القناة تحت البيوت.

«لو أعدنا البلاط فقط، سيبدو الشارع كما كان.»

«ولن يكون.»

«لن يكون آمنًا.»

فرقت بين مبنى يمكن تدعيمه، وآخر يحتاج إلى أساس جديد، وطريق لا يصلح للمركبات الثقيلة قبل معالجة التربة. أعجبه هذا الفرق؛ منذ بدأ الإخلاء وهو يسمع كلمة القطاع حتى كادت البيوت تفقد أشكالها. هنا، على الأقل، كان لكل جدار سبب لما يقال عنه.

وقف معهم عبد السلام وثمانية من السكان. جاء جلال من الطرف الآخر، يحمل صورًا مطبوعة، لا لافتة. كانت هالة في السكن الجديد؛ رفضت الجولة لأنها لا تريد أن ترى بيتها قبل أن يسمحوا لها بدخوله. قالت ليونس في الهاتف: «إذا كان عندكم كلام، جيبوه ليا حتى لهنا.» لم يستطع الاعتراض على شرطها.

بقيت ميرا مع نور في المنشأة، حيث بدأت الفتاة تجلس ثم تقف تحت المراقبة. في اتصال الصباح رفعت كوبًا، وسكبته حين حاولت أن تفعل ذلك بسرعة. ضحكت أولًا، ثم بكت لأن الجميع قالوا إنه طبيعي. كان يونس يتمنى لو كان معها ليجد جملة أقل إيذاءً من الطبيعي، ثم يعرف أنه ربما كان سيقول الجملة نفسها.

على الحاجز وقفت نادية عند الموضع الذي حمل عبد السلام صورته أشهرًا. لم يعد هناك سطح يصلح لوضع القدم. جزء منه اختفى، وجزء انقلب إلى الداخل. خلفه بدا خط الحماية الجديد مستقيمًا، حتى إن عين يونس راحت ترتاح إليه رغماً عنه.

سألها: «كان يمكن إصلاح هذا قبل أن يسقط؟»

أجابت نعم. سألت إن كان يقصد تقليل خطر الحادث الأخير أم منع كل خطر مستقبلي. قال إنه يقصد العمل الذي أوصى به تقرير عبد السلام. فتحت الملخص على جهازها، وطابقت التاريخ، ثم قالت إن التدعيم كان ممكنًا، بتكلفة أقل بكثير من إعادة التأهيل الحالية. لم تستطع أن تضمن أن الماء لن يدخل أي موضع، لكن الفشل الذي يرونه كان من المخاطر المسجلة.

أخرج جلال إحدى الصور. كانت تُظهر قافلة صيانة قرب المنشأة الجديدة، في يوم مشمس يبدو بعيدًا عن الكارثة.

«كانت المعدات هنا.»

«بعضها»، قالت نادية.

«وكان عندهم الوقت.»

قالت إن جدول الأشغال تغير ثلاث مرات، وإن كل تأجيل نقل العمل إلى موسم أصعب. اعترض رجل مسن بأنهم كانوا يدفعون رسوم الحماية. طلبت منه أن يحتفظ بالإيصالات لمطالبة التعويض، فغضب.

«لا أريد ثمنها. أريد ما دفعت من أجله.»

سكتت نادية. لم يكن عندها رد يعيد الخدمة إلى زمن دفع المال. كتبت اسم الرجل، وقالت إن شهادته ستبقى في الملف، ثم طلبت أن يبتعدوا لأن الروبوت يحتاج إلى إدخال ذراعه في الفتحة. تحرك الرجل متأخرًا، كأنه لا يريد أن يمنح الجهاز سهولة المرور.

في الباحة العليا جلسوا إلى طاولة جُلبت من المدرسة. لا قاعة مجلس ولا مقاعد مرتبة بحسب المناصب؛ كراسٍ غير متشابهة، وعلبة شاي فقدت غطاءها. انضم مسؤول الإسكان عبر شاشة، وموظفة من مكتب الحي، وطبيبة تدير شبكة الرعاية المحلية. لم يحضر ليث، وإن كانت بعض المراكز التي يمثلها ضمن المستفيدين من الأعمال الجديدة.

عُرضت الاحتمالات. إعادة الحي تتطلب حماية الساحل والأساسات ومسارات الخدمات، لا إصلاح البيوت وحدها. ستأخذ وقتًا طويلًا لا يمكن أن يقضيه السكان في أماكنهم. الانتقال الدائم أسرع، ويمكن الإبقاء على أجزاء من الشوارع كمساحات مفتوحة، لكن الشبكة الساحلية المزمع توسيعها تمر في موقع عدد من البيوت، ومنها بيت يونس.

قال صاحب الدكان: «إذن عرفتم ما ستفعلونه قبل أن تسألونا.»

أجابت الموظفة بأن التصميم لم يُعتمد نهائيًا. أراها صاحب الدكان خطًا على الخريطة، فاضطرت إلى القول إن هذا هو المسار المفضل فنيًا. أحس يونس بحركة صغيرة في الاجتماع: صار الكلام أدق لأن أحدهم رفض العبارة المريحة.

سأل عن مسار آخر. شرحت نادية أنه موجود، أطول وأشد تعقيدًا، وقد يحتاج إلى إغلاق جزء من الإمداد أثناء تنفيذه. لا يستحيل، لكنه يرفع الكلفة

ويؤخر نقل بعض الخدمات من مبانٍ مؤقتة. طلب يونس أن يبقى في المقارنة المكتوبة، لا أن يختفي لأنه غير مفضل.

اعترض المسؤول من الشاشة. قال إنهم لا يستطيعون إعادة كل حساب لأن أسرة تريد الاحتفاظ بنافذة. تغير وجه الموظفة، لكن الرجل أكمل. الأولوية لإيواء السكان وتشغيل الشبكة قبل الموسم التالي، لا لتفاصيل يعرف الجميع أن بقاءها غير عملي.

لم يعتذر حين صححه يونس.

«هذه بيوت»، قال يونس. «ولا يكفي أن تسمي ما يبقى من رغبتنا تفاصيل.»

«والانتظار له ضحايا أيضًا.»

أشارت الطبيبة إلى المركز المؤقت الذي تعمل فيه. هناك مرضى موزعون بين مبانٍ لا تستوعبهم، وخط نقل الأنسجة يعمل بتحويلات يومية، وأجهزة تضبط أحوالًا لا تستطيع الانتظار حتى ينتهي الخلاف. تكلمت عن امرأة عالجتها صباحًا، وعن انقطاع لم يقتل أحدًا لكنه اضطر فريقًا إلى البقاء ساعات عند سرير واحد.

تذكر يونس كوب نور.

كانت تعيش الآن بفضل عمل منظم يشبه ما تطلب الطبيبة تمويله. يستطيع أن يعترض على الجملة التي قيلت عن النافذة، ولا يستطيع أن يطلب من تلك المرأة أن تنتظر باسم حقه في البيت. هذا ما كان يضيق حوله: أن يكون كل وجه في الطرف الآخر وجهًا يستحق العناية أيضًا.

قال جلال إنهم وضعوا السكان أمام أمر واقع، وإن أي موافقة ستمنحهم براءة لا يستحقونها. وافقه صاحب الدكان، ثم سأل أين سيبيت إن رفض. عرض عليه جلال ترتيبًا مؤقتًا مع الجمعية. سأله الرجل عن مدة المؤقت. لم يعرف.

ضرب جلال كفه على الطاولة. انسكب الشاي على إحدى صوره.

«إذن نفعل ما يريدون؟»

قال يونس: «لا أعرف بعد ما سأفعله. لكن هالة لا تستطيع أن تصعد إلى غرفتها، ولو كتبنا أفضل اعتراض.»

«ستستعمل اسمها لتبرر النقل؟»

«اسمها موجود في القرار سواء قلتُه أم لم أقله.»

لم يستطع يونس أن يكون هادئًا كما أراد. سمع خشونة صوته، وفكر في سارة، في الطريقة التي يصبح بها كل شخص مثالًا في حديث شخص آخر. توقف. أخرج هاتفه، واتصل بهالة أمامهم. قال إنهم يناقشون الانتقال الدائم، وإنها طلبت أن يصلها الكلام إلى حيث هي. وضع الجهاز على الطاولة.

استمعت إلى شرح موجز، ثم سألت عن جارتها. ليست الجارة التي خرجت معها، بل التي نُقلت إلى طرف آخر من المدينة ولا تعرف في مسكنها أحدًا. سألت إن كانت الغرفتان تستطيعان أن تكونا في المبنى نفسه. قال المسؤول إن ذلك ليس مضمونًا. قالت إنها لن تعتبر السكن المعروض مناسبًا قبل أن ينظروا في الطلب.

سألت إن كانت تستطيع فتح نافذتها بنفسها، وإن كان المطبخ يسمح بإعداد الطعام، وإن كان أحد سيوقظها كل صباح لقياس شيء لا يحتاج إلى قياس يومي. كانت تريد حياة في المكان البديل، لا مكانًا لحفظ جسدها.

كتب يونس الأسئلة. نظرت الموظفة إلى القائمة وبدأت تعدل الطلب.

قالت هالة في النهاية: «أنا ما نرجعش لهاد الدروج. ولكن لا تكتبوا أنني خرجت فرحانة.»

أُغلق الاتصال. بقيت الصورة المبتلة أمام جلال، ولم يمسحها.

عاد يونس إلى الخريطة. سأل عن حقوق من يرفضون التعويض الحالي، وعن إمكان الاعتراض من دون أن تتوقف رعايتهم أو تتعطل إقامتهم المؤقتة. احتاج إلى الإلحاح حتى يحصل على فصل واضح بين الأشياء. لم يقبل أن تصبح الموافقة على السكن توقيعًا بأن الحماية القديمة كانت كافية، ولا أن يكون صرف المساعدة مشروطًا بسحب الشكوى. اعترض المسؤول

على إطالة الإجراءات، فطلبت الموظفة أن يكملوا صياغة البنود قبل رفع الجلسة.

كان هذا القدر من العمل مملًا ومهمًا. عرف أنه حتى لو حصل على كل ما طلبه، ستظل الآلات تفك البيت.

عند الغروب عاد وحده إلى أول الشارع. لم يسمحوا له بدخول المبنى. وقف خلف الحبل، ورأى نافذة المطبخ مفتوحة قليلًا. تذكر أنه أغلقها، ثم فهم أن فريق الفحص فتحها للتهوية. كان شخص آخر قد دخل البيت، وفعل فيه شيئًا مفيدًا، من غير أن يحتاج إلى عادته في إدارة المقبض.

اتصل بميرا. أخبرته أن نور نامت بعد تدريب متعب، وأن يدها أقوى اليوم من الصباح. سألها عن الألم، فقالت أقل. ثم سألته عما قرروا.

شرح. سمعته حتى انتهى، ثم قالت إنها تريد أن تدخل البيت مرة أخيرة قبل أن يعملوا فيه. أجاب بأنهم وعدوا بزيارة قصيرة بعد التدعيم المؤقت.

«هل وافقت؟»

نظر إلى الشق الممتد تحت الشرفة.

«سأوافق على الانتقال. وسأقدم الاعتراض على الذي جعل الانتقال لازمًا.»

قالت إنها ستجلس معه حين يكتب.

في المساء، أمام موظفة تعرف اسمه منذ طفولته، وقع طلب إعادة الإسكان. وضعت إصبعها على خانة أخرى تخص إزالة المبنى بعد استكمال التقييم. قرأها مرتين، وطلب إرفاق تحفظه المكتوب. انتظرت حتى انتهى.

كان القلم عاديًا، مستعارًا من كأس على المكتب. حين وضعه بعد التوقيع لاحظ أنه يلطخ الإصبع. مسح الحبر بمنديل، ولم يزل كله.

خرج فوجد صاحب الدكان عند الباب يحمل طلبه هو أيضًا.

سأله الرجل: «أين وضعوك؟»

لم يعرف يونس بعد.

الفصل الثاني والعشرون

تفكيك البيت

لم يعد المفتاح يدير القفل.

جربه يونس مرة ثانية، ثم نظر إلى الرقم على الباب ليتأكد من شيء لا يمكن أن يخطئه. وقفت ميرا خلفه، تحمل صندوقًا فارغًا. بعد قليل قال العامل المرافق إنهم بدلوا الأسطوانة لأن الباب انحرف بعد هبوط الأرض، وفتح لهم بمفتاح قصير مربوط إلى حلقة عامة.

دخلت ميرا بيتها، للمرة الأولى، بإذن مرور صادر عن شخص آخر.

لا شيء في الغرفة الأولى يشبه الخراب من بعيد. المائدة في مكانها، والرف قائم، والستارة معلقة من طرف واحد. لكن الأرض مغطاة بغبار ناعم، وخطوط القياس الملونة تعبر الجدران. مربع برتقالي على الجهة التي كانت نور تسند إليها ظهرها حين تنتظر الإفطار؛ سهم عند الموقد؛ أرقام صغيرة قرب أنبوب لا تتذكر أنها رأته يومًا. بدا البيت مكشوف العظام، مع أن أكثر أثاثه ما يزال فيه.

سمحوا لهما بنصف ساعة في الجزء المدعّم. الغرفة الخلفية ممنوعة، والسقف فوق الممر يحتاج إلى إسناد طوال الزيارة. وقف روبوت ثقيل قرب الباب، مثبتًا ذراعًا عريضة أسفل عارضة مؤقتة. كان دخولها ممكنًا لأن آلة تحمل فوقها ما لم يعد البيت قادرًا على حمله وحده.

قال العامل إنهما يستطيعان طلب وقت إضافي إن لزم إخراج شيء محدد، لكن عليه أن يعرف ما هو. نظرت ميرا إلى الغرف. لا شيء محدد يكفي.

بعد أسبوع من جولة الحاجز صارت ترتيبات الإزالة جاهزة في الصف الأول من المباني. بدأت الأعمال بالأجزاء التي تهدد الممر العام، ثم بالمنازل التي اختار أصحابها التعويض والنقل. بيتهم في المسارين معًا. عُلقت خطة

العمل على سياج الشارع، وتحتها قائمة بالمقتنيات التي يمكن طلب انتشالها. كانت الكلمات دقيقة، مهذبة، لا تخفي الفعل ولا تحتمل ما يعنيه.

بقيت نور في التأهيل مع فريق يعرفها الآن. طلبت صورة للمطبخ قبل التفكيك، ثم ألغت الطلب بعد ساعة. قالت إنها لا تعرف إن كانت تريد أن تراه. حملت ميرا جهاز المسح، وتركته مطفأ في جيبها.

ذهب يونس إلى الحوض. رفع الصنبور، فلم يخرج ماء. كانت الحركة قديمة إلى حد أنها حدثت قبل أن يتذكر أنهم فصلوا الخطوط. أعاده إلى موضعه، ثم وضع الكوب الذي وجده مقلوبًا على الحافة. لم يحتج الكوب إلى غسل؛ احتاج هو إلى عمل يعرفه.

فتحت ميرا درج أدوات المطبخ. بدا الملقط أكبر مما تتذكر، والسكين التي جُرحت بها نور عادية إلى حد خيّب خوفها. أخذتها، ثم وضعتها. ليس في حملها وفاء لشيء. لكنها أخذت لوح الخشب.

كان قد غُسل منذ ذلك الصباح مرات كثيرة. لا دم عليه، ولا علامة تصلح لمن يأتي بعدهم أن يفهم ما وقع. خدوش متقاطعة، أثر دائرة من قدر ساخن، وشق صغير عند المقبض. مررت أصابعها على الشق، فانتبهت إلى حس الضغط الذي استقر أخيرًا في يدها. رائد أصلح شيئًا سيستمر في عمله داخلها، بينما لا تستطيع أن تستعيد صوته إلا إذا شغلت ملفًا.

وصلها الخبر النهائي قبل يومين. أخرج الفريق الأجزاء التي تمكن من الوصول إليها. البنية الأساسية تضررت بما لا يسمح بإعادة تشغيلها على نحو يعيد رائد الذي عرفوه. عرضت التعاونية حفظ ما بقي، ونقل ما يصلح من القطع إلى معدات أخرى بعد فحصها. لم تستطع ميرا أن تجيب فورًا. وفي المساء طلبت أن ينتظروا حتى تأتي؛ لم تطلب دفن الحديد، ولم تقدر أن تقول إن إعادة استعماله أمر بسيط.

وضعت اللوح في الصندوق.

«هل سنحتاجه؟» سأل يونس.

«ربما.»

كان يمكنه أن يقول إن لديهم لوحًا جديدًا في المسكن المؤقت. لم يفعل. أخذ إبريقًا من الرف، وقلبه ليتأكد من خلوه، ثم لفه بقميص تركوه في الزيارة السابقة. تذكرت ميرا القميص؛ كان ينوي رميه لأن كمه تمزق. الآن صار له عمل أخير أفضل من انتظار ذراع لن تلبسه.

من النافذة رأت روبوتات المسح تمضي على امتداد الشارع. لا تحمل مخالب هائلة، ولا تشبه الصور التي يُرسم بها هدم المدن. أجهزة صغيرة تقرأ الأرض، تتوقف، وترسل علامة إلى آلة أكبر تعمل عند الأساسات. في المكان الذي كان الأطفال يضعون فيه كرة كي لا تتدحرج، رسم ضوء أخضر مسار القناة الجديدة.

سأل يونس العامل إن كان هذا خط تغذية المنشأة. قال إنه واحد من الخطوط؛ إمداد وتبريد ومرور خدمات، وستكون هناك سعة احتياطية حتى لا يتكرر انقطاع النقل الأخير. كان الرجل يشرح فائدة العمل بحسن نية. نظرت ميرا إلى يونس، فرأت عضلة في فكه تتحرك.

«من أجل هذه الشبكة أُجّل الحاجز»، قال.

لم يعرف العامل تفاصيل القرار القديم. قال إن الجدول الذي معه يبدأ من هذا الشهر.

كان ذلك صحيحًا على الأرجح. يبدأ عمله من هنا، وعمل موظف التعويض من هناك، وعمل الطبيب من سرير بعينه. لم يكن أحد في الغرفة يستطيع أن يضع أمامهما سلسلة كاملة من التواقيع، ثم يعيد ترتيبها حتى يبقى البيت واقفًا.

اقترب يونس من النافذة. حاول إغلاقها، فعلق المفصل السفلي. رأت كتفه يرتفع إلى الموضع الذي اعتاد أن يرفع به الإطار، ثم توقف. لم يعد للإغلاق غرض، لكن جسده لم يعرف ماذا يفعل بالحركة المقطوعة.

«أستطيع أن أطلب إنزالها كاملة»، قالت ميرا.

هز رأسه، ثم عاد ونظر إلى المفصل. «هل يحتاج إخراجها إلى وقت؟»

سألت العامل. تفحص إطارها والجزء المحيط به، واتصل بزميله. يمكن استعادة الخشب والزجاج إذا تحملا، لكن الإطار ملتصق بجزء متضرر من الواجهة. إخراجه كاملًا يحتاج إلى تثبيت إضافي لا يتضمنه العمل المقرر. يستطيع الفريق أن يحاول بعد خروجهما، من غير ضمان.

«لا تؤخروا أحدًا من أجلها»، قال يونس.

كرهت ميرا الجملة. ليس لأن النافذة أهم من الناس، بل لأنها سمعتها كثيرًا في الأسابيع الماضية، حتى صار كل ما يخص حياتهم موضوعًا ينبغي أن يعتذر عن شغله وقتًا في حياة الآخرين.

قالت للعامل إنهما يريدان المحاولة ما دامت آمنة. سجل الطلب. بقي يونس واقفًا عند النافذة، ثم أخرج من جيبه حقيبة قماش صغيرة وبدأ يجمع المفاتيح من الرف.

في أسفل الخزانة وجدت الوعاء الخزفي الذي اختلفا عليه، أو ظنت أنها وجدته، ثم تذكرت أنه في الحقيبة التي حملاها يوم الإخلاء. كان هذا وعاءً آخر من المجموعة نفسها، أصغر قليلًا، لم يستعملاه منذ زمن. ضحكت مرة واحدة، بصوت خرج حادًا في الغرفة الفارغة.

«ماذا؟»

أرته الوعاء. قال إنه لا يتذكر شراء اثنين. قالت إنها اشترت ثلاثة، فكسر واحد في السنة الأولى. نظر إليها كأنه تلقى معلومة جديدة عن زواجهما. كان في البيت أشياء عاشا حولها سنوات ولم يصبحا متفقين حتى على عددها.

أخذت الوعاء الثاني أيضًا.

ظهر العامل عند المدخل. قال إن عشر دقائق بقيت، وإن عليهما ألا يدخلا الغرفة الخلفية ولو رأيا شيئًا قريبًا. تحرك يونس نحو غرفة نور، فتبعته ميرا إلى الحد المسموح. كان الباب مفتوحًا. في الداخل ورقة على الأرض، لا يستطيعان قراءة ما فيها من موضعهما.

طلبا إحضارها. مدّ العامل أداة طويلة، وجرها برفق إلى الخارج. صفحة من دفتر المدرسة، تمرين حسابي، وفي أعلاه ملاحظة تطلب من نور أن تبين خطوات الحل. لا رسم أخير ولا رسالة من الطفولة. شيء كانا سيرميانه في يوم عادي.

طواها يونس ووضعها مع المفاتيح.

أطلقت آلة الدعم نغمة قصيرة. كان موعد تبديل موضع الحمل قبل المرحلة التالية. مع ذلك تحركت ميرا فورًا. حملت الصندوق، وأخذ يونس الحقيبة، وخرجا من المطبخ من غير أن يطفئا الضوء؛ لم يكن هناك ضوء مشتعل.

عند الباب أخرج يونس المفتاح القديم. عرف أنه لن يغلق، لكنه أمسك به حتى طلب العامل المرور. تنحى، وأغلق العامل الباب بالمفتاح العام.

وقفا في الساحة خلف الحاجز. كان مسموحًا لهما مشاهدة العمل من هناك أو المغادرة. أراد يونس البقاء. حملت الصندوق على ركبتيها، وجلست فوق مقعد مؤقت لا ينتمي إلى أي بيت.

بدأ التفكيك من الجزء الأعلى. امتدت منصتان على جانبي المبنى، وثبتت أذرع مقاطع الجدار قبل فصلها. أُنزل جزء، ثم آخر، ووُضع الزجاج المستعاد في حامل خاص. فصلت وحدات أصغر المعادن عن الخشب. كان النظام يعرف كيف يقلل الهدر، وكيف يمنع الغبار من الانتشار، وكيف يبقي العمال بعيدين عن موضع السقوط.

كانت ميرا ترى جودة العمل. في مهنتها ستطلب تنفيذًا يشبهه إذا وجب إنقاذ مواد من مبنى متداعٍ. لم يمنحها هذا الفهم أي حماية.

ظهرت غرفة نور من الخارج. بلا واجهة صار سريرها أشبه بقطعة معروضة للبيع. أُخرج مع الأثاث الذي سيُنقل إلى المستودع، ثم اختفت مساحة الغرفة خلف ستار التقاط الغبار. تحرك يونس إلى الأمام خطوة، فذكّره الضوء على الحاجز ألا يتجاوز الخط.

لم يقل شيئًا.

عند نافذة المطبخ تباطأت إحدى الأذرع. أمسكت الإطار من الأعلى، وأدخلت أداة رفيعة بين الخشب والجدار. رأت ميرا المشبك يثبت، ثم ينتقل قليلًا. عرف الفريق طلبهما؛ كان يحاول.

انفصلت قطعة من الحافة السفلية. مالت النافذة إلى الداخل، ثم بقيت معلقة من زاوية واحدة. رفعت الآلة مستوى الإمساك، لكن الخشب القديم انشق عند موضع المفصل. كان الجزء الذي يرفعه يونس بكتفه أضعف من أن يحمل نفسه الآن.

سقطت النافذة.

ضربت أرض المطبخ التي لم تعد أرض غرفة مغلقة، وانكسر الزجاج في صوت قصير واضح، أصغر من الضجيج الذي حوله. تحرك يونس كما لو كان قد أفلت منه شيء يمكن التقاطه قبل أن يصل إلى الأرض. لم يصل إلى الحاجز. توقف من تلقاء نفسه. بقي كتفه مرتفعًا قليلًا.

أرادت ميرا أن تقول إنهما يملكان قياسها، وصورتها، وموضع كل خدش فيها. كانت الجملة جاهزة في خبرتها المهنية، نافعة في أماكن كثيرة. أبقتها في فمها حتى ماتت هناك.

بعد دقائق جاء العامل بقطعة خشب من الإطار، وبالمقبض الذي ظل مثبتًا فيها. اعتذر عن عدم استعادتها كاملة. أخذها يونس، وشكره. لم يكن العامل مسؤولًا عن السنوات التي جعلت هذا الاعتذار آخر ما يمكن تقديمه.

واصلت الآلات عملها. قُسمت الحجارة، ووُضع كل ما يمكن استعماله في حاوية، وأُبعد ما لا يصلح. عند موضع المطبخ ظهرت الأرض تحت البيت، رطبة وداكنة. رأت ميرا الأنبوب القديم الذي كان يغذي الصنبور، مقطوعًا عند طرفه، وفهمت أنها لن تستطيع بعد اليوم أن تقف داخل الغرفة التي تحفظها. أي وقوف هناك سيكون فوق مكانها فقط.

نهض يونس. عرض أن يحمل الصندوق، فتركته له. هي حملت قطعة الإطار. كان ثقلها قليلًا، والخشب خشنًا عند القطع. لا يزن البيت أكثر إذا أخذت منه جزءًا أكبر؛ عرفت ذلك، ومع هذا ضمت القطعة إلى صدرها كيلا ترتطم بشيء في الطريق.

خلفهما انخفضت ذراع الآلة إلى موضع الباب. لم تضربه. أمسكته كما أمسكته آلاف المرات أيدٍ تريد الدخول، ورفعته من مكانه.

الفصل الثالث والعشرون

الذين أنقذناهم

في اليوم الذي سمحوا فيه لنور بالعودة إلى طنجة، لم تستطع أن تحمل حقيبتها وحدها.

رفعتها من السرير، فاختل ميلها وانزلقت. أمسكها يونس قبل أن تضرب الأرض. غضبت منه، ثم من نفسها، ثم طلبت أن يعيدها إلى الموضع نفسه. فعل. جرّبت من جديد بيدين، وقطعت بها خطوات قليلة إلى الباب. هناك أخذها منها بعد أن قالت: «الآن.»

كان التعافي مليئًا بكلمات صغيرة كهذه. الآن، قليلًا، مرة أخرى، توقفي. لم تكن هناك لحظة واحدة يعود بعدها كل شيء إلى طبيعته. كانت نور قد بدأت تميز ما يحدث في جسدها بسرعة أفضل، لكن بعض الحركات صارت تحتاج إلى تعلم لا تصبر عليه دائمًا. وفي المساء، حين تتعب، تعود إليها حدود ظنت أنها تجاوزتها في الصباح.

تعلم يونس أن يسمع غضبها من دون أن يحوله إلى تقرير عن الحالة. لم يتقن ذلك؛ في الليلة السابقة عدّد لها التحسنات، فقالت إنها تعرف العد. سكت، ثم سألها إن كانت تريد أن يترك المصباح أو يطفئه.

عبرت الأسرة في مركب نقل عادي هذه المرة، مع ترتيبات طبية يمكن الوصول إليها عند الحاجة. جلست نور عند النافذة، وميرا قرب الممر. البحر هادئ بما يكفي ليثير استغراب يونس؛ يمكنه أن يبدو بريئًا بعد أن فعل ما فعل، لأن براءته أو ذنبه لا يغيران شيئًا في موضع الحاجز الذي تُرك بلا إصلاح.

في حقيبة ميرا قطعة إطار ملفوفة. تحت مقعد يونس صندوق الأدوات الخشبي الذي سيعيد به تجميع مجسم نور. لم تكن الفتاة قد رأت صور

التفكيك. أخبراها بما حدث، وبالنافذة التي لم يستطيعوا إنقاذها. سألت إن بقي شيء من الزجاج، فقالا لا. لم تقل لماذا كانت تريد أن تعرف.

في المسكن الجديد استقبلتهم وحدة صغيرة قرب الباب. عرفت ميرا فورًا، ثم تأخرت عند يونس حتى أبرز بطاقة الإقامة. نظر إلى نور، منتظرًا تعليقًا منها. كانت متعبة أكثر من أن تسخر. قالت فقط إن الباب يصدر صوتًا عاليًا، فخفضت ميرا الإشارة من الإعدادات.

صارت المشكلة قابلة للحل بهذه السهولة، وبقي في يونس حزن لا علاقة له بمستوى الصوت.

الغرف أنظف، والممر أوسع، والحمام يسهل على نور استعماله في التأهيل. المطبخ لا يطل على البحر. من نافذته يرى حائط المبنى المقابل وأربع شرفات، في واحدة منها نبات لا يعرف اسمه. وضع الإبريق في خزانة قريبة من الموقد، ثم أعاد نقله إلى الخزانة الأخرى. حاول أن يختار موضعًا ستتذكره يده، ولم يستطع أن يعرف كيف تُصنع العادة من أولها.

سألت نور عن مقعدها. أشار إلى الكرسي الجديد، فقالت إنها تقصد القديم. كان قد نُقل إلى المستودع مع الأثاث القابل للاستعادة. وعد أن يسأل عنه، ثم أضاف أنه لا يضمن وصوله سريعًا. قالت إنها ستجلس هنا الآن، وسحبت الكرسي حتى صار ظهره إلى الحائط.

بقي موضعها الجديد بلا اسم.

في اليوم التالي ذهب يونس إلى وحدة حديثي الولادة. كان بشير قد تجاوز الأيام الأصعب، لكنه ما يزال يحتاج إلى رعاية لا تسمح بخروجه. كان استقراره خبرًا جيدًا محددًا، يكفي ليرى يونس أنس أقل انحناء مما رآه آخر مرة.

وجد سارة جالسة أمام الحاضنة، وثوبها مفتوح قليلًا عند العنق من أجل جلسة تماس أنهتها قبل دقائق. كان وجهها شاحبًا، وشعرها مربوطًا بلا عناية. لم تنهض له. قالت إن الجلوس الآن عمل كامل.

سأل عن الألم والنوم، ثم ترك لها الوقت لتجيب عن شيء غيرهما. أرته صورة التقطها أنس حين حملت بشير أول مرة. انحنى رأسها عليه، وغطت القبعة نصف رأسه، وكانت يدها أكبر من أن تبدو مناسبة لذلك الظهر الصغير.

«أخيرًا صورة لا يعرفون ماذا يفعلون بها»، قالت.

لم يجزم بذلك. سأل إن كانت تريد الاحتفاظ بها بينهما. قالت نعم، ثم ابتسمت لأن السؤال لم يُتبَع بشرح عن فائدة النشر.

اقترب من الحاضنة. رأى تنفس الطفل وحركته، ثم قرأ ما سمح له الفريق بالاطلاع عليه. كان أمامه مولود مبكر يتقدم في أشياء ويتأخر في أخرى، وله أم تريد أن تحمله مرة ثانية قبل نهاية الزيارة.

جاءت أم سارة بعلبة طعام لم يسمحوا بإدخالها إلى الغرفة. وقفت عند الباب تحتج بصوت خفيض، ثم تذكرت أن المكان لا يعاندها شخصيًا. سلمتها إلى أنس، وقالت له أن يأكل هو إن لم تأكل ابنتها. رأى يونس في وجهه استعدادًا مطيعًا لا علاقة له بالجوع.

عند الخروج أخبرته سارة أن جلال أرسل تهنئة وعرض المساعدة في النقل. سأل إن كانت ردت.

«قلت له شكرًا. وطلبت حذف ما بقي من الوصف.»

«وحذفه؟»

«حذف السطر الذي فيه اسمي. بقي الكلام حوله.»

لم يكن انتصارًا كاملًا، ولا تجاهلًا كاملًا. قالت إنها حفظت النسختين، ثم أوقفت متابعة الصفحة. لا تريد أن تقضي وقت الطفل الأول في إصلاح جملة عند رجل يملك وقتًا للدفاع عنها أكثر مما تملك هي.

«إذا سألني أحد، سأقول الحقيقة. أما أن أذهب وراءها في كل هاتف...»

نظرت إلى الباب الزجاجي. طلبت الممرضة منها العودة لأن بشير استيقظ. تركت الجملة ناقصة، وذهبت.

رأى يونس أن الحق قد يبقى قائمًا فيما يصبح صاحبه مضطرًا إلى العيش.

بعد الظهر أدلى بشهادته في مراجعة البرنامج القديم. انعقدت الجلسة في غرفة بالمجلس المهني. حضرت أمينة عبر اتصال، وجلس أمامه ثلاثة أشخاص يسجلون ويسألون. قدّم الإحالات التي يعرفها، وميّز ما وصله مكتوبًا عما سمعه لاحقًا. قال إن العبارات التي تلقاها لم توضح بما يكفي امتداد بعض التدخلات إلى الأجيال، وقال إنه لم يسأل وقتها بالسعة التي كان ينبغي أن يسأل بها.

سأله أحدهم إن كان ذلك إقرارًا بمسؤوليته الشخصية. قال نعم، في حدود ما فعله وما لم يفعله. لا يعرف كل قرار داخل البرنامج، ولن يحمل نفسه ما لم يقرره كي يُعفي من قرره. لكنه لن يستعمل ذلك ليمحو اسمَه من الطريق الذي وصل به العلاج إلى الأسر.

قدمت أمينة الوقائع التي أثبتتها من غير أسماء لا يحتاج إليها التحقيق. بقيت هالة خارج هذا الملف؛ لم يكن تبرعها موضوع المخالفة، ولم يحوّل تشابه الكلمات بين الخلايا والأجيال قصتها إلى حجة إضافية. حين حاول أحد الأسئلة جمع المسارين، صححت أمينة الفرق، وانتقلوا إلى ما يخص عائلة سارة.

انتهت الجلسة بموعد لاحق وطلبات محددة للمعلومات. لم يخرج يونس أخف. بدأت مراجعة يمكن أن تحمي أسرًا أخرى من جهل مشابه، وهذا عمل له قيمة، لكنه لم يكن يعرف كيف يزنه إلى جوار طفل في حاضنة وحي أزيل. وضع نسخة شهادته في الحقيبة، وذهب ليشتري خبزًا.

اختار مخبزًا قريبًا من المسكن الجديد. وقف في الصف، ثم اكتشف أن الطلبات تُسلم من نافذة أخرى. قالت له امرأة خلفه إن هذا الصف للدفع فقط. اعتذر وانتقل. كان في المدينة نفسها التي عاش فيها سبعة وأربعين عامًا، ويحتاج إلى من يشرح له من أين يبدأ شراء العشاء.

حين عاد وجد هالة عندهم. ساعدت الموظفة على وضعها في مبنى قريب من جارتها، وإن لم تستطع أن تمنحهما شقتين متجاورتين. جاءت في مقعد

نقل، ومعها كيس صغير من المخبز الذي قالت إنها لا تحبه. رأت ما يحمله يونس، فضحكت.

«هذا هو اللي قلت لكم ماشي بحال ديالنا.»

فتح الكيس. الخبز جيد حقًا. قطع قطعة ووضعها أمامها، فأكلتها وهي تواصل الاعتراض على القشرة.

كانت نور إلى جوار المائدة، تحاول تثبيت سقف المجسم. وضعت القطعة في مكانها، ثم سحبتها لأنها تضغط على جدار ورقي. عرضت ميرا أن تمسك الطرف، فقالت نور إنها تريد أن تجرب وحدها. بعد دقائق طلبت المساعدة. استجابتا من غير تعليق يجعل طلبها حدثًا أخلاقيًا.

نظر يونس إلى اليد الجديدة في يد ميرا، وإلى الضماد الذي اختفى بعد شفاء الجرح، وإلى أصابع ابنته وهي تتعلم قياس قوة قليلة. رائد لم يعد موجودًا. هالة هنا، والخبز هنا، ونور تغضب من سقف صغير. لم تكن خسارته تحتاج إلى أن تمحو نجاتهم حتى تكون كاملة.

في آخر الأسبوع كانت ثمانية أسابيع قد مضت منذ جرح السكين. عرف يونس ذلك لأنه فتح سجل المتابعة ليراجع موعدًا، فرأى تاريخ الاتصال الأول. بدا قريبًا إلى حد لم يصدق معه مقدار ما استطاع أن يقع بين صباحين.

خرج في وقت مبكر، قبل جلسة نور. سار إلى حد الساحل الجديد، حيث بقي ممر للمشاة خلف سياج الأعمال. لم يعد يستطيع الوصول إلى موضع الباب. هناك قاعدة لحامل أنبوب، ومسار آليات، وعامل يوجه شحنة عبر شاشة. بحث عن العلامة التي كان يعرف بها ارتفاع البيت، فوجد جدارًا آخر حُفظ مؤقتًا لأنه يخدم تثبيت التربة.

في الماء اقترب مركب شحن أبيض. لا أحد ظاهرًا على سطحه. تحركت أذرع الرصيف قبل أن يبلغ موضعه، واستعدت الآلات لاستلام وحدات تغذية ستذهب إلى مراكز العلاج والأحياء الجديدة. رأى على واحدة منها اسم

المنشأة التي أنقذت نور. كان يعرف أين ستصل، وأي جسم قد يختل إذا تأخرت.

كان هذا ما يجعل الوقوف هناك أصعب.

رن هاتفه. نور، لا ميرا. سألته إن كان قد وجد غراء يناسب الخشب القديم. قالت إن المجسم اكتمل تقريبًا، لكن الباب يلتصق إذا أغلقته. كان يمكنها أن تصنع بابًا آخر أسهل، إلا أنها تريد إصلاح هذا أولًا.

قال إنه سيحضر ما يلزم، ثم سأل عن موعد التدريب. ذكّرته بأنها تعرف موعدها. اعتذر، فطلبت منه أن يشتري شيئًا للفطور أيضًا. انتهت المكالمة من غير حديث عن البحر.

عند السياج أضيء مسار جديد، وطلب صوت منخفض من المشاة إخلاء الجزء المواجه للرصيف. كانت وحدة نقل طويلة ستعبر، تحمل ما لا يستطيع الإنسان حمله ولا مجاراة سرعته. تراجع يونس مع الآخرين. انتظرت الآلة حتى صار الممر خاليًا، ثم مضت، بطيئة حيث يقفون، وأسرع حين ابتعدت عنهم.

وقف حتى غابت الشحنة في المدخل الجديد. ثم استدار نحو السوق.

كان عليه أن يعود إلى ابنته قبل أن يبدأ تدريبها. حمل هذا السبب الواضح ومشى، فيما واصلت المدينة وراءه إزالة آخر طريق إلى البيت.

القسم الرابع

عالم بلا أصحابه

الفصل الرابع والعشرون

أربعون عامًا من النجاح

2286

كان سرير الولادة أوسع من الباب الذي يريدون إخراجه منه.

وقفت نور في الممر، تحمل صندوقًا من المناشف الصغيرة، ورأت العامل يدير السرير مرة ثانية. انثنى أحد جانبيه حتى صار كأنه مرفق، لكن العجلة الخلفية علقت في موضع لم تتوقعه الآلة. على إطار الباب شريط أصفر جديد. تحته آثار أحذية وعربات وطلاء متراكم، واسم امرأة كتب بقلم ثم مُسح حتى بقي منه نصف ميم.

«دخل من هنا»، قالت سارة.

أجاب العامل بأن الباب تغير منذ تركيبه. انحنى يفحص المسمار الذي أعاقه. كانت الوحدة التي تعمل معه تستطيع رفع السرير كله، إلا أنها انتظرت قياسه. كانت سارة وحدها تستعجل خروجه. أرادت أن يخرج الشيء قبل أن تغيّر رأيها في إخراجه.

وضع بشير راحته على ظهر أمه. أبعدتها لتصل إلى جيب معطفها، ثم أمسكت بالكم نفسه واستندت إليه. حسبت نور، للحظة، أنه ما زال صغيرًا عليها؛ ثم رأت الشيب في جانبي رأسه. كان في الأربعين، وله ابنتان، وكان وجهه يحمل أثرًا لا تراه إلا حين يجاور وجه أمه: الانكماشة نفسها قرب الفم عندما لا يعجبه ما يسمع.

«أين نضع هذا؟» سألت نور.

نظرت سارة إلى الصندوق.

«ليس مع الأرشيف. المناشف ما زالت صالحة.»

في نهاية الممر فتحت آلة صغيرة خزانة كانت مغلقة طوال سنوات. وجدت كيسين من السكر، وفنجانًا مكسور الأذن، وحذاء امرأة واحدًا. حملت سارة الحذاء إلى الضوء. سألت العاملة القديمة إن كانت تتذكر صاحبته. قالت إنها تتذكر ثلاثة أحذية متروكة، لا تعرف أيها هذا. اختلفتا في اللون الذي كان عليه قبل الغبار، ثم وضعتاه مع الأشياء التي يمكن لأصحابها أن يطلبوها.

لم يعد في العيادة من يلد. بقيت امرأة في غرفة المتابعة، جاءت لتغيير ضماد صغير، وأخرى تنتظر سيارة ستنقلها إلى المركز الجديد. كان الإغلاق قد تأجل شهرين حتى تكتمل ترتيباتهما. في الاستقبال عُلّقت ورقة تبين الطريق إلى المراكز البديلة؛ تصل إليها مركبات مجانية، وتستطيع الأجهزة هناك أن تتنبأ بأخطار كان يونس يسهر ليالي ليراقب بداياتها. قرأت نور المواعيد فوجدتها أقصر من المواعيد التي حفظتها من طفولتها. هذا الجزء من الخبر كان صحيحًا أيضًا.

وصل أبوها متأخرًا، وميرا خلفه تحمل سترته. في السابعة والثمانين صار دخوله إلى مكان يعرفه يستغرق وقتًا أطول من تعرّفه إليه. توقف قرب الحائط ليفسح الطريق للصندوق الذي حملته نور، ثم لم يعرف على الفور ماذا يفعل بالمسافة التي فُتحت له.

«أبي، هنا.»

جاء إليها. عانقها وهو ينظر فوق كتفها إلى باب غرفة الفحص. شمّت رائحة صابونه ورائحة الخشب في عصاه. على ظهر يده بقعة بنية كانت صغيرة حين ولد ابنها، واتسعت حتى صار لونها أول ما تراه عندما يرفع الكأس. لم تكن العصا جهازًا يحتاج إلى شرح؛ كان يحبها لهذا السبب، وإن استعمل كل مساء وسادة تعالج ألم مفصله بالكهرباء.

«ألم تكوني ستأتين بسليم؟»

«عنده تدريب.»

«اليوم؟»

«كل خميس.»

كان قد سألها السؤال نفسه في الطريق، عبر الاتصال. لم تقل ذلك. شعرت بميرا تنظر إليها، ثم انشغلت أمها بتعليق السترة. وجدت مشجبًا واحدًا لم يُفك بعد.

قالت سارة: «وصلتَ قبل أن يخرج آخر سرير. ظننتك متعمدًا.»

قال يونس: «أنا أتعمد أشياء أقل مما تنسبين إليّ.»

ضحكت، ثم سعلت. دفع بشير إليها الكأس الذي يحمله، فشربت وأعادت إليه نصفها. منذ تقاعدت من عملها الأول صارت تأتي إلى هذه العيادة كي تجلس مع النساء قبل المواعيد وبعدها. لم تكن طبيبة. كانت تعرف أي كلام ينبغي ألا يقال لامرأة خائفة، وأي سؤال نسي الطبيب أن ينتظر جوابه. كتبت عند مدخل مكتبها الصغير «المرافقة»، ومحَت بعد أسبوع كلمة «الإرشاد» التي اقترحتها الإدارة.

استدعت منسقة النقل سارة إلى شاشة عند الباب. احتاج البرنامج الجديد إلى تثبيت طريقة استقبال النساء اللاتي لا يستعملن الاتصال الداخلي. كان في القائمة تسع عشرة امرأة، وبعضهن يفضلن الحضور حتى حين يملكن وسيلة الاتصال. قالت المنسقة إن محطة المساعدة ستؤدي العمل. سألتها سارة عمن سيجلس في المحطة.

«الاستجابة فورية.»

«لم أسأل عن السرعة.»

كانت المنسقة شابة، وفي عنقها شريط رقيق يتغير لونه مع الضوء. قربت الصورة وشرحت ثلاثة مسارات للاستقبال. انتظرت سارة حتى انتهت، ثم طلبت كرسيين واسم شخص يمكن أن تقصده المرأة حين لا تعرف أي مسار تختار. تدخل بشير ليقول إن أمه تقصد ساعات حضور محددة. لم تنظر إليه.

«أقصد ما قلته.»

وجدوا في النهاية موظفة ستأتي ثلاثة صباحات في الأسبوع. بقي صباحان بلا أحد. كتبت سارة اسمي امرأتين ستتصل بهما كي لا تصلا في اليوم الخطأ. رأت نور كيف انتهى النقاش الكبير إلى ورقة صغيرة تدخل جيب معطف قديم. لم يوقع أحد على إلغاء ذلك الصباح الذي لا تأتي فيه الموظفة. كان الصباح موجودًا في الجدول، أبيض فقط.

بينما كانت المنسقة تبحث عن موظفة الاستقبال، استدعت المرأة التي تنتظر النقل سارة بإشارة. ذهبت إليها، ولحقت بها نور تحمل الكرسي الذي نُقل من المكتب. كان اسمها رجاء، وفي حجرها ملف ورقي رقيق، لا لأنها لا تملك وسيلة أخرى، بل لأن صورة الجنين فيه يمكن إخراجها والنظر إليها من غير أن تفتح بقية المعلومات.

سألت سارة إن كان زوجها يستطيع مرافقتها في مركبة النقل. أشارت إلى رجل يقف خارج الباب، له وجه من نسيج حي وعنق تظهر عند جانبه وصلة معدنية. كان ينتظر بعيدًا عن خط مرور الأسرة. كلما تحركت مركبة ظنها مركبتهم، فتقدم، ثم عاد إلى الموضع نفسه.

«قالوا مرافق واحد»، قالت رجاء. «أمي ستأتي معنا.»

«هل سألتِ عن مقعد آخر؟»

«قال إنه يستطيع الوصول وحده. لكنه يصل قبلنا دائمًا، ثم نضيعه عند الدخول.»

فتحت سارة طلب النقل، واتصلت بالمنسقة التي كانت قبل قليل تناقش مستقبل استقبال النساء. احتاج الأمر إلى دقائق. في تلك الدقائق جلست نور إلى رجاء، ورأت الصورة تنزلق من الملف، فأعادتها إليها.

«هذا وجهه؟» سألت نور.

«هذا ما يقولون. أنا لا أرى إلا يدًا.»

أشارت إلى بقعة صغيرة. رأت نور ما تقصده بعد قليل. كانت المرأة تبتسم كما لو أنها اكتشفت شيئًا لم ينتبه إليه من صنعوا الصورة. قالت إن زوجها

يستطيع قراءة تفاصيل لا تستطيعها، لكنه لم يعرف موضع اليد حتى أرته إياه.

سألتها عن ابنها، ففتحت نور صورة سليم في التدريب. قربت رجاء الصورة من وجهها، ثم قالت إن الأطفال يكبرون بأجساد لا تعرف كيف تتخيلها. لم تكن خائفة من زوجها؛ كانت تريده قربها. كانت خائفة مما لا يعرفه أحد منهما عن طفل لم يولد بعد.

«هل يشبه أباه؟»

«في بعض الأشياء. وفي أشياء أكتشف أنه لا يشبه أحدًا نعرفه.»

أعادت رجاء الصورة إليها. قالت إن الفريق يقترح دعمًا حيويًا إضافيًا قبل الولادة لتقليل مشكلة ظهرت في المتابعة. الزوج موافق، وأمها تقول إن ما دام الطفل يتحرك فليتركوه. هي تريد أن توافق، ثم تخاف أن تكون قد استعجلت.

كان أبوها قد جلس قرب الباب، يتابع حركة العامل الذي يعيد العجلة إلى السرير. مضت السنوات التي يستطيع فيها أن يتدخل في كل غرفة يمر بها، ولم يكن يحتاج إلى أن تُستدعى مهنته من تقاعدها كلما صادفت الأسرة امرأة حاملًا.

قالت نور لرجاء إن عليها أن تطلب من فريقها شرح الفرق بين ما قد يحدث إذا انتظرت وما قد يحدث إذا تدخلوا. قالت المرأة إنها سألت، وإن الطبيبة أعادت الشرح من غير ضيق. «هذا ما جعل الأمر أصعب. لا أحد يضغط عليّ. أستطيع أن أقول نعم أو لا، وسيبقى ابني في الداخل ينتظر نتيجة ما قلت.»

نظرت نور إلى الصورة ثانية. لم تجد فيها ما يساعد على اختيار أمّه. تذكرت الورقة التي حملتها هي إلى موعد علاجها، والأسئلة التي كتبتها خلف رسم الطبق. قالت إنها اختارت علاجًا وهي أكبر من سليم الآن بسبع سنوات، وإن القرار أعطاها الأعوام التي عاشت فيها كل ما تراه رجاء في الصورة.

«إذن تختارين أن أوافق؟»

«لا أستطيع أن أختار مكانك.»

خرج الجواب كما يخرج جواب مهني محفوظ، فضاقت به نور نفسها. أضافت أنها كانت ستخاف مثلها، وإن نجاح علاجها لا يجعل خوف رجاء خطأ. لم يمنحها الكلام راحة كاملة. لكنه ترك لهما أن تجلسا قليلًا من غير أن تضطر إحداهما إلى حل حياة الأخرى.

عاد الزوج ومعه ماء وسأل إن كان قد فاته دورهم. أخبرته سارة أنها وجدت مقعدًا، فشكرها أكثر مما يستحق التغيير الصغير. جلس بجوار رجاء، ووضع الكأس في موضع تستطيع أن تبلغه. أراها توقيت الموعد الجديد على كفه، فطلبت منه أن يطفئه دقيقة. أطفأه، وبقيت كفه تحت كفها، خالية من الضوء.

جاءت أم رجاء من الخارج تحمل كيسًا من الخبز. رأت المقعد الإضافي فقالت إنها تستطيع أن تأخذ سيارة أخرى، وإنها لم تكن تريد أن تبقى ابنتها وحدها. قال الزوج إنه سيذهب معها هو إذا أرادت، وإنهم سيلتقون عند الباب. تشاجروا برفق حول من يتعب أقل، ثم أخذت المركبة الجميع.

راقبتهم نور حتى انغلق بابها. كانوا يريدون أن يجلسوا قريبين من امرأة، وأن يصل طفلها إلى يوم يستطيعون فيه أن يحملوه. بقي على كرسيها في الممر أثر دافئ، وعلى الأرض خيط من كيس الخبز. التقطته سارة قبل أن تأتي وحدة التنظيف، ثم التفتت إلى آخر غرفة لتتأكد أنها فارغة.

أُخرج السرير بعدما نُزعت عجلة. حملتها وحدة الخدمة في تجويفها الأمامي. تبعته سارة حتى الرصيف، ثم رجعت مسرعة نسبيًا، كأنها تذكرت مريضة. ذهبت إلى مكتبها، فتحت الدرج السفلي، وأخذت ملعقة طويلة. قالت إنها كانت تبحث عنها منذ شهر.

خرجوا من العيادة من غير مراسم. كانت لوحة الافتتاح قد نُقلت في اليوم السابق؛ لم يُرد أحد صورة ثانية لنهاية المكان. قرب السيارة قال يونس إنه يريد شيئًا مالحًا. عرض بشير أن يشتري لهم طعامًا، لكن نور قالت إنها ستأخذ

أباها إلى المقهى المطل على البحر. كان يسمّيه باسم صاحبه الأول، على الرغم من أن صاحبه مات قبل اثنين وعشرين عامًا.

قالت ميرا إن عندها موعد صيانة لا تستطيع تأجيله. لم يفت نور أن أمها تركت لهما وقتًا وحدهما؛ غير أن الموعد كان حقيقيًا. قبلت يونس على خده، وأصلحت طرف ياقة علقت تحت حزامه. تقبل الحركة، ثم انحنى يرفع حقيبتها الخفيفة من الأرض قبل أن تبلغه هي.

«ستتصلين إذا تأخرتِ؟»

«أنت الذي ستنسى الوقت.»

قال: «إذن اتصلي.»

في المركبة طلبت نور إبطاء المسار الساحلي. كان جسدها يحتمل تغير التسارع قبل أن تشعر به، أما أبوها فقد أغلق عينيه عند المنعطف الأول. اختارت القيادة الهادئة، فظهر تأخير من ثماني دقائق. لم يكن هناك سائق يتذمر أو زبون خلفهما؛ ومع ذلك شعرت بأنها تعتذر لشيء ما وهي تثبّت الاختيار.

عند مدخل المقهى لم يجد يونس درجًا. وجد أرضية تتحرك تحت الداخلين، وتنقلهم إلى منصة مفتوحة فوق الميناء. وقف حتى استقرت في نظره، فطلب النظام منه أن يثبت الاستجابة التوازنية. رفع بطاقة العبور. استُعيد الطلب بصورة أبسط.

«هو يريد الجلوس فقط»، قالت نور.

جاء مشرف، إنسانًا هجينًا بوجه هادئ لا يبدو أصغر منها ولا أكبر. شرح أن المسار لا يناسب من لا يملكون التكيف المطلوب، وأن هناك مقاعد في الطابق السفلي. أشارت نور إلى الصورة فوق المدخل: البحر كله، والضفة الأخرى في صفاء لا يحدث كل يوم.

«والطريق العادي؟»

كان الطريق القديم قد أُغلق أثناء تحديث المنشأة. عرض المشرف كرسيًا مثبتًا خاصًا، على أن ينتظرا قدومه من المرفق المجاور. تسع وأربعون دقيقة. قالها كما يقول خبرًا جيدًا لأنه وجد حلًا. حاول يونس أن يرى ما وراء كتفه.

«كنا نجلس هناك.»

«المقاعد ما زالت هناك، سيدي.»

جاء غضبها بعدما تحرك أبوها نحو الصالة السفلية من تلقاء نفسه، حين رأت مدى سهولة أن يقبل بما يمكن الوصول إليه. قالت للمشرف إن المكان رُخّص للجمهور. أجاب بأن خدمة الوصول المساعد متاحة. كان صادقًا، وكان أبوها قد تعب.

جلسا خلف زجاج يرى المرء منه أسفل المنصة. طلب يونس حساء، ونور قهوة لا تريدها. من سقف الصالة ظهرت أقدام الذين يجلسون فوقهما، كظلال خفيفة تمر خلال طبقات الزجاج. شرب يونس أول ملعقة، ثم قال إن الملح قليل. دفعت إليه الوعاء الصغير، فهز رأسه.

«نسيتُ أنني لا أستطيع.»

اتصل سليم من التدريب. ملأ وجهه الصورة، وراءه زميل يدفعه كي يري نور قطعة صنعها. أراها ابنها ذراعًا صغيرة تلتقط حصاة وتعيدها دون أن تسحقها. فرحت له، وطلبت أن يعرضها على جده. قرّبت الصورة، لكن يونس لم ير موضع الحصاة؛ كانت يد الطفل أسرع من انتقال الصوت إليه.

«مرة أخرى، ببطء»، قالت نور.

أعادها سليم، هذه المرة بصبر متكلف أحزنها لأنه يشبه صبر الكبار. قال يونس إنها جيدة جدًا. سأل الصبي إن كانت أحسن من الشيء الذي صنعته أمه حين كانت صغيرة، فقال الجد إن أمّه صنعت بيتًا يصعب إغلاق بابه. احتجت نور، فضحك سليم واختفى من الصورة قبل انتهاء المكالمة، ثم عاد يعتذر لأن أحدًا ناداه.

بقي أبوها ينظر إلى الشاشة الفارغة.

«كم عمره الآن؟»

«ثمانية.»

«نعم. ثمانية.»

حرّك ملعقته حول حافة الطبق، ثم وضعها. خارج الزجاج مرت وحدة طويلة تحمل أجسادًا صناعية لم تُغطَّ مفاصلها بعد. كانت إلى جانبها امرأة تدفع عربة طفل. اختفت الاثنتان خلف الدعامة نفسها.

قالت نور: «هل تريد أن نذهب إلى البيت؟»

نظر إليها، فسمعت ما قالته كما سمعه. لم تقصد المسكن الذي ستأخذه إليه المركبة. كانت قد رأت في الطريق الممر الساحلي الجديد، وفكرت أنها تعرف موضعًا لم تقف فيه منذ غادرته وهي في الخامسة عشرة.

«بيتنا؟» سأل.

«الموضع.»

صمت طويلًا حتى ظنت أنه لم يسمع. ثم أخرج من جيبه المنديل وطواه فوق ركبته.

«لم تذهبي إليه؟»

«مررت من فوقه. مرات.»

«لم أسأل عن الطريق.»

«لا.»

كانت قد أغلقت الصور في يومها الأول، ثم رفضت حين عرضت ميرا أن تمشي معها هناك بعد انتهاء الأعمال. صار الرفض موعدًا تؤجله، ثم صار شيئًا لا تحتاج إلى رفضه لأن أحدًا لم يعد يسأل. أربعون عامًا كانت تستطيع أن تحمل هذا كله من غير أن يبدو في يوم واحد كبيرًا.

أخذا الحساء الذي لم يُكمل في علبة صغيرة. في الطريق إلى الساحل لم تسأله عن ذكرياته. كان يحدد لها المنعطف قبل أن تصله المركبة، وأخطأ

مرتين لأن شارعًا صار ممشى وآخر انتهى عند مدخل تغذية مغلق. في المرة الثالثة طلبت من المركبة الوقوف. أرادت أن يمشيا آخر المسافة.

امتد الممر فوق قواعد لا ترى نهايتها. إلى اليسار كانت المدينة، وإلى اليمين أحواض هادئة يعمل فيها المعدن تحت الماء. لم يبق من واجهات الحي شيء يدل عليه. توقعت نور فراغًا يشبه ساحة بعد هدم؛ وجدت مكانًا مشغولًا تمامًا، لا ينقصه شيء كي يؤدي وظيفته.

قال يونس: «هنا كنا ننعطف.»

انعطفت معه، فاعترضهما حاجز منخفض. امتدت بعده قناة خدمة ضيقة، وعلى الجهة المقابلة منصة صيانة. اقتربت نور حتى صار ظلها على حافة القناة. حسبت المسافة بعينيها، ثم طلبت من خريطة الموقع أن تظهر الحد القديم. انطبقت خطوط شفافة على الأرض. وقع المطبخ في الجانب الذي لا يستطيعان دخوله.

رفعت قدمها، وأعادتها. كان أبوها يراقب الحركة.

«تظنينه أقرب.»

«كانت النافذة هنا.»

«لا. بعدك بقليل.»

أزاحت الصورة عن بصرها. مشت بمحاذاة الحاجز حتى اختفى رأس أبيها خلف عمود؛ فعادت خطوة. مدّت ذراعها كما لو كانت تصل إلى رف. لم يكن الرف حيث تذكرته. كانت أصغر حين حفظت ارتفاعه، وأقصر؛ أما الأرض التي تقف عليها فمرتفعة عن أرض البيت القديم. احتاجت إلى هذين السببين الواضحين، ولم يساعداها.

على الضفة الأخرى من القناة توقفت آلة. دارت أداة قصيرة عند طرفها، وبدأت تنظف شقًا في الغطاء. كان موضعها قريبًا من الموضع الذي وضع فيه يونس مائدتهم. جاءت امرأة صيانة وسألت إن كانا يحتاجان إلى مساعدة.

أرادت نور أن تطلب عبور القناة. وجدت نفسها تقول إنهما يبحثان عن عنوان قديم.

عرضت المرأة السجل العمراني. قالت نور إن لديها السجل. نظرت الموظفة إلى يونس ثم إلى العصا، وأحضرت له مقعدًا من محطة الخدمة. شكرها وجلس. كانت هذه المساعدة بالضبط ما يحتاج إليه، ولذلك لم تجد نور شيئًا تقوله.

جلسا جنبًا إلى جنب. سمعت أباها يتنفس، ثم سمعت صوتًا أبعد يشبه احتكاك باب بالأرض. التفتت بسرعة؛ كان غطاء القناة يُسحب إلى مكانه.

«أمي احتفظت بالمقبض.»

«وبقطعة الخشب.»

«لم أر الصور.»

«قالت لي.»

«كنت أظن أنني سأراها حين...»

لم تعرف أي يوم كانت تنتظره. بعد التعافي، بعد الدراسة، بعد السفر، بعد ميلاد سليم. كانت أيامها تمتلئ على نحو لا تستطيع أن تحتقره الآن. كل ما أخرها كان حياة تحبها.

انحنى يونس ليلتقط ورقة التصقت بحذائه، فلم يبلغها. التقطتها نور. كانت ورقة تغليف جديدة، لا أثرًا من البيت. كادت تبكي من خيبة صغيرة كهذه، فضمتها حتى صارت كرة في راحة كفها.

قالت: «كان عليك أن تأخذني.»

لم ينظر إليها.

«حاولنا.»

«كان ينبغي أن تحاولوا أكثر.»

خرجت الجملة قاسية، وفيها صوت الفتاة التي كانت، لا صوت المرأة التي جاءت بأبيها لتطعمه. رأت أصابعه تثبت العصا بين قدميه. انتظرت أن يدافع، أو أن يذكر لها مرة رفضت فيها. قال أخيرًا: «ربما.»

لم يكن لديها حق تنقذه هذه الكلمة. جلست أقرب، وفتحت حقيبتها. وجدت فرشاة نسيها سليم من علبة هالة ذات البرتقالتين؛ ماتت هالة سنة 2261، وبقيت العلبة عند نور حتى صار ابنها يحفظ فيها فرشه. أزاحت الفرشاة وأخرجت علبة الحساء. ضحك يونس ضحكة قصيرة حين رآها.

«لن نأكل هنا.»

ضحكت معه، ثم انقطع صوتها. تركت العلبة بينهما وغطت وجهها. بقي جالسًا، وكان قربه يجعل بكاءها أسوأ وأيسر معًا.

حين رفعت رأسها كانت الشمس قد تحولت عن موضع المطبخ. العاملة التي أحضرت المقعد لم تعد مرئية. وراء القناة تحركت الآلة التي تنظف الغطاء، وعبرت فوق الخط الذي أطفأته نور.

نهض يونس قبلها. احتاج إلى ذراعها في اللحظة الأولى فقط، ثم تركها. مشيا عائدين ببطء. عند المركبة التفت إلى القناة كأنه نسي شيئًا، وقال إن عليه أن يتصل بميرا ويسألها كيف انتهى موعدها.

فتحت نور الاتصال له. خرج صوت أمها من مكان مضاء، فيه طنين مألوف؛ قالت إن كل شيء جيد، وإنهما تأخرا. كان أبوها على وشك أن يشرح أين كانا، لكنه نظر إلى نور وانتظر.

قالت نور: «نحن راجعان. أبقي لنا شيئًا نأكله.»

وأدخلت علبة الحساء في حقيبتها كي لا يراها.

الفصل الخامس والعشرون

وفاة لا تُصلح

2294

لم تعد ميرا ترفع صوتها حين يناديها يونس من الغرفة الأخرى. صارت تترك ما تعمل فيه وتذهب إليه، لأن رفع الصوت لا يختصر المسافة التي يقطعها السؤال حتى يصل إلى جوابه.

في ذلك الصباح وجدته يحاول إدخال زر في عروة غير عروته. كانت الفتحة التي يريد أعلى بإصبعين. جلست إلى جواره، وفتحت الزر الذي أغلقه قبله، فأصبح الطريق إلى العروة صحيحًا. تابع وحده حتى انتهى، ثم نظر إلى القميص طويلًا.

«لقد غيّروا هذا.»

«أي شيء؟»

أشار إلى صدره. لم يجد الكلمة. انتظرت، فغضب من القميص وشدّه عند الحافة. كان يستطيع أن يعرف أنه مخطئ قبل أن يستطيع تصحيح الخطأ؛ يحدث له هذا كثيرًا، ويتركه متعبًا كما لو أنه أصلح شيئًا بالفعل.

قالت: «نستطيع أن نتركه مفتوحًا.»

«سأقابل أحدًا.»

«الطبيبة ستأتي إلى هنا.»

«لهذا.»

انتهت إليه كلمته أخيرًا: «المسافات.» ثم صمت. أصلحت ميرا طرف القميص على كتفه، ولم تقل إن المسافات لم تتغير. كانت قد غيرت موضع

السرير لكي يصل إلى الحمام من غير انعطاف. غيّرت اتجاه الكرسي، وعلو الكأس، وطريقة سؤاله عما يريد. صار البيت كله يقترب منه، وكان هو يبتعد.

على المائدة فطور لم يمس. أخذت قطعة خبز وجعلتها صغيرة بما يكفي. رفعها إلى فمه، مضغ، وتوقف. رأت الجهد في عنقه قبل أن يطلب ماءً، فأبعدت الكأس واستدعت الممرضة. جاءت نادية، التي تحمل الاسم نفسه لمهندسة لم يرها منذ سنوات، فانتظر يونس منها خبرًا عن الساحل. قالت إنهما سيتدربان على بلع آمن. نظر إلى ميرا كما ينظر المرء إلى من عليه أن يفسر دخول شخص غريب.

بعد خروجها قال: «لا أريد أن تناديني باسمي الصغير كل مرة.»

«سأقول لها.»

«كأنها تخاف أن أنساه.»

كان قد نسي اسم سليم في مساء سابق. لم تذكره. وضعت على المائدة قطعة الخبز التي لم يستطع أكلها، وغطتها كي لا تجف، ثم أخذتها إلى المطبخ حين نام. لم يبق استعمال واضح لكثير من حركاتها، لكنها كانت تتمها.

وصلت نور قبل الطبيبة، ومعها حقيبة نوم صغيرة. وضعتها في موضع ظاهر، فشعرت ميرا بالامتنان والضيق معًا. كانت ابنتها في الثالثة والستين. تستطيع الآن أن ترى التعب في وجهها إذا عرفت أين تنظر، قرب العين اليسرى، وفي البطء الطفيف الذي يسبق وقوفها بعد ساعات طويلة. كان جسد نور يخضع لصيانة أدق مما خضع له قبل ثمانية وأربعين عامًا؛ ومع ذلك لم يعد جسدًا لا يتعب.

«إياد سيأخذ سليم من الورشة»، قالت نور.

سألت ميرا إن كان الولد قد أخبر جده عن العمل الذي بدأه. قالت نور إنه أخبره مرتين، وإن يونس سأل أسئلة مختلفة في كل مرة. أرادت أن تجعل ذلك خبرًا حسنًا، ولم تستطع إبقاءه كذلك حتى آخر الجملة.

في الغرفة كان يونس مستيقظًا. طلب نظارته، على الرغم من أن الحروف تُكبّر له حيث ينظر. يحب أن يحمل شيئًا إلى وجهه قبل أن يقرأ، ويكره أن تكبر الكلمة فجأة كما لو أن أحدًا لاحظ عجزه قبل أن يلاحظه. وضعت ميرا النظارة في كفه. قال إن على الجميع الجلوس لأن الوقوف يجعله يشعر بأنه تأخر عنهم.

شرحت الطبيبة صور الفحص من غير أن تفتحها أولًا. التدهور تجاوز مناطق كان يمكن عزلها، والإصلاحات السابقة أعطت وقتًا حقيقيًا، لكنها لم توقف المرض. هناك تدخل تجريبي تقترحه منشأة أخرى، يحتاج إلى نقل وإجراءات متتابعة. ربما يستعيد بعض الوظائف. ربما لا يخرج من التخدير إلى القدرة نفسها على معرفة من حوله. لا يستطيع الفريق أن يفصل، قبل المحاولة، بين ما يمكن إصلاحه وما سيتأذى أثناء الإصلاح.

نظر يونس إلى وجهها. كان يحاول اتباع الشرح بالطريقة التي اتبع بها تقارير غيره طوال عمره.

«وإذا لم أفعل؟»

تكلمت عن العناية بما بقي: التنفس والبلع والنوم والألم. قالت إن زمنه لا يمكن تقديره من صورة وحدها، لكن المرض يتقدم. لم تتبع الجملة بعبارة مشجعة. أحبّت ميرا هذا فيها، وكرهتها من أجله.

طلبت نور أن تعرف ما معنى أن يعرفهم بعد العلاج. سألت عن اختبارات الذاكرة، عن الفروق التي يستطيعون قياسها، عن حالات تشبه حالته. بقيت الطبيبة تفرّق بين نتائج صغيرة وأمل أكبر منها. كان هذا ما يفعله يونس نفسه حين يريد أن يحمي مريضًا من وعد غير مأمون. الآن بدا لميرا نوعًا من القسوة المدروسة.

قالت: «لو كان جسده من النوع الذي أملكه؟»

«هذا المرض في البنية التي تربط خبرته، يا ميرا. اختلاف الجسد لا يجعل كل اتصال قابلًا للاستبدال.»

«لم أسألك إن كان كل شيء.»

شعرت بنور تلتفت إليها. تابعت تسأل، هذه المرة عن مسار آخر، وعن إبطاء التدهور، وعن فريق في الضفة الأخرى. أجابت الطبيبة بقدر ما تعرف. عرضت ترتيب رأي ثانٍ، ويمكن أن يصل الفريق إليه بدل نقله إذا اقتصر الأمر على الفحص.

قال يونس: «أريد أن أسمعه.»

تعلقت ميرا بهذه الكلمات تعلقًا أخجلها. بعد خروج الطبيبة وضعت كفها على ركبته وقالت إنهما سيرتبان كل شيء. لم يكن قد اختار العلاج؛ اختار أن يسمع. مع ذلك بدأت تحسب ما تحتاجه حقيبته، وأي غرفة في المنشأة تتسع لمرافق.

سألها: «هل تريدين أن أذهب؟»

«أريدك أن تبقى.»

نظر إلى النافذة، ثم عاد إليها. كانت نافذة المسكن الجديد التي اعتادت فتحها كل صباح. لا بحر وراءها؛ شجرة في فناء واسع، وأجهزة صغيرة تمر بين أوراقها لتلتقط ما مرض منها.

«ليس هذا ما سألتك.»

عرفت الفرق، ولم تجد جوابًا لا يفضحها. قالت إنها خائفة. ظل يمسح بإبهامه حافة غطاء السرير، ثم طلب أن تتركه ينام قبل الاتصال الثاني.

في المطبخ وجدت نور تقطع تفاحة إلى قطع لا حاجة إلى أن تكون صغيرة إلى هذا الحد. وقفتا متجاورتين. قالت ميرا إن ابنتها تستطيع أن تقنعه بالمحاولة. توقفت السكين.

«لم يقرر بعد.»

«هو يجهز نفسه للرفض.»

«ربما يجهز سؤالًا.»

أرادت ميرا أن تقول إن نور لا تعرف يونس كما تعرفه. تذكرت، قبل أن تقولها، أنه أبوها. لم تكن سنواتها معه تخصها كلها. جلست، وأمسكت قطعة من التفاح، ثم وضعتها؛ لم تكن في دورة تغذية تحتاج فيها إلى الطعام.

قالت نور: «لا أستطيع أن أطلب منه ما طلبه مني حين كنت صغيرة. ليست الحالة نفسها.»

«لم أقل إنها نفسها.»

«لكننا نسمعها هكذا.»

من الغرفة جاء صوت شيء وقع. ذهبتا معًا، فوجدتا النظارة على الأرض. كان يونس يحاول الوصول إليها. غضب حين رأى اثنتين تدخلان من أجل نظارة واحدة، ثم ضحك فجأة من غضبه. جلست نور على الأرض ووضعتها على وجهها بالمقلوب، كما كان يفعل معها. قال إنها تفسدها. لم تكن قد أضحكته منذ أيام.

جاء الرأي الثاني في المساء. رجل أكبر سنًا من الطبيبة الأولى، له صوت متقطع لأن اتصاله يمر بمنطقة بحرية تُصان فيها الشبكة. انزعج يونس من تأخر الصورة، ثم طلب أن يستمروا بالصوت وحده. سمع ما يكفي ليعرف أن الخيارات لم تتغير كثيرًا. سأل الرجل عن قدرته على العودة إلى البيت. سأل إن كان سيستطيع تمييز الكذب في كلام أولاده، فابتسم الرجل وقال إنهم لا يملكون اختبارًا لذلك. أصر يونس: «أقصد أن أظل أعرف أنهم يخففون عني.»

لم يأخذ الرجل السؤال نكتة هذه المرة. شرح احتمال بقاء القدرات واختلالها، وما يعجزون عن تقديره. بعد انقطاع الاتصال ظل يونس يطلب إعادة جملة واحدة، فأعادتها نور من التسجيل. سمعها مرتين، ثم قال إن هذا يكفي.

في الليل، حين بقي مع ميرا، وضع إصبعه على موضع التنبيه في مسند السرير، ثم أبعده.

«إذا طلبت الماء فلا تعطينيه قبل أن ترفعي رأسي.»

«لن أنسى.»

«أنا أنسى.»

رفعت المسند قليلًا. تنفس براحة أكبر. طلب أن تبقي الضوء القريب مضاءً. كان يريد الكلام، وهي تعرف كيف يستعد له حين تكون الكلمات قليلة.

قال إنه لا يريد النقل من أجل التدخل. يريد أن يعالجوا ما يستطيعون علاجه هنا، وأن يخففوا ما يؤلمه. إذا تغير تقديرهم فليخبروه، لكنه لا يريد أن يبدأ هذه الرحلة بالنتيجة التي سمعها.

سألته: «ومن أجلي؟»

خرج السؤال صغيرًا. كان أقسى ما قالت له منذ عرفته، لأنها وضعت اسمها حيث ينبغي أن يبقى اختياره.

أغلق عينيه. سمعت الهواء وهو يخرج بصعوبة من أنفه، وخافت أنها أرهقته، ثم فتحهما.

«لهذا أحتاج أن تكوني هنا.»

اقتربت حتى استطاع أن يلمس كمها. كانت قد أصلحت القماش في الموضع الذي يتمسك به؛ لا يعرف أنها فعلت، ولا لماذا اختارت ألا تبدله.

بعد يومين ثبت اختياره مع الطبيبة وهو قادر على الشرح. قال إنه تعب من المستشفيات، وإن ما عرضه الفريق لا يرجح عنده على الوقت الذي يستطيع أن يقضيه في بيته. في اليوم نفسه قبل علاجًا لتخفيف التشنج، وطلب تعديلًا في الجهاز الذي يساعده على النوم. وافقت ميرا على ترتيبات الرعاية، ثم خرجت إلى الفناء واتصلت بالفريق الثاني مرة أخرى، تسأل إن كان قد ظهر شيء جديد خلال يومين.

لم يظهر شيء.

مرت أيام كانت فيها الرعاية عملًا كثيفًا يملأ البيت. تبديل أغطية، وضعية مختلفة للكتف، سليم يجلس إلى جانب جده ويقرأ له خبرًا عن مركب يعمل تحت الماء. كان يونس يقاطعه ليسأل عن كلمة، ثم ينام قبل جوابها. جاء

بشير بفطائر أرسلتها سارة، وترك معها ورقة تقول إنها لا تقبل رأيه في ملحها لأنه لم يعد ذواقًا موثوقًا. قرأها يونس مرتين، ثم طلب من ميرا أن تتصل بها ليقول إنها تتغلب عليه بالغش.

تكلمت سارة طويلًا، وهو قليلًا. بعد المكالمة طلب أن يحفظوا الورقة. لم يطلب حفظ كلامه.

في صباح هادئ غسلته الممرضة وميرا. اعتذر لها عن تعبهما، فنهته الممرضة عن الاعتذار. قال لها إنه يعتذر لميرا، وإنها تستطيع أن تتلقى نصيبها بعد قليل. ضحكت رغمًا عنها، وصار الغسل أقل صعوبة. عندما خرجت بقيت ميرا تمشط شعره القليل إلى الجهة التي اعتادها.

«ليس هكذا.»

توقفت.

«في الجهة الأخرى. كنتُ أتركه هكذا ليبدو أكثر.»

فعلت. رفع حاجبيه كأنه يطلب رأيها. قالت إنه نجح، ثم لم تستطع منع الدمع الرقيق الذي تفرزه عيناها، ولم يكن له في جسدها اسم وظيفي. مسح خده بإصبعه، ظانًا أن قطرة سقطت عليه.

بعد الظهر تغير تنفسه. اتسعت الفجوة بين نفسين، ثم قصرت، ثم اتسعت مرة أخرى. جاءت الطبيبة، عدلت ما يخفف ضيقه، وبقيت قرب الباب. كانت نور إلى الجانب الآخر من السرير. سليم في الفناء مع أبيه؛ رأته ميرا من الزجاج يبحث عن شيء في الأرض كيلا يرفع رأسه.

نادى يونس اسمها مرة واحدة.

«هنا.»

بعد قليل تحركت شفتاه، فاقتربت أكثر. سمعت نصف كلمة لم تعرفها. طلبت منه أن يعيدها، ثم ندمت لأنه بذل جهدًا كي يخرج صوتًا آخر. لم يكن رسالة أخيرة. ربما طلب تعديل الوسادة، ربما اسمًا، ربما لا شيء اكتمل.

وضعت كفها على صدره كما كانت تفعل لتشعر بإيقاعه قبل النوم. لم تعد تعرف هل الحركة التي تحسها تأتي منه أم من ارتجاف أصابعها. قالت الطبيبة كلامًا منخفضًا لنور. أرادت ميرا أن تمنع الكلام حتى ينتهي يونس من كلمته.

لكنه لم يكملها.

بقيت تتوقع النفس التالي بعد أن وضعت الطبيبة أداة الفحص جانبًا. جاء الصوت من جهاز في الممر، فرفعت رأسها. لم يكن منه. لم يعد هناك منه ما يصنع ذلك الصوت.

لا تعرف كم بقيت جالسة. شعرت بنور تضع خدها على كتفها، ثم تبتعد لتسمح لسليم بالدخول. كان قد صار طويلًا، أكبر من الفتحة التي حفظتها له بين المائدة والباب. وقف قرب جده، ولم يجد أحدًا يطلب منه خفض صوته.

في الليلة التالية صار البيت واسعًا في الموضع الذي كان يونس ينام فيه، وضيقًا عند الأشياء التي كان يستعملها. فتحَت ميرا الدرج بحثًا عن كيس النظارة، فوجدت المنديل الذي حمله يوم ذهب مع نور إلى الساحل. في ثنيته حبة ملح قاسية، أو رمل، لم تتبين. وضعته كما كان.

احتاجت أن تسأله أين أعاد مفتاح الصندوق الخشبي. لم يكن في مكانه. وقفت عند باب الغرفة، وقد وصلت إلى فمها بداية اسمه قبل أن تتذكر.

جلست أمام أرشيفه. كان صوته موجودًا في مئات المقاطع. فتحَت واحدًا عاديًا، يسأل فيه إن كانت تريد خبزًا وهو عائد. سمعت نفسها تجيب من بعيد. عرض النظام تجميع استجابة من عباراته السابقة حين كتبت سؤال المفتاح؛ كان قادرًا على صنع صوت يقترح المكان المرجح.

لم تشغله.

أعادت المقطع الأصلي. قال إنه سيمر بالمخبز. بعد ذلك ثلاث ثوانٍ من صمت الشارع، ثم صوت يد تصيب الجهاز، ثم نهاية التسجيل.

انتظرت في تلك الثواني أكثر مما تحتمل مدتها. لم يكن لديه خبر عن هذا المساء، ولا عن المفتاح الذي أضاعه، ولا عن وجهها وهي تسمعه. أغلقت

التسجيل، ونهضت تبحث في جيوب سترته. وجدته في جيب داخلي، حيث لم تكن لتفكر في البحث لو كان هنا لتسأله.

في الصباح حملت السترة إلى نور، ثم عادت بها قبل أن تبلغ بابها. علقتها على المشجب. لم تكن قد قررت لمن ستعطيها، ولم يعد في البيت من يستعجلها على قرار كهذا.

الفصل السادس والعشرون

المدن التي تركناها

2338

قال بشير إنه وُلد في الجهة الخطأ من المبنى.

كانت نور تقف أمام باب مستشفى المدينة القديم، وتراجع موضع المدخل على خريطتها. أشارت إلى الجناح الشرقي، فهز رأسه وقال إن أمه كانت تصر على أن النافذة تطل على الجبل. كان يعرفها من خلاف تكرر بين والديه، ومن صورة أُخذت بعد أيام، يظهر فيها رأس أنس بدلًا من المنظر الذي أرادت سارة تصويره.

رفع عينيه إلى الأدوار العليا. كانت الجهة التي يشير إليها مغطاة بشبكة دقيقة تحمي الحجر أثناء الأعمال. في الداخل أخذت الروبوتات تحرك وحدات تغذية شفافة ستصير جزءًا من مركز لتكوين الأجساد وإصلاحها. اختفى اسم قسم الولادة، وبقيت كلمة واحدة فوق المدخل القديم: «الاستقبال».

«أمي كانت ستقول إنهم أبقوا أهم شيء»، قال.

«ثم تسأل من يجلس فيه.»

نظر إليها. «أجل. هذا بالضبط.»

أحبّت نور أنها استطاعت أن تعيد إليه نبرة أمه من غير أن تشغّل تسجيلًا. كان في الثانية والتسعين، أكبر مما كان أبوها يوم زارا موضع البيت. بشير أصلح أجزاء من دورته الدموية، ويتلقى علاجًا يحفظ توافق الأنسجة التي نما بها؛ لكنه يتعب من صعود طويل، ويخلع أداة سمعه حين يكثر الكلام. لم يكن التعديل الذي كشفته أمينة يومًا وعدًا بإعفائه من الشيخوخة.

قال إن سارة ظلت تأتي لمساعدة الأمهات حتى العام الأخير من حياتها. ماتت سنة 2301، في التاسعة والثمانين. كان يعرف أن نور تعرف، لكنه أكمل السنة والعمر، كأنه يعيد عنوانًا تغيرت أسماء شوارعه. في ذلك العام كانت نور خارج طنجة، وتأخرت رحلة عودتها ساعات؛ وصلت بعد الدفن. لم تكن تريد أن تستبدل ذكرى سارة باعتذارها عن التأخر، فبقيت صامتة.

«وجدت هذا أمس.»

أخرج بشير ملعقة طويلة من غلاف. عرفتها نور؛ التي استعادت سارة ملكيتها يوم أُغلقت العيادة. قال إن حفيدته ظنتها أداة قديمة لفحص الحلق. أراد أن يضعها في المطبخ التعاوني الذي أوصته به إحدى بناته. «على الأقل سيعرفون ماذا يفعلون بها.»

جاءا لغرضين مختلفين. نور تعمل مع فريق يعيد وصل المسارات العامة بالمرافق الجديدة. قرب المطبخ مدخل ينبغي إغلاقه خلال تمديد قناة إمداد، وكانت قد وعدت أن ترى المكان قبل تثبيت البديل. بشير جاء يحمل الملعقة واسم امرأة لم يلتقها. جمعتهما المركبة ثم هذا الباب، فبدت الرحلة عائلية أكثر مما هي عليه.

عندما اجتازا الممر العلوي توقفت نور عند حد الأرضية المتحركة. اختارت المسار البطيء لبشير قبل أن يطلبه. ضغط على معصمها.

«اسأليني.»

سحبت اختيارها. غضبت ثانية من نفسها، ثم منه لأنه رأى في المساعدة ما لم تقصده. سألته، فاختار المسار نفسه. سارا بلا كلام حتى آخره. هناك قال إن ساقه تؤلمه اليوم، وإنه لم يرد أن يبدأ الصباح بسؤال عن الألم. قالت إن لديها السؤال نفسه في كل صباح صيانة، وإنها تفهم. أعطاها غلاف الملعقة لتحمله.

كان المطبخ في مبنى أقصر من المجاورات، بواجهة خضراء فقدت لونها تحت طبقات من الحماية. على اللوحة اسم جمعية لم يعد لها مكتب مستقل. تقاسمت ثلاث جمعيات المكان، ثم بقي المطبخ والمكتبة الصغيرة، وتولى من

يأتي رعايتهما. رأت نور شريط مشروعها عند زاوية الحائط. لم يكن الشريط قد وصل إلى الباب، لكنه كان يعرف طريقه إليه.

في الداخل وقفت امرأة أمام قدر كبير، تمسك الغطاء بفوطة مبتلة. على ذراعها أثر زيت ساخن، وعلى طرف أنفها بياض دقيق لا تعرف به. قالت لهما إن الطعام تأخر، وإن من يريد أن يغضب فليغضب بعد أن يُنزل كيس العدس من العربة.

قال بشير: «نحن لا...»

أشارت إلى العربة. كان الكيس يميل فوق صندوق مفتوح. حملته نور ووضعته حيث طلبت، فوجدت المرأة تتابع عملها من غير انتظار تعريف. بعد ذلك فقط سألت عن اسميهما.

«رحمة»، قالت عن نفسها. «والتي تركتكم تحملون الكيس بدلها آسية. آسية!»

ظهر رأس فتاة من وراء رف الكتب. قالت إنها كانت تبحث عن كتاب لرجل لا يتذكر عنوانه. سألت رحمة إن كان قد تذكر الآن. قالت الفتاة إنه تذكر أنه لم يقرأه هنا أصلًا. دفعت رحمة خصلة شعر عن جبينها بالفوطة، فانتقل إليه الدقيق.

كانت آسية ابنتها كما قالت لها وهي تطلب أن ترتب الصحون، ثم عرّفتها لبشير، بعد سؤال منه، بأنها بنت أختها التي ربّتها. في صدغ الفتاة أثر رقيق لوصلة نمو تُراجع كل بضعة أشهر، وفي حركتها سرعة جعلت ثلاثة صحون تصل إلى المائدة قبل أن تكمل رحمة الجملة.

«اثنان في كل مرة. قلت لك.»

«لن تسقط.»

«وأنا لا أريد أن أعدها وهي تطير.»

وضعت آسية الصحون ببطء مبالغ فيه، ثم ذهبت إلى الرجل الذي ينتظر الكتاب. كان في نظرتها إلى أمها ضجر ابنة في الثانية عشرة من تعليمات لا تنتهي.

قدّم بشير الملعقة. نظرت رحمة إلى مقبضها، ثم إلى القدر، وسألته إن كانت هدية أم يريد إصلاحًا. قال إنها هدية من أمه، متأخرة قليلًا. غسلتها واستعملتها لتصل إلى العدس الملتصق في القاع. تنفس بشير براحة لم تتوقعها نور.

عرّفت نور بعملها. رفعت رحمة رأسها عند ذكر المسار، ثم وضعت الملعقة على صحن.

«أنتِ صاحبة الباب الجانبي؟»

«أنا التي سأراجع...»

«تعالي.»

أخذتها إلى الباب خلف المطبخ. انفتح على زقاق ينتهي بثلاث درجات ثم منعطف ضيق. عند الدرج كانت عربة دفع قديمة، وفوقها أكياس خضار لم يستطيعوا إدخالها. فهمت نور سبب تأخر الوجبة قبل أن تشرح رحمة.

«هذا هو البديل في الرسم. سيارة الإمداد لا تدخل، والعربة لا تدور. حملتُ ما استطعت، والباقي ينتظر.»

قالت نور إن الرسم يفترض تسوية الدرج قبل تحويل الحركة. سألت رحمة عن موعد التسوية. لم يكن الموعد عند نور. اتصلت بالفريق، فظهر أن الإغلاق المؤقت بدأ قبل اكتمال الأشغال المرافقة لأن تأخير القناة يؤثر في موعد نقل جناح كامل من المستشفى. اعتذر المسؤول عن الفجوة. أعطاها يومين.

«والناس يأكلون بعد يومين؟»

نقلت نور السؤال كما قيل، من غير تهذيب. عرض الفريق وحدة حمل مؤقتة. نظرت رحمة إلى الكيس ثم إلى ظهر نور، وقالت إن الوحدة ينبغي أن تأتي الآن، وإن تأخر الطعام اليوم ليس ضررًا يقاس بعدد الشكايات.

في الجهة المقابلة من الزقاق انفتح باب صغير، وخرج رجل على مقعد يتحرك ببطء. حاول النزول عن العتبة فتوقف. قالت رحمة إنه إدريس، وإنه لا يريد أن يأتي أحد إليه بوجبة؛ يريد أن يأتي ليأكلها. مضت إليه، بينما بقيت

نور قرب العربة. كان يمكنها حمل الأكياس أسرع من المرأة، لكن رحمة كانت تعرف أين ينبغي أن تذهب أولًا.

عادت نور إلى المطبخ وخلعت معطفها. رفعت الخضار كيسًا كيسًا حتى فرغت العربة، ثم دفعتها من زاوية مختلفة فمرت. قالت لها رحمة إن رجلي العربة تحتكان بالحائط في كل عبور، وإنها لا تستطيع أن تفعل هذا يوميًا وحدها. أقرت نور بذلك. كانت تريد أن تنتهي من إثبات حسن نيتها لتبدأ إصلاح الخطأ، لكنها وجدت أن النية لم تُطلب منها أصلًا.

جلس بشير إلى مائدة قرب المكتبة، يسلخ قشرة بصل مع رجل آخر. لم تسمع نور ما يقولان. كان يشير بالسكين الصغيرة إلى الملعقة في القدر، ثم يكمل التقشير. رأت عينيه تدمعان؛ من البصل هذه المرة، على الأرجح. جاءت آسية وقد وجدت للرجل كتابًا مختلفًا، فوافق عليه لأنه يتذكر أنه أراد قراءته ذات مرة.

حين أُرسلت الوحدة المؤقتة دخلت من الباب الأمامي الذي قيل إن استعماله لم يعد ممكنًا. احتاج الأمر اتصالًا آخر كي يُفتح حاجز الأعمال عشر دقائق. سألت نور المسؤول لماذا لا يبقى هذا الترتيب يومين بدل أن يعبر السكان الزقاق. قال إن عليه أن يحافظ على فصل المشاة عن المركبات. اقترحت ساعة ثابتة تتوقف فيها المركبات. بعد نقاش وافق على تجربة ذلك في الغد.

كان هذا عملًا تعرف كيف تفعله. عادت إليها ثقتها وهي تشرح التوقيت، ورأت رحمة تسمع من غير اعتراض. ثم قالت المرأة: «اكتبيه عند الباب. الناس هنا لا يرون جدولك في رؤوسهم.»

كتبت نور الوقت على ورقة، وبحثت عن شريط يلصقها. أخرجت آسية واحدًا من درج مزدحم. قالت إنهم استعملوا آخر جزء منه لتثبيت غلاف الكتاب. عرضت نور أن تطبع لوحة جديدة، لكن رحمة طلبت أن يأكلوا أولًا.

انتقلت الوجبة من القدر إلى الصحون في حركة لا تعمل بالكفاءة التي اعتادتها نور. رجل يطلب أقل من حصته ثم يعود يطلب المزيد، امرأة تريد أن

تحمل لزوجها قبل أن تجلس، طفلة لا تأكل البصل. كان الطعام واحدًا، أما تقديمه فاحتاج معرفة تتوزع على الوجوه. وضعت نور صحنًا أمام إدريس، فأعاده وقال إن فيه كثيرًا من المرق. همّت بتبديله، لكن رحمة أخذت الملعقة، أضافت قطعة خبز، ودفعتها إليه. أخذ يأكل من غير احتجاج.

عند المائدة سألت نور عن اللوحة الخارجية. قالت إن الواجهة ستتضرر أثناء تثبيت الدعم، وإن فريق الحفظ يستطيع نزع اللوحة ووضعها في مدخل المركز الجديد. رأت رحمة تنظر إليها بالطريقة نفسها التي نظرت بها إلى مشروع الباب.

«ومن سيأتي إلى هذه المكتبة هناك؟»

«يمكن أن يبقى الاسم.»

«الاسم يبقى إذا جعلوه فوق مخزن أيضًا.»

تدخل بشير ليقول إن نور تريد حمايتها من الكسر. طلبت رحمة منه أن يناولها الماء، ثم قالت إن لديها صناديق من أشياء حماها الناس بينما أُغلقت الأماكن التي كانت تعمل فيها. أرادت من نور أن تساعدها في إبقاء ممر للكبار وفي إيصال الإمداد، لا أن تختار للوح ميت مكانًا حسنًا.

اشتعل غضب نور أسرع مما أرادت. كانت أمها قضت عمرًا في إنقاذ أشياء من التلف، ولم تكن الأشياء كلها ميتة.

«أحيانًا لا نستطيع إبقاء المكان. ما نحمله منه ليس بلا قيمة.»

«لم أقل إنه بلا قيمة.»

«قلتِ لوحًا ميتًا.»

تركت رحمة الخبز، ونظرت إلى اللوحة من النافذة. قالت إن العبارة قاسية. لم تتراجع عن الطلب. كان عمرها أربعة وثلاثين عامًا، ومع ذلك شعرت نور بأنها هي التي تُسأل عن عمل لم تُنجزه. امتدت بينهما أعوام لا تراها المرأة، ولم تكن نور راغبة في رفعها كحجة.

قامت آسية تجمع الصحون. سقط أحدها من فوق الآخر وانكسر عند قدم بشير. أسرعت الفتاة لتلمّ القطع، فمنعتها رحمة بصوت أعلى مما يستحق الصحن. تجمدت آسية، ثم قالت إن أمها نبهتها إلى العدد وقد حملت اثنين فقط. كان هذا صحيحًا. تنفست رحمة، وأخذت المكنسة.

«إذن كان عليّ أن أشتري صحونًا أفضل.»

ضحك إدريس، وعاد الجميع إلى الطعام. بعد قليل وجدت نور الفتاة في المكتبة تحاول إخراج شظية من أسفل حذائها. انحنت وساعدتها. سألتها آسية إن كانت ستُغلق الطريق أيضًا حين يأتي موعدها الطبي. قالت إنها ستبقيه مفتوحًا حتى يُنجز البديل. احتاجت فورًا أن تتصل لتجعل الجملة وعدًا يمكنها الوفاء به.

في العصر جلس الثلاثة أمام ورقة كبيرة رسمت عليها نور الممرات. وضعت رحمة نقاطًا لأسماء السكان الذين يحتاجون إلى الطعام أو إلى من يرافقهم. كانت النقاط قليلة، لكن الخطوط بينها بدلت الخريطة. رجل يستطيع الوصول إلى الباب الأمامي ولا يستطيع الصعود من الخلف؛ امرأة تمر بالمكتبة كي ترافقه ثم تشتري دواءها؛ عامل يساعد في حمل الأكياس أثناء عودته. نقلت نور هذه العلاقات إلى ملاحظاتها، وحذفت من خانة الأثر عبارة كانت كتبتها في المكتب: «تعطيل محدود».

وصلتها رسالة من ميرا تسأل عن اللوحة. كانت قد وعدت أمها بصورة قبل نزعها. كتبت أن النزع مؤجل، وأنها ستشرح حين تعود. لم تقل إن امرأة غريبة رفضت أن تجعلها تحفظ وجه مكان وهي تضيق الطريق إلى بابه.

عند خروجهم لحق بهم إدريس. أعاد إلى رحمة وعاءً قديمًا غسله في بيته. قالت إنها ستعطيه فيه غداء الغد، فأصر على أن يأكل هنا ما دام يستطيع. قالت إنها تعرف، ثم طلبت منه أن يترفق بالباب لأنه لا يملك ذنبًا في تأخر الطعام.

مشوا معه حتى العتبة. دخل منزله وحده بعد أن وضعت نور قطعة خشبية ثابتة تحت عجلة المقعد؛ حل مؤقت صغير لا يصلح أن تبقى عليه الطريق. سألها عن اسمها مرة ثانية، فقالت: «نور العياشي.»

كرر اللقب. قال إنه يعرف رجلًا بهذا الاسم كان طبيبًا، لكنه لا بد يقصد أباها أو جدها. قالت: «أبي.»

«هل ما زال...؟»

«مات منذ أربعة وأربعين عامًا.»

ارتبك الرجل. مدّ لها تعزية خرجت متأخرة كل هذا العمر، فقبلتها. لم تكن قد سمعت أحدًا يعزيها في أبيها منذ زمن. كان الحزن، حين يأتيه زائر جديد، يستطيع أن يفتح له بابًا ظنته مغلقًا.

في المركبة قال بشير إنه سيعود الخميس. سألها إن كانت ستأتي. كان لديها موعد لا تستطيع نقله، وقالت ذلك. نظر إلى المطبخ من الزجاج، ثم طلب أن تتوقف المركبة.

رجع بخطوات متأنية. رأته يعطي رحمة رقم اتصاله، ويشير إلى شيء في الداخل. عندما عاد قال إن مقبض الملعقة مرتخٍ، وإنه سيصلحه قبل أن تنكسر في القدر. لم يكن يريد أن يستبدلوها بأخرى. وافقت رحمة بشرط أن يعيدها قبل الظهر.

تحركت المركبة. على باب المطبخ كانت ورقة نور قد بدأت تنفصل من أحد طرفيها. قامت آسية وضغطتها، ثم وضعت كرسيًا في المكان نفسه لتجلس وتقرأ. ظل الباب مفتوحًا وراءها.

فتحت نور جدول العمل، ونقلت موعدها من الخميس. لم تخبر بشير. كانت تريد في المرة القادمة أن تأتي من غير خريطة، ثم تذكرت أن الممر لم يُسوَّ بعد، فأبقتها مفتوحة على ركبتيها.

الفصل السابع والعشرون

المائدة التي تصغر

2356

وضعت رحمة أربعة صحون، ثم أعادت واحدًا إلى الرف.

كانت نور قد وصلت قبل الموعد بساعة. رأت الحركة من الباب، ولم تسأل عن صاحب الصحن. على الطاولة كيس فاصولياء، وكوب شاي نُسي حتى برد، ووصفة كتبتها رحمة على ظهر إعلان قديم. رفعت المرأة رأسها وقالت إن الساعة تغيرت مرة أخرى في جهازها، وإنها بدأت الصباح مبكرة من غير أن تكسب شيئًا.

«أنا المبكرة»، قالت نور.

نظرت رحمة إلى الساعة على الحائط. كانت متوقفة. خلعتها منذ شهر كي تصلح تعليقها، ثم أعادتها من غير مصدر طاقة. ضحكت من نفسها، وسألت عن تالا.

أخرجت نور صورة حفيدتها. طفلة في الثانية، تحمل ثمرة أكبر من كفها، وفمها مفتوح على اعتراض لا يظهر سببه. قالت إن سليم يحاول إقناعها بأن ما أخذته من الحوض ليس ملكًا لها لمجرد أنها استطاعت الوصول إليه. أخذت رحمة الجهاز وقرّبت الصورة.

«تشبهك حين تريدين أن تربحي نقاشًا.»

«لم تعرفيني طفلة.»

«هذا لا يحتاج.»

أعادت الجهاز، وفتحت درجًا لتخرج ملعقة صغيرة كانت قد وعدت بها تالا. بقيت على طرف الملعقة زهرة زرقاء، نصفها ممسوح. لم تكن من المطبخ القديم الذي حفظته نور؛ اشترتها رحمة لآسية، ثم خرجت آسية من البيت وبقيت الملعقة. قالت إن الأطفال جميعًا يستطيعون الأكل بها، وإن الوردة ليست عهدًا يلزم أحدًا.

كانت آسية في الثلاثين، تعمل في شبكة رعاية بعيدة على الضفة الأخرى. تأتي حين تستطيع، وتتصل أكثر مما تأتي، وتختلف مع أمها في الموعد المناسب لزيارة الطبيب. لم يكن اختلافهما في أصل رحمة البشري أو في تكوينها هي؛ كان في ركبة تؤلم الأم وتقول إنها لا تؤلمها إلا حين تسأل عنها ابنتها.

في ذلك الصباح كانت الركبة مربوطة. التقطت نور الكيس عن الأرض قبل أن تحاول رحمة رفعه. هذه المرة لم تعترض، فقلقت نور.

«ذهبتِ إلى الموعد؟»

«أمس. أخذت الدواء.»

قالت إن الالتهاب قابل للعلاج، وإن الطبيبة اقترحت أيضًا تحسينًا دائمًا يخفف الاعتماد على المفصل. سألت عن الصيانة والتكلفة والحركة بعده، ثم قالت إنها تريد أن تجرب العلاج المحدود أولًا. أعطوها موعدًا للمراجعة. أخرجت بطاقة التعليمات وطلبت من نور أن تقرأ لها كلمة صغيرة؛ لم تكن نظارتها في مكانها.

قرأت نور، ثم أعادت البطاقة. كادت تشرح لها مزايا الخيار الثاني، لكنها رأت أكياس الدواء المرتبة بحسب الأيام. كانت رحمة قد سمعت ما يكفي لتختار الآن. لا ينبغي أن تتحول كل زيارة صديقة إلى استشارة إضافية.

من نافذة المطبخ رأت نور صف الممرات الجديدة. القناة التي جاءت لقياسها قبل ثمانية عشر عامًا تعمل في صمت تحت غطاء مستوٍ. نجحوا يومها في إبقاء المدخل القديم حتى تسوية الدرج، وأصبح الزقاق قابلًا

للعبور. كانت هذه واحدة من المرات التي أصابوا فيها، ومع ذلك لم تمنع المائدة من أن تصغر.

لم يبق من آكلي الظهر اليوميين غير إدريس. الرجل الذي كان يجلس مع بشير انتقل إلى ابنته في الداخل؛ امرأتان ماتتا؛ عائلة أصلحت أجساد أفرادها ثم أخذت سكنًا قريبًا من العمل الجديد. رحمة نفسها تستطيع أن تطهو في بيتها. كانت تأتي كيلا يأكل إدريس وحده، ثم تجلس في المكتبة بعد الطعام حتى المساء. أحيانًا يجيء أطفال يبحثون عن الكتب الورقية، ويعاملون الرفوف برفق يجعلها تشتاق إلى من كانوا يتركون آثار أصابعهم عليها.

سألت نور عن الصحن الرابع.

«كنت أظن أن آسية ستصل.»

«لن تأتي؟»

«قالت إنها ستحاول. ثم نادتني وحدتها قبل ساعة.»

فهمت نور. ربما كانت محاولة ابنتها تعني انتظار مركبة تنقل طفلًا يحتاج إلى رعاية، أو عطلًا لا يستأذن العاملين قبل أن يطيل نهارهم. كل الأسباب جيدة، ورحمة قد وضعت الصحن مع ذلك.

اتصلت بإدريس ليأتي قبل أن يبرد الطعام. لم يجب. أعادت الاتصال، فسمعتا من الطرف الآخر صوتًا قريبًا من احتكاك قماش بالأرض. قالت رحمة اسمه ثلاث مرات، ثم أخذت مفتاحه من درج الملاعق.

خرجتا معًا. كان باب بيته مغلقًا من الداخل، لكن المفتاح الاحتياطي فتح القفل الثاني، ودخلت نور أولًا. وجدته بين المقعد والسرير، على جانبه، وذراعه تحته. كان يحاول الوصول إلى الزر في معصمه، لكنه سقط على الجهة التي تمنعه من رؤية الموضع. رفع عينيه إليها وقال إنه بخير قبل أن تسأله.

لم يكن بخير. بقيتا معه حتى وصلت وحدة الإسعاف. لم ترفعه نور من تلقاء نفسها، وضعت وسادة رقيقة تحت رأسه وابتعدت لتترك للفريق مجالًا.

كانت رحمة عند قدميه، تجمع الأشياء التي أوقعها كيلا تطؤها الآلة. عثرت على كوب لم ينكسر، ووضعته على الطاولة بانتباه غريب، كأنه الدليل الذي ستحتاجه على أن شيئًا واحدًا نجا.

قال إنه نهض ليبحث عن قميص. لم يرد أن يأتي إلى الغداء بقميص نام فيه. شرحت المسعفة أن عليه الانتقال للفحص. سأل عن الطعام، فقالت رحمة إنه سيبقى. سأل إن كانت ستغلق المطبخ، فغضبت منه لأنه يطلب منها ضمانات وهو على الأرض.

«دعهم يرون كتفك أولًا.»

تسللت إلى وجهه مذلة صغيرة. انتبهت رحمة وخفضت صوتها. وعدته أن ترافقه، ثم تذكرت الدواء الذي تركته على النار. عادت نور إلى المطبخ وأطفأت الحرارة، وغطت القدر. الأطباق الثلاثة كانت في مواضعها، والملعقة الصغيرة ذات الوردة إلى جانب صورة تالا التي بقيت مفتوحة.

في المركز قال الطبيب إن الكتف لم يُكسر. كانت هناك إصابة مؤلمة وتدهور في التوازن يحتاجان إلى متابعة، لكن المشكلة الأكبر صارت الليالي التي يقضيها وحده. يستطيعون إعادة إدريس إلى بيته مع رعاية متكررة وتجهيزات إضافية، إذا أمكن تأمينها. أو ينتقل إلى مسكن للرعاية يبقى فيه من يجيبه حين يسقط.

قال إدريس: «لا أسقط كل ليلة.»

«هذه المرة لم تصل إلى التنبيه.»

«وصلتا.»

كانت رحمة تجلس عند طرف السرير. لم تنظر إلى نور. قال الطبيب إنه لا يستطيع أن يبني الخطة على أن تصلا كل مرة. سكت إدريس، وأغلق عينيه كمن يسحب نفسه من نقاش لم يعد يملك فيه حجة.

في الممر قالت رحمة إنها تستطيع أن تبيت عنده أيامًا. سألتها نور عن ركبتها، فرفعت كتفها. قالت إنها ليست مشلولة. عرضت نور أن تتناوبا، ثم

فتحت مواعيدها فرأت موعد صيانتها بعد ثلاثة أيام، ورحلة العمل التي وعدت أن تلغيها مرة واحدة من قبل. كانت تستطيع إلغاء أشياء كثيرة، لكنها لا تستطيع صنع ليل دائم من زيارات متقطعة.

قالت رحمة: «لا تنظري إلى الجدول هكذا. لن أحاسبك.»

«أنا أحاول أن أعرف ما نستطيع.»

«أنا أيضًا.»

وقفتا عند نافذة تطل على ساحة واسعة. عبرتها عربة تنقل مريضين، وبين مقعديهما نبتة صغيرة ثبتها أحدهما. كان المركز حسنًا. هذا جعل الكلام الذي يجب أن تقولاه أكثر صعوبة، لأنهما لم تستطيعا أن ترفضا مكانًا سيحمي الرجل بحجة أنه سيئ.

طلبت نور زيارة الغرفة المعروضة قبل أن يقرر. كانت في جناح يتقاسمه أربعة سكان، لكل واحد غرفته، ومطبخ مشترك يعمل في أوقات محددة. لا يسمح النظام باستعمال اللهب في الغرف. رحمة لا تحتاج إلى لهب بعينه؛ قالت إنها تريد أن يعرفوا أنه لا يأكل الطعام مهروسًا لمجرد أنه مسن، وأنه يرفض كثير المرق ثم يطلب خبزًا ليأكله معه.

سجلت الموظفة ذلك. سألت إن كان لديه قريب مخول. قالت رحمة إن له ابن أخ في مدينة أخرى، وإن الاتصال به جارٍ، وإنهما صديقتاه لا ابنتاه. احتاجت الموظفة إلى تعديل خانة، فانتظرتا. على الشاشة كانت خانة الأسرة أسهل من المساحة التي تحتاج إليها علاقتهما به.

جاء ابن الأخ مساءً. كان مرهقًا، وقد ترك عملًا لم يستطع شرحه إلا وهو يتلقى رسالة منه كل بضع دقائق. عرض أن يأخذه إلى بيته، لكن البيت بعيد عن الأطباء، وله طفل يحتاج إلى وحدة رعاية لا تُنقل. جلس إلى عمه وخفض جهازه كأنه يضع سلاحًا على الأرض. تكلموا طويلًا، وفي النهاية طلب إدريس أن يرى الغرفة بنفسه.

رافقته رحمة. بقيت نور لتجمع ثيابه وأدويته من البيت. حين فتحت الخزانة رأت القميص الذي حاول بلوغه، أزرق خفيفًا، على علاقة أعلى من راحته ببضعة أصابع. أنزلته ووضعت معه قميصًا آخر. خلفهما ورقة أسماء أرقامها قديمة، وعند أحد الأسماء علامة سوداء. كان اسم بشير في أسفلها، لم يُشطب بعد موته قبل أربع سنوات.

حملته نور في صدرها لحظة. مات بشير بعد مرض لم تعد الإصلاحات تحبس تدهوره؛ جلست معه رحمة في أسبوعه الأخير، وأعادت إليه الملعقة بعد أن أصلحت مقبضها كي يرى أنها لم تضِع. لم تكن نور حاضرة في كل ساعة من ذلك الأسبوع، لكنها كانت حاضرة حين طلب أن تعرف ابنته مكان الأوراق. بقي من ذلك اليوم عندها ضيق في الكتف كلما حملت صندوقًا إلى مستشفى.

وضعت ورقة الأسماء مع الثياب. لم تشطب بشير. كان هذا قرار صاحبها، إذا أراد.

في الغرفة الجديدة طلب إدريس تقريب المقعد من الباب. أراد أن يرى من يمر. قال إن السرير مريح أكثر مما ينبغي، وإنهم يريدون أن ينام نهارًا ليكف عن الإزعاج. أجابته رحمة بأن أحدًا لم يعرفه بعد كي يتخذ إجراءً كهذا. ضحك ابن أخيه، ثم بكى فجأة وهو يعدل رباط الحقيبة. تظاهر بأنه يبحث عن شيء سقط، وأعطته نور الوقت.

قبِل إدريس الانتقال على أن يعودوا به إلى المطبخ مرة في الأسبوع حين يستطيع. قالوا إنهم سيجربون النقل بعد استقرار كتفه، وإن رحمة ستأتي إليه بالطعام في أول خميس. عند خروجهم طلب منها أن تأخذ العلبة الزرقاء من بيته. فيها حلوى كان يشتريها لضيوفه. قال إن أحدًا هنا لا يحتاج إليها، فغضبت منه وقالت إنها ستحتاج حين تأتي.

في اليوم التالي جلست رحمة ونور في المطبخ وحدهما. كان الطعام الذي بقي من أمس محفوظًا، لكن القدر لم يشتعل. أخرجت رحمة حساب الكهرباء والماء، ووضعته على الطاولة ثم أعادته إلى الملف من غير أن تقرأ الأرقام

بصوت. كانت قد تأخرت في اتخاذه لأنها تعرف من سيأتي ظهرًا، ثم لم يعد يأتي أحد.

«أستطيع أن أساعد في الإيجار»، قالت نور.

«إلى متى؟»

حسبت نور شهورًا وسنة. قالت إنها تستطيع طلب تمويل صغير للمكتبة. قالت رحمة إن المكتبة ستقبلها مدرسة قريبة، وإنها تريد أن تذهب الكتب إلى من يستعملها. المطبخ هو الذي لا تعرف ماذا تفعل به.

«يمكن أن يبقى مفتوحًا يومين.»

«لمن؟»

نظرت نور إلى الصحن الذي أعادته رحمة صباح أمس. لم يكن لإدريس وحده، ولا لآسية وحدها. كانت المرأة تسألها عن الأشخاص الذين يستطيعان جمعهم، لا عن القيمة التي يتفقان على أن المكان يحملها.

طلبت رحمة منها أن تساعدها في نقل الموقد إلى قاعة المدرسة. وافقت المدرسة أن تستقبل دروس طبخ يقيمها السكان إذا أرادوا، لكن لن يكون هناك غداء يومي ولا طاولة ينتظر عندها أحد. قالت رحمة إنها ستعلم الأطفال ما تستطيع. بدت الجملة أخف مما حملت من تنازل، لأن التدريس شيء تحبه فعلًا.

أفرغتا الرفوف خلال أيام. جاءت آسية في اليوم الثالث، وتركت في المدخل حقيبة سفرها قبل أن تعانق أمها. بكت رحمة من الغضب أولًا: لماذا لم تقل إنها ستأتي؟ ثم أطعمتها طعامًا حفظته من أجلها رغم قولها إنها لا تنتظر أحدًا. عملتا متجاورتين في جمع الكتب، وتجادلتا في الكتاب الذي اشترته آسية من مالها وهي صغيرة ثم نسبته رحمة إلى المكتبة.

أُنزِلت اللوحة الخارجية. هذه المرة طلبت رحمة من نور أن تحملها إلى مدخل المدرسة. تغير ما تستطيع اللوحة أن تدل عليه، وصار إنقاذها آخر عمل ممكن في سلسلة أعمال لم تكفِ.

في آخر ظهر طبخت رحمة ثلاث حصص. وضعت اثنتين في وعاء يحتفظ بالحرارة، وأكلت الثالثة واقفة وهي تنظف الحوض. قالت نور إنها ستجوع لاحقًا. قالت رحمة إنها تعرف نفسها، ثم وضعت خبزًا إضافيًا في الحقيبة.

عند الرف الأخير وجدت دفتر الوصفات. بعض صفحاته في خطها، وبعضها في خطوط أشخاص لم تعد تسألهم عما كتبوا. صفحة بلا مقادير، لأن صاحبتها كانت تقول إن من يحتاج إلى مقدار الملح لا ينبغي أن يبدأ بهذا الطبق. بقعة زيت تخفي كلمة، وتعليق من آسية على وجبة لم تحبها. عرضت نور تصويره، فقالت رحمة إنها فعلت، ثم وضعته في حقيبتها على الرغم من ذلك.

أخذتا الطعام إلى إدريس. وجداه قرب باب الغرفة كما طلب، يتابع حركة الداخلين. كان كتفه في حمالة، وحذاؤه مرتبًا تحت المقعد. سأل لماذا جاءتا مبكرتين. قالت رحمة إن الموقد في المطبخ أُطفئ، ثم انتظرت.

نظر إلى الوعاء. «نهائيًا؟»

«نعم.»

لم يلومها. تمنت نور لو قال شيئًا يمكن الرد عليه. فتح إدريس الغطاء، فصعد البخار إلى وجهه. تراجع قليلًا كيلا تتأذى عينه، ثم سأل إن كانت وضعت البصل على طريقتها أو على طريقة الطبيب.

«كُل، وستكتشف.»

وضعت له الملعقة في كفه السليمة، وجلست. جلست نور إلى الجهة الأخرى. ضاق المكان بثلاثتهم، فاستأذنتهما الممرضة أن تنقلا الطاولة أصابع قليلة كي يظل الممر آمنًا. فعلتا.

أكل إدريس ببطء، واعترض على المرق كما يفعل دائمًا. أضافت رحمة الخبز. حولهم استمر الجناح في عمله؛ مريض يستدعي أحدًا، باب يُفتح، آلة تمر من غير أن تحتك بالمقاعد. كانت الرعاية هنا أفضل. كانت نور تراها في كتف الرجل الذي استقر، وفي ساقي رحمة اللتين استطاعتا أن ترتاحا أخيرًا.

عند المساء، في طريق العودة، طلبت رحمة أن تمر المركبة أمام المطبخ. لم تنزلا. وراء الزجاج ظهر الباب مغلقًا، واللوحة منزوعة، وبقي مربع أغمق من لون الواجهة. كان كرسي آسية قد أُخذ إلى المدرسة.

قالت رحمة: «نسيتُ أن أطفئ الضوء الخلفي.»

كان الضوء مطفأً. قالت نور ذلك، فحدقت رحمة حتى تأكدت، ثم طلبت أن يمضيا. ظلت الحقيبة التي تحمل دفتر الوصفات في حضنها، ولم تسندها إلى المقعد الفارغ بينهما.

الفصل الثامن والعشرون

ما لا تستبدله اليد

2372

كان المقبض ثابتًا، لكن ميرا ظلت تشد المسمار.

رأت نور برادة الخشب تتجمع تحت القطعة، فتقدمت وأمسكت مفك أمها من الطرف غير الحاد. توقفت ميرا، ونظرت إلى الأداة كأنها انتقلت إليها من يد شخص آخر. على الطاولة قطعة الإطار التي خرجت من البيت، موضوعة على وسادة ترميم صغيرة. لم يبق فيها ما يسمح بمسمار جديد في الموضع نفسه.

«انتهى»، قالت نور.

اختبرت ميرا المقبض. كان يتحرك حركة قصيرة، ثم يعود. رضيت عنه، وبعد ثوانٍ مدّت أصابعها إلى المفك ثانية.

لم تكن هذه أول مرة. كانت أول مرة تراها نور تحدث أمامها من غير أن تنتبه أمها إلى التكرار. في الأسابيع السابقة ضاعت أسماء أدوات، وتداخلت مواعيد، وبدا أن ليلة نوم كاملة تعيد شيئًا من ترتيبها. أما الآن فالمسمار بلغ آخر ما يستطيع الخشب احتماله، واليد مستعدة لدورة أخرى.

أبعدت نور الأداة، وقالت إنها تحتاج إلى إصلاح شيء في حقيبتها. لم تصدق ميرا الحيلة.

«أخفيته عني.»

«وضعتُه هنا.»

أشارت إلى حافة الطاولة. رأت في عيني أمها غضبًا سليمًا، واضحًا إلى حد أراحها. قالت ميرا إن عليها أن تسأل قبل أن تقطع عليها عملها. اعتذرت نور، وأعادت المفك إلى المكان الذي تستطيع رؤيته. جلست إلى جوارها حتى جاء وقت الموعد.

كانت ورشة ميرا أصغر مما كانت في شباب نور. تخلت عن الأعمال التي تحتاج إلى حمل ثقيل، ثم عن المواد التي تتطلب مراقبة ليلية، وأبقت ما تستطيع أن تلمسه وتتركه وتعود إليه. على الجدار صور لترميمات بقيت في مبانٍ لم يعد الناس يعرفون أسماء مرمميها. تحتها رف فيه قطعة خشب واحدة لا شهادة لها ولا صاحب ينتظر تسليمها.

قالت نور: «سنأخذها معنا.»

«إلى أين؟»

«المركز. الموعد اليوم.»

ذكرت ميرا اسم المركز الصحيح، ثم نهضت تبحث عن حقيبتها. لم تكن الذاكرة كلها غائبة. هذا ما جعل نور تعيد، في كل مرة، حساب ما رأت. ربما إجهاد، ربما اضطراب تغذية عابر، ربما خلل في تنظيم الإشارات يمكن إصلاحه كما أُصلحت أشياء أكثر صعوبة. كان جسد أمها قد خرج من أعطال كثيرة إلى حياة أطول؛ حملت نور هذه السوابق أمامها كما تحمل أوراقًا قديمة تثبت حقًا لا يريد أحد الاعتراف به.

في الطريق سألت ميرا عن يونس.

لم تسأل أين هو. سألت إن كان يعرف أنها ستتأخر. قالتها وهي تضبط طرف كمها تحت حزام المقعد. توقفت نور قبل أن تجيب. كانت قد سمعت عن هذا السؤال، واستعدت له، وقرأت ما تقوله الأسر حين يعود شخص ميت إلى صباح من يحبونه. لم ينفع الاستعداد عندما صار اسم أبيها في فم أمها حاضرًا هكذا.

«أبي مات، ماما.»

سكنت ميرا. أشارت بإصبعها إلى مكان في الهواء كأنها تحاول تثبيت التاريخ. قالت: «نعم.» ثم بعد قليل: «كنتُ هناك.»

«كنا معك.»

انكفأت على نفسها قليلًا. أرادت نور أن تلغي الدقائق التي سبقت السؤال، ثم أن تلغي جوابها، ثم أن تجد طريقة لا يضطر فيها أحد إلى تلقي موت الشخص نفسه مرة أخرى. لم تجد. بقيت إلى جوار أمها، وقالت إنهما سيتوقفان بعد الموعد ليأكلا شيئًا إذا رغبت.

قالت ميرا: «لا أحب أن تحدثيني هكذا.»

«كيف؟»

«حين تخافين.»

التفتت نور إلى الطريق. في الزجاج صورتاهما، ابنة تجاوزت المئة والأربعين وأم لا تشبه أمًّا بشرية في هذا العمر، لكنها تبدو متعبة بما لا يستطيع الضوء إخفاءه. وضعت نور حقيبة الأدوات بينهما بدلًا من الكلمات التي لم تعد نافعة.

في المركز طلبت ميرا أن تجلس إلى الطاولة لا على سرير الفحص. وافقت الطبيبة ديمة. أعطتها أشياء لترتبها، وأسئلة لا تبدو أسئلة كبيرة حتى يعجز المرء عن إتمامها. استطاعت أن تحدد مادة في قطعة أثرية لم تتعرف إليها نور أصلًا. بعد ذلك خلطت بين ما فعلته قبل دقيقة وما كانت تنوي فعله. غضبت، وطلبت من الطبيبة ألا تسجل جوابًا لم تنته منه.

انتظرت ديمة. حين انتهى الفحص قالت ميرا إن نصف الأدوات التي استعملوها رديئة. سألتها الطبيبة عن النصف الآخر. لم تجب، لكنها بقيت جالسة لتسمع.

أظهرت الصور تغيرات في النسيج العصبي الحي، وفي الوصلات التي تصل أنماط نشاطه بمراكز المعالجة الصناعية. بعض المناطق ما زال يستجيب جيدًا. مناطق أخرى تفقد الترابط حين يُطلب منها أن تعمل معًا.

تستطيع الفرق استبدال وحدات طرفية وتعديل التغذية وإصلاح مسارات محددة؛ أما البنية التي حملت خبرتها طوال عمرها فلا تُسحب من مكانها وتُعاد سليمة في وعاء آخر.

قالت نور: «لقد أصلحتم اليد ثلاث مرات.»

«اليد ليست المنطقة التي نتحدث عنها.»

كانت تعرف ذلك. شعرت بالإهانة من اضطرار الطبيبة إلى قوله، ثم أدركت أنها هي التي وضعت المقارنة على الطاولة. نقلت السؤال إلى الاحتمالات التي يستطيع الفريق اختبارها الآن. هناك مسار علاجي محدد، يستهدف اضطرابًا في التروية وفي التبادل بين مكونين. إذا تحسن، ربما يستعيد بعض التوافق الذي ضاع. لا يمكنهم معرفة مقدار الضرر الباقي إلا بعده.

سألت ميرا: «هل أستطيع أن أعمل بعده؟»

قالت ديمة إن هذا أحد الأشياء التي تريد أن تستعيدها لها. سألت عن الخشب، لا عن اسم المرض. شرحت ميرا أين انشق الإطار، وكيف احتاجت إلى دعامة خفية كي يظل المقبض في موضعه. كانت دقيقة، ولم تحتج إلى مساعدة نور. في نهاية الشرح سألت الطبيبة عن شيء كانت قد أجابت عنه قبل قليل.

اختارت ميرا العلاج. أرادت أن تبدأه ما دام ممكنًا. كانت تريد وقتًا أكثر، وعملًا لم يكتمل، وابنتها التي تضيق عيناها عند محاولة منع البكاء. قالت إنها لا تريد وعودًا كثيرة، لكن لا ينبغي لأحد أن يظن أنها تعبت من الحياة لمجرد أن جسدها قديم.

شعرت نور بالخجل من فكرة لم تقلها حتى لنفسها: أنها كانت تتهيأ لوداع هادئ يسهل أن تفهمه. أمها لم تتعاون مع هذا الهدوء. سألت عن الفريق، وطلبت أن ترى خطة اليوم الأول، واعترضت على تأخير لا تعرف سببه. اتصلت ديمة بالجراح، وعدّلوا الموعد.

في الليلة السابقة للعلاج جاء سليم. كان في الرابعة والتسعين، يُبطئ خطوته حين يدخل الغرف كيلا تفاجئه الأرضية، لكن وجهه ما زال يحتفظ بتلك الانكماشة التي تعرفها نور من طفولته قبل البكاء. أحضر لتلك الليلة وعاء طعام من البيت، وأصر أن تتذوقه جدته. سألته ميرا إن كان قد أصلح ذراع الحصاة التي صنعها في التدريب.

قال: «صنعت بعدها أشياء كثيرة.»

«أعرف.»

جاءت الكلمة قاطعة، سليمة، وفيها عنادها. أراحته أكثر من أي نتيجة فحص. أخبرها عن شيء يعمل عليه الآن، وعرض صورة لتالا في رحلة ميدانية. كانت تالا في الثامنة عشرة، على منصة بحث تطفو قرب الساحل، وشعرها مربوط إلى الخلف كيلا يعيق مجال أدواتها. لم تستطع أن تأتي بسبب الحجر الوقائي الذي يسبق التدخل. أرسلت تسجيلًا لم تستعمل فيه صوتًا حزينًا، فشكرتها ميرا على ذلك حين أعادت نور الاتصال.

«لم أكن أعرف أنني ينبغي أن أحزن»، قالت تالا من بعيد.

ضحكت ميرا. «جيد. استمري قليلًا.»

في منتصف الحوار فقدت ميرا اسم الشيء الذي تريد أن تسأل عنه، فأنهت الاتصال بعصبية، ثم طلبت إعادته لتعتذر. استطاعت أن تجرح أحدًا، وأن تعرف أنها فعلت، وأن تحاول إصلاحه. تمسكت نور بهذا كله.

جاء إياد في وقت متأخر، بعد أن أنهى عمله على الضفة الأخرى. احتضن نور في الممر، فشعرت بتعبها كله يندفع إلى الجزء من جسدها الذي استند إليه. عرض أن يتولى اتصالات اليوم التالي، وأن يعيد سليم إلى البيت. قالت له إنها تستطيع. أجاب بأنه يعرف، ثم أخذ الجهاز من يدها برفق، وترك لها فقط ما تحتاجه لتبقى قرب أمها.

في صباح التدخل طلب الفني أن تُخرج ميرا خاتمها. وضعته نور في كيس صغير، ثم أخرجته من الكيس ووضعته في جيب مغلق. كان من المضحك أن

تخاف ضياعه داخل نظام يعرف موضع كل أداة، لكنها احتاجت أن تعرف موضعه في جسدها هي، لا على شاشة.

انتظرت ساعات في الممر. في وقت محدد جاء تنبيه صيانتها الخاصة، فأسكتته. أعادها النظام إلى موعد بديل أقصر، وفي المساء طلبت ديمة منها أن تذهب إلى وحدة المراجعة في المبنى نفسه. رفضت أولًا. قالت الطبيبة إن ميرا لن تستيقظ خلال الساعة المقبلة، وإن نور لن تحميها بإهمال خلل يبدأ في جسدها.

كرهت أن تُقال لها حقيقة كهذه في ذلك اليوم. ذهبت، وجلست تحت أدوات الفحص، بينما يعرض الجزء الآخر من جهازها حالة أمها. احتاجت إلى تعويض في التغذية وإعادة ضبط بسيطة. انتهى الأمر في سبع وأربعين دقيقة. خرجت وهي أفضل مما دخلت. كان نجاح علاجها، على بعد ممرين من غرفة ميرا، شيئًا لم تستطع شكره كما ينبغي.

استيقظت ميرا في اليوم التالي، وعرفت اسمها واسم نور والمكان. طلبت ماءً باردًا، فرفضت الممرضة وأعطتها ما يناسب حالتها. قالت إن الماء الدافئ مؤامرة قديمة على المرضى، ثم نامت. ضحكت نور بعد أن أغلقت عينيها؛ ضحكت وهي تتصل بسليم لتقول إن جدته اشتكت من الماء. بدا لها هذا، لساعة واحدة، أكبر خبر في العالم.

عاد التحسن على دفعات. في الظهر أمسكت ميرا فرشاة، ونظفت طرف الإطار الذي أحضرته نور. توقفت كل بضع حركات لترتاح، لكنها لم تعد إلى الموضع نفسه بلا نهاية. شرحت لابنتها لماذا لا ينبغي ملء الشق كله، وأن الخشب يحتاج إلى مجال ضئيل يتمدد فيه. وضعت نور الأداة التي طلبتها أمامها، وكانت شديدة الدقة في ترتيبها، كأن خطأ واحدًا منها يستطيع أن يفسد عودة أمها.

جاءت رحمة في اليوم الثالث، تحمل شوربة في وعاء صغير. بلغت الثامنة والستين، وصارت تمشي بعصا في الأيام التي تتعب فيها ركبتها، لكنها بقيت تحضر الأشياء التي يمكن استعمالها لا الهدايا التي تحتاج إلى مكان. سمعت

شرح ميرا للخشب، وقالت إنها ستترك مقعد مطبخها عندها لتصلحه حين تخرج. رمقتها نور بتحذير خفي، فتجاهلتها.

قالت ميرا: «أنا لا أصلح الكراسي للجميع.»

«لهذا انتظرتُ أن تمرضي.»

ضحكت ميرا حتى تعبت. بعد خروج رحمة قالت لنور إنها تحب صديقتها الوقحة. علّقت نور هذه الجملة في ذاكرتها كما تُعلّق قطعة لا تريد أن تمسها الرطوبة.

في المساء تغير شيء. توقفت ميرا في منتصف جملة، ثم أعادت بدايتها بثلاث كلمات لا تتصل بما قبلها. دخلت ديمة، وأبعدت الإطار عن السرير، وبدأت فحوصًا سريعة. رأت نور القلق في سرعتها لا في وجهها. كانت اليد التي تمسك الفرشاة قادرة على الحركة، والأصابع تستجيب، لكن القدرة على جمع ما تراه ميرا وما تقصده بدأت تتفكك من جديد.

عمل الفريق طوال الليل. وصلت تغذيتها كما ينبغي، وانخفض مؤشّر مقلق، ثم ارتفع آخر. سُئلت نور عن تسلسل الأعراض، فأجابت بدقة أدهشتها؛ تستطيع أن تتذكر كل ثانية في الوقت الذي تعجز فيه عن فهم ما يحدث. سألت إن كانوا يستطيعون إعادة التدخل. قالوا إن تكراره فورًا لا يستهدف الجزء الذي ينهار الآن، وقد يزيد الضرر. بدأوا دعمًا آخر، وأحضروا مختصًا كانت تنتظر قدومه كما ينتظر المرء شخصًا يحمل خبرًا خارج الأخبار.

لم يحمل ذلك الخبر.

في الصباح جلست ديمة معها. قالت إن التحسن كان حقيقيًا، وإنه لا يكفي لوقف ما تتكشف شدته الآن. بعض البنى بقي، وبعضها لم يعد يحتفظ بالاتصال الذي يحتاج إليه ليستعيد العمل. سألَت نور عن نسخة من أمها قبل المرض. قالتها بصوت لا يشبه صوتها.

شرحت الطبيبة ما يمكن أن تحفظه السجلات، وما لا تحفظه. يمكنهم صنع محاكاة تعرف كثيرًا من عادات ميرا وتجيب بصوتها إذا كانت قد سمحت

بذلك، لكن هذا لا يجعلها الشخص الذي يحاولون إنقاذه في الغرفة. ولا يملك الفريق إجراءً ينقل استمراريتها إلى جسد آخر.

قالت نور: «لا أريد صوتها.»

سكتت ديمة. تركتها تتم الجملة إن أرادت. لم تتمها نور، لأن بقية الجملة واضحة إلى حد الإذلال: تريد أمها.

دخلت فوجدت ميرا مستيقظة. تابعتها حتى جلست، ثم حركت أصابعها فوق الغطاء. قرّبت نور كفها. قالت ميرا كلمة سمعتها «نور»، أو أرادت أن تسمعها كذلك. لم تسألها أن تثبت اسمها مرة أخرى.

«أنا هنا، ماما.»

كانت ميرا تنظر إلى شيء قرب النافذة. نقلت نور قطعة الإطار إلى الموضع الذي تستطيع رؤيته. اتسعت عيناها قليلًا. حاولت رفع ذراعها، فأعانتها نور حتى لمست الخشب. تحركت الأصابع في مساره الصحيح، ووقفت عند الشق. لم يكتمل العمل، لكن الحركة احتفظت بشيء عرفته نور من مئات الأيام التي جلست فيها تشاهد أمها.

بعد الظهر لم تعد ميرا قادرة على إبقاء عينيها مفتوحتين طويلًا. بقي الدعم يعمل، وبقي الفريق يعالج ما يمكن علاجه. احتاجت نور إلى أن تخرج دقيقة لتجيب سليم، فتمسكت أصابع أمها بكمها. ربما كانت استجابة للحركة، وربما طلبًا؛ لم يكن عليها أن تحسم ذلك كي تجلس.

جلس إياد قرب الباب حين جاء. وصل سليم، ثم رحمة. لم يقفوا جميعًا حول السرير. كان المكان صغيرًا، وميرا تحتاج إلى العاملين أكثر مما تحتاج إلى جدار من الوجوه. خرج من خرج، وعاد من عاد، وظلت نور تحمل كفها.

في ساعة لم يميزها الضوء عن سابقتها طلبت ديمة من الفني تغيير وضع الدعم. تحركا بسرعة، وقالت الممرضة اسم ميرا مرتين. انتظرت نور أن تعترض أمها على النبرة أو على لمسها. لم تعترض. نظرت إليها، أو ظنت نور

أن عينيها تحركتا نحوها، ثم لم يبق في الوجه ما تستطيع أن تتبعه إلى جواب.

حين أخبرتها ديمة لم تصدقها فورًا. كانت أصابع ميرا ما زالت مقفلة على كفها. قالت ذلك. فحصت الطبيبة وضع اليد، وشرحت بهدوء أن التثبيت الطرفي بقي يعمل، وأنه يحافظ على الضغط الذي استقر عليه.

لم تسحب نور كفها.

مرت دقيقة، أو أكثر. احتاجت الطبيبة إلى تحرير التثبيت كي لا يضغط على مفصلها. سألت نور أولًا. هزت رأسها من غير أن تنظر إليها. ارتخت الأصابع بحركة سلسة، جيدة، حركة يد صُلحت بعناية وكانت قادرة على العمل سنوات أخرى.

وضعتها نور على الغطاء. أعادت إليها الخاتم الذي حملته في جيبها، ثم نزعته ثانية حين تذكرت ما ستحتاج إليه إجراءات الجسد. لم تعرف أي الحركتين أشد قسوة. أخذت رحمة الخاتم منها ووضعته في الكيس الصغير، وبقيت إلى جانبها من غير كلام.

في المساء حملت نور الإطار إلى البيت. كان عليه الشق نفسه، وفي أحد أطرافه أثر جديد من فرشاة أمها. وضعته على الطاولة ولم تعدل ميله. اتصلت تالا، فلم تستطع نور أن تقول الخبر مرة أخرى. تولى سليم الكلام من مكان قريب، بصوت رجل يشرح لابنته موت جدته، بينما سمعت نور في صوته الطفل الذي كان يسألها متى تعود ميرا من الورشة.

في الليل وجدت المفك في الحقيبة. كانت هي التي وضعته هناك صباح الموعد، بعيدًا عن الخشب كيلا تواصل أمها شد المسمار. أخرجته ووضعته إلى جانب الإطار. بقي الاثنان على مسافة قصيرة، لا ينقصها شيء يمكن ليدها أن تفعله.

الفصل التاسع والعشرون

لا أحد يتذكر الرائحة

2380

أعادت تالا رائحة الخبز قبل أن تعيد المائدة.

دخلت نور الغرفة المعدة للتجربة فتوقفت عند الباب. كان أمامها فضاء أبيض، وفي آخره مقعد حقيقي، لكن رائحة دافئة عبرت وجهها من موضع ينبغي أن يكون فيه فرن. حملت حافة احتراق خفيفة، ورطوبة قماش تُرفع عن عجين، وشيء حلو لا تعرف اسمه. أخذت نفسًا آخر قبل أن ترى حفيدتها تراقبها.

«لا تقولي شيئًا الآن»، قالت تالا. «دعيني أكمل.»

اشتغلت حدود المطبخ. ظهرت النافذة في موضعها، واللوح على المائدة، وتغير الضوء حتى صار مائلًا من جهة البحر. حين تقدمت نور بقيت الأشياء ثابتة في مواضعها، وحين مدّت أصابعها وجدت عند حافة المائدة مقاومة محسوبة. استندت قليلًا، فتغيرت المقاومة لتحتمل وزنها. كل شيء جرى بلطف، كأن الغرفة تريد ألا تخيفها بما تستطيع فعله.

كان عمر تالا ستة وعشرين عامًا. درست البيئات الحسية، وصارت تعمل مع فريق يستطيع أن يعيد بناء الأماكن من قياساتها وآثارها وتسجيلات شاغليها. رفضت أن تسمي عملها «استعادة الماضي» حين سألتها نور في البداية. قالت إنها تصنع مكانًا صالحًا للزيارة، وإن الماضي أكبر من قياسات الغرفة. أعجب نور ذلك الجواب، فأرسلت إليها ما سمحت ميرا بإتاحته من أرشيف البيت.

الآن بدا الكلام أقل قدرة على حمايتها من النتيجة.

رأت أثر الحرق الذي لم يعد على يد أمها، مرسومًا في صورة عائلية موضوعة قرب النافذة. كان يونس أصغر من كل ذكرى انتهت إليها في السنوات الأخيرة. أمامه كوب لم تذكر لونه هكذا. قالت إن اللون مختلف. عدلته تالا، فصار أقرب، ثم أبعد. طلبت نور أن يعود كما كان في المصدر.

«لا تثقي بذاكرتي في كل شيء.»

«لهذا أريك.»

كانت حفيدتها متحمسة، لكن حماسها ليس جهلًا بما فُقد. حضرت موت أشخاص، ورأت أمها تتعافى من مرض طويل، وتستطيع أن تخاف على جدتها. مع ذلك كان في وقفتها أمام هذا المطبخ فرح بصنعة نجحت، ولم تستطع نور أن تدخل ذلك الفرح بسهولة.

قالت تالا إن الرائحة مأخوذة من وصف كتبه يونس في رسالة قديمة عن خبز اشترته ميرا، ومن وصف آخر في ملاحظات البيت. بعض التفاصيل تخمين معلن، ويمكن إطفاؤها. طلبت نور المصدر، فظهر سطران عنهما. تذكر يونس أن الخبز احترق قليلًا لأن نور قاطعته وهو يسخنه. لم تتذكر الواقعة. تذكرت عشرات المرات التي قطع فيها أبوها الطرف المحروق وأكله هو، بينما يدعي أنه الجزء الذي يفضله.

جلست إلى المائدة. ظهر المقعد في موضعه كما توقعته تالا، لكن نور أرادت أن تحركه أكثر إلى اليسار. استجاب النظام. كان ذلك، بعد قليل، مصدر اضطراب آخر: لا شيء يعاند، لا رجل طاولة يحتك بالبلاط، لا اعتراض من أمها لأنها تسد الطريق إلى الحوض.

«أين وضعتِ الباب؟»

أشارت تالا خلفها. كان صحيحًا. لم تحتج إلى أن ينفتح كي تعرف أنها تجلس وظهرها إليه. طوال طفولتها كان هذا يعني أن أحدًا يستطيع أن يدخل من غير أن تراه، وأنها ستعرفه من صوته أو من الطريقة التي يصيب بها الضوء كتفه. انتظرت الحركة في جسدها قبل أن تنتبه إلى الانتظار.

قالت: «أطفئي الأصوات الخارجية.»

انخفض صوت المدينة القديمة. بقي الخبز دافئًا في الهواء. بعد دقيقة طلبت إطفاء الرائحة أيضًا.

فعلت تالا. سحبت يديها عن لوحة العمل، وتركت الغرفة ثابتة. رأتها نور تحاول ألا تسأل هل أخطأت.

«صنعتِه بعناية.»

«لكن؟»

لم ترغب نور في أن تكافئ الجهد بكلام عام ثم تجرحه بما يأتي بعده. قالت إن الأمر يحتاج وقتًا. سألت تالا إن كانت تريد أن تبقى وحدها، فوافقت. خرجت حفيدتها، وأبقت الباب الحقيقي مواربًا.

بعد قليل سمعت نور خطواتها في الممر، فالتفتت إلى الباب القديم داخل الصورة. لم تُفتح منه جهة. كان جسدها يخلط بين الاثنين. نهضت، وطلبت إطفاء العرض كله. بقي المقعد الحقيقي في الغرفة البيضاء، على مسافة لا تشبه شيئًا من المطبخ.

خرجت تالا من المكتب المجاور. كانت قد بدأت تفك الأسلاك الصغيرة التي توزع الرائحة. قالت إنها لا تريد أن تكرر التجربة إذا كانت تؤذيها. لم يكن صوتها غاضبًا، وهذا ضاعف حرج نور.

«لم أقل إنها تؤذيني.»

«جلستِ كما لو أنك تنتظرين أن ينتهي شيء.»

«كنت أنتظر أبويّ، على ما أظن.»

رفعت تالا رأسها. قالت نور الجملة التالية بسرعة، كيلا تتحول إلى طلب: «هذا ليس شيئًا عليك إصلاحه.»

قالت تالا إنهما تستطيعان إبقاء المكان من غير أصوات أشخاص. قالت إنها تعمدت ألا تستعمل محاكاة ميرا ويونس، وإن غياب الأجساد ليس نقصًا لم تنتبه إليه. رأت نور لأول مرة غضبًا صريحًا في وجهها.

«أنتِ تتحدثين معي كأنني لا أميز.»

تراجعت نور. كانت محقة. حفيدتها تعرف الفرق، وإن كانت لا تحمل تبعاته بالطريقة نفسها. قالت إنها آسفة على ذلك، ثم اقترحت أن تخرجا. لديهما موعد مع رحمة، وهي ستغضب إن وصلتا بعد الطعام وهي التي قالت لا تُعد شيئًا.

أخذت تالا جهازًا صغيرًا لتري رحمة المشروع. عند الباب ترددت، ثم وضعته في الحقيبة. كان من حق عملها أن يراه شخص آخر غير المرأة التي يرتبط كل تفصيل فيه بفقد خاص.

وجدتا رحمة في فناء مسكنها، تحاول فصل خرطوم ماء من صنبور. قالت إن الذراع الخدمية شدته أكثر مما ينبغي. قربها إناء زرعت فيه نعناعًا لم ينجح جيدًا. كانت في السادسة والسبعين، وتقف ببطء بعد الانحناء، لكن صوتها يصل قبلها إلى من يدخل.

«آجيوا. كنت أحتاج اثنتين من أجل هذا الخرطوم.»

فكت تالا الخرطوم، وأصلحت الوصلة التي جعلته يلتوي. عرضت أن تضبط الذراع على قوة أقل، فوافقت رحمة. كانت تغضب من الخرطوم الذي لا ينفك، كما يغضب أي صاحب بيت.

في الداخل كان الطعام جاهزًا لثلاث. قطعة قماش فوق الخبز، وخضار في صحن لا يشبه الصحون التي بقيت من المطبخ التعاوني. قالت رحمة إن آسية اشترته، وإنه لا ينكسر إذا وقع، لكنها لا تحب الصوت الذي يصدره إذا اصطدمت به الملعقة. ضربته لتسمعهما، فضحكت تالا وطلبت أن تجرب. قارنوا ثلاثة أصوات، ثم نسوا لماذا بدأ النقاش.

كان دفتر الوصفات على الرف. أصلحت تالا تجليده قبل عامين، وحافظت على الصفحات كما هي. أشارت إلى بقعة الزيت وقالت إن البرنامج يستطيع أن يستعيد الكلمة المرجحة تحتها. قالت رحمة إن الكلمة «قليلًا»، لكنها لا تعرف قليلًا من ماذا. لهذا لم تجرب الوصفة منذ سنوات.

«يمكن أن نبحث في النسخ الأخرى.»

«ومن قال إن صاحبتها كتبت نسخة أخرى؟ كانت تقول إن الكتابة للذين ينسون.»

قالت نور: «ثم نسينا.»

«هي أيضًا نسيت مرة ووضعت السكر مكان الملح. لا تجعليها حكيمة بعد موتها.»

ضحكت نور من حدة التصحيح. كان هذا أحد أسباب زيارتها لرحمة: تستطيع المرأة أن تعيد الموتى إلى أخطائهم، بدل أن تتركهم يتحولون في ذاكرتها إلى أشخاص لا يفعلون إلا ما يستحق الحفظ.

عرضت تالا صورة المطبخ القديم. اقتربت رحمة، وسألت أولًا إن كان هذا هو البيت الذي ضاع في الإجلاء. قالت نور نعم. كانت رحمة قد ولدت بعد زواله بثمانية وخمسين عامًا. حدقت في النافذة، ثم قالت إن الرف فوق الحوض منخفض، وإن رأسها سيصطدم به لو اضطرت إلى العمل هناك.

اعترضت نور: «لم يصطدم أحد به.»

«لأنكم كنتم أقصر.»

كانت ميرا أطول منها، لكن نور لم تقل. وجدت نفسها تدافع عن مطبخ لا تستطيع أن تدعو صديقتها إليه كي تثبت أنها مخطئة. ضحكت، ثم طلبت تالا أن تري رحمة الرائحة في وقت آخر. قالت المرأة إنها لا تثق برائحة لا يمكن أن تأكل بعدها، لكنها ستجرب إذا جلبت معها خبزًا حقيقيًا.

رن اتصال من رجل اسمه عزيز. ظهر وجهه قليلًا، ثم اختفت الصورة وبقي الصوت؛ لم يكن يحب أن يرى نفسه يتعب على الشاشة. سأل رحمة عن ألم ركبتها، فأجابته بأنها ما زالت تستطيع زيارة الحمام من غير لجنة. سمعتهما تالا فضحكت، فسأل عمّن يضحك في بيتها.

«حفيدة نور. قلت لك عنها.»

قال إنه تذكر، وطلب أن تحكي له عن العمل الذي صنعته. شرحت تالا بعضه، فطلب منها أن تعيد مجلس بيته الذي أُزيل، شرط أن تستبعد أخاه منه. بعد انقطاع الاتصال شرحت رحمة أن أخاه مات منذ زمن، وأنهما كانا يتخاصمان على كل شيء. قالت نور إن عزيز يزداد مرحًا في الكلام معها. أجابت رحمة بأنه لا يملك كثيرين يذكرون خصامه مع أخيه، فيستغله إلى أقصى حد.

بحثت رحمة في قائمة اتصالاتها عن اسم آخر لتسأله عن وصفة، ثم تذكرت أنه مات، وأغلقت القائمة. بدا وجهها منزعجًا أكثر منه حزينًا؛ كانت قد نسيَت أنها لا تستطيع سؤاله، وقد أفسد النسيان عليها الطبخة مرة أخرى.

بعد الطعام جاء موعد اجتماع السكان. كان تغيير في مسارات الحي سيُلغي الموقف القريب من بنايتهم، ويضع بدله نقطة تصلح للمركبات الأسرع. قالت رحمة إنها لا تريد الاشتراك من البيت، لأن المجلس يعدّ من لا يعترض موافقًا إذا انقطع اتصاله. رافقتها نور وتالا إلى القاعة الصغيرة.

جلس المشاركون حول طاولة، وبعضهم حضر بأجساد خدمة تتيح له العمل في أماكن أخرى في الوقت نفسه. تتابعت الخيارات أمام نور بسرعة تستطيع متابعتها إذا ركزت. رحمة لم تستطع. سأل المنسق عن اعتراض على المسار الثالث، فرفعت رأسها من الخريطة الثانية.

«لم نصل إليه بعد.»

توقفوا. أعاد المنسق الشرح صوتيًا. استمرت خمسة اتصالات جانبية بين المشاركين بينما يتكلم معها. رأت نور العلامات الصغيرة، وعرفت أن نقاشًا آخر عن المسار نفسه يجري من دون انتظار الصوت.

طلبت أن تُوقف المداولات الموازية حتى ينتهي العرض. قال أحد المشاركين إن هذا سيؤخر جلسات مترابطة. أجابته تالا قبل نور: «إذن لا تسموا هذه جلسة القرار.»

التفتت نور إلى حفيدتها. كانت تالا تعرف كيف يجري العمل وتعرف أن الشكل المعروض يخفي جزءًا منه. ثبت المنسق الوضع البطيء للجلسة،

وانتظر حتى أُغلقت القنوات المعنية. عندها فقط بدأت رحمة تتكلم عن الطريق إلى الصيدلية.

قالت إنها تستطيع المشي المسافة الجديدة إذا استراحت في المنتصف، لكن الخريطة لا تضع مقعدًا ولا ظلًا في ذلك الجزء. عرضوا نقلها من باب بيتها عند الحاجة. سألت عن حاجتها التي لا تعرف موعدها صباحًا: أن تخرج لأن الجو جيد، أو لأنها غضبت من مكالمة، أو لأنها تريد أن تشتري شيئًا ثم تقرر غيره في الطريق.

لم تكن هذه حاجات يسهل إدخالها في نموذج انتقال طبي. استطاعت نور أن تشرحها، وساعدتها تالا في إظهار المسار على مستوى العين بدل الصورة الجوية. وافق المجلس على مقعد ومظلة، وأبقى رحلتين بطيئتين في اليوم إلى حين إعادة التقييم. كانت النتيجة أفضل مما توقعته رحمة. شكرتهما خارج القاعة، ثم جلست على حافة حوض زرع لأنها تعبت من الطريق إليها.

قالت تالا إن القرار قابل للتمديد إذا استُعملت الرحلتان. سألت رحمة إن كان عليها أن تركبهما وإن لم يكن لديها ما تفعله.

لم يجب أحد بسرعة.

في طريق العودة مرت بهما مركبة مدرسية صغيرة. كانت وحدات التعلم موزعة على مجموعات تتصل عبر حواس مشتركة، وبعض الصغار يضحك بصوت مسموع وبعضهم لا يحتاج إلى ذلك. لوّحت تالا لطفلة تعرفها، فاستجابت الطفلة بحركة لم تفهمها رحمة. سألت عنها، فقلدتها تالا ببطء. حاولت رحمة أن تعيدها فأخطأت، فضحكن ثلاثتهن.

كان الضحك حقيقيًا. فكرت نور في سليم وهو يعرض على جده الحصاة، وفي الصبر الذي طلبته منه. تبدلت الجهة التي تحتاج إلى الإبطاء؛ وبقيت هي، على غير ما توقعت، تنتقل تدريجيًا إلى تلك الجهة.

عند باب رحمة عرضت تالا تركيب مساعد أبسط لمتابعة الاجتماعات. وافقت المرأة على تجربة، ورفضت أن تُجرى كلها اليوم. أرادت أن تجلس وتخلع حذاءها. جلست نور معها بينما ذهبت تالا إلى المطبخ تحضر ماءً.

قالت رحمة: «هل سألتك عن النماذج التي يزرعونها؟»

فهمت نور ما تعني. منذ أشهر ظهر مقترح لإعادة تكوين أجساد بشرية تقليدية من خطوط خلايا محفوظة، في بيئات محمية. لم تكن المسألة قدرة المختبر وحدها؛ كان على الأطفال المفترضين أن يكبروا في عالم لم يعد يرتب الماء والعمل والمدارس حول حاجاتهم. لم يجد المشروع أسرًا كافية تقبل استبعاد العلاجات التي تحمي أبناءها، ولا طريقة تجعل المحمية حياة عادية تمتد خارج أسوارها.

قالت نور إن تالا قرأت عنه، وإنها تعرف أن حفظ الخلايا لا يبني عائلة من تلقاء نفسه. سألتها رحمة إن كانوا توقفوا. قالت إن العمل البحثي مستمر، أما الكلام عن إعادة المجتمع فكان أكبر مما أنجزوا.

ظلت رحمة صامتة. توقعت نور أن ترفض الفكرة أو تسخر منها. قالت المرأة أخيرًا إنها تتمنى أحيانًا أن ينجح شيء، أي شيء يجعل الأمر أقل نهائية، ثم تغضب من نفسها لأنها تتخيل أطفالًا مسؤولين عن إراحتها من موتها.

«هل قلتِ هذا لآسية؟»

«هي تظن أنني أخاف المرض فقط.»

«يمكنك أن تقولي لها.»

«سأقول. حين أجد طريقة لا تجعلها تشعر بأنها لا تكفيني.»

كانت آسية ابنتها، ولم تكن غير كافية. رأت نور وجه أبيها حين حاول أن يحبها ويخاف مما يحدث في الوقت نفسه. لم يعد الأمر سؤالًا قرأته في خطة أو سمعته في مجلس؛ صار امرأة تحب ابنتها وتريد أن يبقى في العالم أشخاص يشبهونها، ولا تجد جملة تمنع الحب والخسارة من أن يؤذيا بعضهما.

عادت تالا بالماء، فغيرت رحمة الموضوع من تلقاء نفسها. سألتها عن صديق رأت صورته معها. احمر وجه الفتاة قليلًا، واحتجت على أن صورتين

لا تكفيان لاستجواب عائلي. قالت رحمة إن صورة واحدة كانت تكفي في أيامها، وإن هذا تقدم واضح في التساهل.

بقيتا حتى المساء. عند الخروج قالت تالا لنور إنها ستعدل المطبخ لتضع بجواره مصادر كل جزء وحدود ما أعادت بناءه، وتترك للزائر أن يختار ما يريد تشغيله. شكرتها، ثم قالت إنها تريد أن تزوره مرة أخرى، لكن من غير موعد الآن.

في المركبة فتحت تالا صورة قديمة للبيت، وسألت عن الفتاة التي تظهر قرب نور في احتفال مدرسي. كانت سهى. قالت نور اسمها بسرعة، ثم صمتت. لم تكن قد سمعت صوتها منذ زمن طويل؛ تباعدتا قبل أن تفترق المدن التي عاشتا فيها. أرادت أن تحكي لتالا عن ضحكتها، فوجدت أنها تتذكر رغبتها القديمة في أن تدخل تلك الضحكة أكثر مما تتذكر السبب الذي أضحكهما.

قالت تالا: «احكي ما بقي.»

حكت. تركت الفجوات كما هي. سمعت حفيدتها تضحك في موضع لم تتوقعه، ثم تعود فتسأل. لم تكن الضحكة هي نفسها، ولم تكن غريبة عنها.

عند البيت أرسلت رحمة رسالة قصيرة: «المقعد وصل إلى الخريطة. ننتظر أن يصل إلى الشارع.»

قرأت تالا الرسالة، وقالت إنها ستمر بالمكان بعد أسبوع لتتأكد. وضعت نور جهازها جانبًا، وجلست إلى النافذة. في الخارج كانت المدينة مضاءة بقدر حاجتها، بلا بقع مظلمة تقريبًا. أبقت الضوء الداخلي مطفأً قليلًا، حتى ترى الشارع الذي لم يعد ينتظرها كي يبدأ ليله.

الفصل الثلاثون

انتهاء حقبة

2406

طلبت رحمة أن يفتحوا النافذة مقدار إصبع.

قالت آسية إن الغرفة تتلقى هواءً نقيًا طوال الوقت، وإن فتحها سيغير درجة الحرارة التي ضبطها الفريق. نظرت رحمة إلى الستارة. لم تتحرك. أعادت الطلب من غير شرح، فاقتربت نور من النافذة وفتحت الجزء الصغير المسموح بفتحه. تحرك القماش قليلًا، ودخل صوت مكنسة تعمل في الساحة.

قالت رحمة: «كفى.»

لم تكن الكلمة طلبًا لإغلاقها. تركتها نور كذلك وجلست. كان الوصول من المقعد إلى النافذة عملًا يحتاج إلى أن تنهض على مرحلتين. في الخامسة والسبعين بعد المئة أصبحت تعرف، قبل أن تقوم، مقدار ما سيستطيع جسدها فعله ذلك اليوم. ساعدتها التحسينات والصيانة على بلوغ هذا العمر، ولم تتركها خارج العمر. بعض التعب له تفسير يمكن إصلاحه، وبعضه يدخل في الأشياء التي يتعلم المرء أن يحملها.

كانت رحمة في الثانية بعد المئة. على الطاولة قرب سريرها علبة الدواء ونظارة تقرأ بها قليلًا ثم تتعب. أمام العلبة صحن صغير فيه نصف ثمرة. آسية التي قطعتها بلغت الثمانين، وتبدو أكبر من الصورة التي ما زالت نور تحملها عنها: فتاة تجمع الصحون بسرعة وتجادل في عددها. في ذلك الصباح كانت تربط شعرها كما تفعل أمها حين تطهو، ثم تفك الرباط لأنه يشد فروة رأسها.

«ستأتي الممرضة بعد قليل»، قالت.

قالت رحمة إنها تعرف جدول البيت أكثر منهما، وطلبت أن تتركا الحديث عن الممرضة إلى أن تأتي. أرادت أن تسمع ما وقع لتالا في رحلتها. اتصلت نور بحفيدتها، فظهرت من مركبة متوقفة في الميناء. قالت إنها ستصل بعد ساعتين. قالت رحمة إن ساعتين لا تكفيان لتحسين قصة مملة، وعليها أن تبدأ الآن.

حكت تالا عن جهاز قياس أخذ يرسل قراءات صحيحة من الموضع الخطأ، وعن ثلاثة باحثين بحثوا عن عطل في الحساس قبل أن يكتشفوا أن الوحدة الحاملة لم تتحرك من مكانها. ضحكت رحمة، ثم سألت من دفع أجرتهم عن تلك الساعات. قالت تالا إنها لا تريد جواب هذا السؤال. انتهى الاتصال على وعد بأن تأتي قبل أن يبرد الطعام.

لم يكن هناك طعام كبير ينتظرها. صارت رحمة تأكل كميات صغيرة، وتنام خلال النهار أكثر مما تريد. تراجعت وظائف جسدها بعد مرض طويل، وتكررت الأزمات في الأشهر الأخيرة. عالجوها في المركز، ثم عادت إلى بيتها مع فريق يمر عليها وأدوات تكفي للرعاية التي اختارتها. كانوا يفعلون الكثير: يخففون الألم، يساعدون تنفسها، يمنعون التقرحات، ويصغون حين تقول إن شيئًا تغير.

جلست نور إلى جانبها تسأل عن مقعد الشارع. قالت رحمة إنهم أصلحوا ظلّه أخيرًا بعد أن طالبت مرتين. كان المقعد قد وصل فعلًا قبل ستة وعشرين عامًا، وظل في موضعه، ثم تغير مسار المشاة حوله حتى صار أقرب إلى محطة خدمة منه إلى الطريق الذي طلبته من أجله. لم يزل أحد الشيء الذي كسبته، لكن المدينة استطاعت أن تبتعد عنه.

قالت نور إنها رأته في الطريق. قالت رحمة: «إذن لا يحتاج أحد إلى أن يصوره لي.»

دخلت الممرضة، فتوقفت محادثتهما. سألت أسئلة قصيرة، وفحصت ما يلزم، ثم أخبرت رحمة أنها ستعود في المساء. لم تتكلم عنها في صيغة

الغائب وهي مستيقظة. أحبت نور ذلك أكثر مما تستطيع قوله. كانت قد سمعت أسماء تتحول إلى حالات قبل أن يغادر أصحابها الغرف.

بعد خروجها مدت رحمة أصابعها إلى الصحن، ثم أبعدته. قالت إنها لا تريد أن تأكل الآن. أصرت آسية قليلًا، فغضبت أمها، ثم تعبت من الغضب. خرجت آسية إلى المطبخ تحمل الصحن، وسمعتها نور تبكي مرة واحدة، بصوت قصير حاد، قبل أن تفتح الماء.

قالت رحمة: «اذهبي إليها.»

لم تذهب نور فورًا. طلبت من رحمة أن تناديها إذا احتاجت، فعقدت المرأة حاجبيها.

«لن أخرج في غيابك.»

وجدت آسية أمام الحوض، لا تفعل شيئًا بالماء الجاري. قالت إنها تعرف أن الإلحاح على الطعام لا يصلح كل شيء، لكنها لا تستطيع أن تحمل الصحن بعيدًا وفيه ما تركته أمها. أغلقت نور الصنبور، وأخذت الصحن. أكلت قطعة صغيرة بنفسها، ثم غطت الباقي. لم يكن هذا حلًا، لكنه جعل اليدين فارغتين.

جلستا في المطبخ الذي تعلمت رحمة أن تعيش فيه بعد إغلاق المطبخ التعاوني. هنا كانت آسية تأتي بأطفالها، وهنا غسلت الصحون حين مرضت أمها قبل سنوات، وهنا جرت خصوماتهما التي لم تدخل أي سجل عن آخر البشر. سألت نور عن ابن آسية الأصغر. قالت إنه في الطريق، وإنه لا يعرف ماذا يحضر معه؛ اشترى ثلاث هدايا، كلها لا تناسب امرأة تريد فقط أن يجيء.

«قولي له ذلك.»

«قلت. لهذا اشترى الثالثة.»

ضحكتا، ثم غلب البكاء آسية. انتظرت نور حتى انتهى الجزء الذي لا تستطيع الكلمات مرافقته.

جاءت تالا في الظهر ومعها خبز. جلست على طرف المقعد وأخرجت من حقيبتها صورة جهاز القياس الذي أخطأ. أرادت رحمة أن ترى حجمه. ظنت أنه أصغر، وقالت إن شيئًا كبيرًا كهذا ينبغي أن يخجل حين لا يعرف أين هو. نظرت تالا إلى نور وابتسمت. كانت تستطيع أن تميّز متى تمازح رحمة كي تبقى في المحادثة ومتى تتعب ولا تريد أن تقول ذلك. أغلقت الصورة بعد دقائق، وبدأت تتحدث مع آسية عن الحساء.

بقيت نور إلى جانب السرير. في ذلك الهدوء قالت رحمة إنها رأت عزيزًا في النوم. كان يقف عند باب المطبخ، ويقول إنه لم يحضر المال، فتجيبه بأنها لم تطلبه يومًا. توفي عزيز قبل خمس سنوات، في المئة والرابعة، وترك وراءه صورًا كثيرة لأخيه الذي كان يدعي أنه لا يطيقه.

«هل كان واضحًا؟» سألت نور.

«وجهه لا. صوته.»

أعادت رحمة العبارة التي قالها، ثم توقفت. سألت إن كانت قد أخبرتها هذا الحلم من قبل. قالت نور لا، فارتاحت. كانت تخاف التكرار أكثر من خطأ صغير في الذاكرة؛ تريد أن يبقى لكل زيارة شيء لم يسمعه ضيفها بعد.

لم يسألها أحد في ذلك اليوم عن كونها الأخيرة. كانت تعرف. وصلها الخبر حين مات عزيز، ثم جرى التثبت من سجلات الجماعات البعيدة، ومن البيوت التي بقيت خارج الشبكات الكبرى. استمرت المراجعة سنوات، لأن أحدًا لم يُرد أن يحوّل نقص الخبر إلى حقيقة. كل اسم محتمل عاد إلى شخص مات، أو إلى ذرية هجينة سُمّيت بشرية في سجل لم يُحدّث. لم يظهر طفل من التكوين القديم منذ 2304، سنة ميلادها.

قرأت رحمة النتيجة، ثم أعادتها إلى آسية لتحتفظ بها مع الأوراق. طلبت أن يظل اسمها أول ما يُكتب في المراسلات، لا عبارة «الحالة الأخيرة». كانت ترد على من يخطئ، حتى تعبت من الرد. بعدها تولت آسية الأمر.

في المساء وصل طلب من هيئة الذاكرة العامة لإجراء حديث أخير. تكررت الطلبات من قبل. قال أصحابه إنهم يريدون أن يسمع الجيل الجديد

صوت إنسان عاش الشكل القديم كاملًا. قرأت آسية الرسالة في الممر، ثم أرتها لنور. قالت إنها تستطيع رفضها، لكنها تخاف أن تحرم أمها قرارًا تريد اتخاذه.

سألوها. قالت رحمة: «عن ماذا؟»

شرحت آسية. نظرت المرأة إلى النافذة المفتوحة، ثم طلبت أن يسمعوا التسجيل الذي صنعته مع أطفال المدرسة عن المطبخ. قالت إن فيه صوتها وهي غير متعبة، وإنها نسيت فيه اسم نوع من الخضار، وضحكوا جميعًا. أرادت أن يبقى ذلك الجزء، وألا يُستبدل به تعليق يشرح أنها كانت قد بلغت عمرًا متقدمًا.

كتبت تالا الجواب كما طلبته، وأرسلته بعد أن قرأته آسية عليها. لم يأت فريق تصوير. بقي في الغرفة أهلها، وصديقتها، والخبز الذي لا تحتاج إليه الآن لكن آخرين سيأكلونه. كان هذا مقدارًا من العالم استطاعوا حمايته لها.

في اليوم التالي طلبت رحمة دفتر الوصفات. أحضرته آسية ووضعته على وسادة كي لا تضطر إلى رفعه. قلبت صفحات قليلة. قالت إن على ابنتها أن تأخذ النسخة الورقية، وإن نور تملك الصور. سألت تالا إن كانت قد استطاعت قراءة الكلمة تحت بقعة الزيت.

«وجدنا ثلاثة احتمالات.»

«إذن اكتبي الثلاثة. لا تختاري بدل المرأة.»

قالت آسية إن هذا سيجعل الوصفة مستحيلة. أجابت أمها: «كانت صعبة وهي بيننا.»

بعد ذلك طلبت حذف اسمها من جدول دروس الطبخ في المدرسة. بقي الاسم تقديرًا لها، وأُضيفت إلى جانبه كلمة «مؤسسة»، لكنها صارت تستاء كلما وصل إشعار عن درس لا تستطيع حضوره. قالت إن المعلمة الجديدة جيدة، وإن عليها أن تأخذ مكانها كاملًا. نفذت آسية الطلب، ثم أعادت الجهاز إلى جيبها قبل أن ترى أمها الدموع التي ملأت عينيها.

عندما نامت رحمة، خرجت نور إلى الساحة. كانت الشمس على المقعد الذي تحدثتا عنه. جلست ورأت فوقها ذراع صيانة تفحص سلامة المظلة. توقفت الآلة حتى تستقر، ثم تابعت من الجهة الأخرى. حُسِّنت هذه الأنظمة عبر أجيال من الشكايات والاختبارات، وصارت تعرف كيف تترك لمن يحتاج إلى الراحة مكانًا.

في الجهة المقابلة عبرت أسرة. أحد الوالدين جسد صناعي واضح المفاصل، والآخر من الهجائن ذوي الأنسجة الحية. بينهما طفل يحمل حقيبة تتغير ألوانها كلما اتسعت خطوته. اختلفوا على الطريق، فضرب الطفل الأرض بقدمه وأصر أن يذهبوا من جهة الماء. توقفت الأسرة لتسمعه. شاهدتهم نور حتى ابتعدوا.

عاشت الأنساب داخل أجساد جديدة، لكن العالم الذي كان الناس يولدون فيه ويشيخون ويُنجبون مثلهم انتهى إلى سرير واحد.

أتاها تنبيه بموعد صيانتها بعد أسبوع. ثبتته. ثم ظلت تنظر إلى الموافقة الصغيرة على الشاشة. كانت ستعتني بجسدها وتعود إلى حياتها بعد موت رحمة. لم يكن لديها اختيار آخر يجعل موت صديقتها أقل نهائية، ولا سبب عادل لكي تؤذي نفسها وفاءً لها. أغلقت التنبيه وبقيت جالسة حتى دعتها آسية.

في الليلة الثالثة ساء تنفس رحمة. جاء الفريق، وفحصها، وعدل ما يخفف ضيقها. بقي الطبيب في المنزل، واتصل بالمركز لطلب رأي آخر حول تغير مفاجئ. لم يكن هناك علاج غائب لأن المريضة بشرية. كانت الرعاية دقيقة وحاضرة، والجسد الذي بلغ نهايته لم يعد يستطيع الاستفادة من كل ما وُضع إلى جانبه.

سألت رحمة إن كانت ستُنقل. شرح الطبيب ما يستطيع المركز أن يضيفه، وما قد يرهقها في الطريق، ثم سألها عما تريد. طلبت أن تبقى ما دام يستطيع تخفيف الضيق هنا. اتفق مع آسية على العلامات التي ستجعلهم يعيدون التقدير. لم يغلق أحد المستقبل في جملة واحدة؛ ضاق وحده، مع كل ساعة.

جلست نور إلى يسارها، وآسية إلى اليمين. نامت تالا قليلًا في الغرفة الأخرى ثم عادت تحمل ماءً. لم تعد رحمة تريد القصص. فتحت عينيها مرة، وقالت لابنتها إن الحساء في الرف الأعلى. لم يكن هناك حساء في ذلك الموضع منذ أيام. قالت آسية إنها وجدته. لم تصحح أمها المعلومة ولم تحتج إلى مزيد.

بعد وقت طويل طلبت أن يرفعوا الوسادة. ساعدتها الممرضة. ارتاحت قليلًا، ووجهت نظرها نحو النافذة. كانت الستارة لا تتحرك لأن الهواء سكن. مدّت نور أصابعها إلى القماش، ثم توقفت. لم تُرد أن تصنع له حركة كاذبة كي تمنح صديقتها دليلًا على شيء لم تطلبه.

في الفجر جاءت نسمة قصيرة. تحرك طرف الستارة ولم يبلغ السرير.

ماتت رحمة بعد ذلك بقليل، بينما تمسك آسية كفها وتقول لها اسمها، لا صفتها ولا عمرها. كانت نور ترى وجه المرأة، تنتظر منه انزعاجًا صغيرًا من التكرار، أو ابتسامة تعرفها. بقي الوجه ساكنًا. فحص الطبيب، ثم قال الخبر بصوت يكفي من في الغرفة.

بكت آسية وهي منحنية على أمها. حاولت أن تقبل جبينها، فعاقها أنبوب، فأزاحته الممرضة بلطف. تراجعت نور لتترك لها المكان. سمعت شهقة امرأة تفقد أمها، واحتكاك قدم تالا بالأرض وهي تقرّب لها مقعدًا.

في الخارج واصلت مكنسة الساحة مسارها.

لم يصدر البيان قبل أن تُخبر الأسرة من تريد إخبارهم. تولت آسية إجراءات الوفاة، وجاء أبناؤها. كان في البيت من يحضر قماشًا، ومن يسأل عن موضع مفاتيح، ومن يعيد ترتيب الكراسي ليجد القادمون مكانًا. سأل أحدهم إن كانت الرحلة إلى المقبرة ستتأخر. أرادت آسية أن تُدفن أمها كما طلبت، قرب المكان الذي دُفن فيه من ربّوها، لا في موقع تُعده المدينة لزيارات الجمهور.

تحققوا من صلاحية المسار القديم. احتاجت المركبة إلى أن تسلك طريقًا أطول لأن بوابة الخدمة في الجهة الأخرى لا تتسع للمشيعين. اقترحت جهة

التنظيم نقل الجثمان وحده إلى الداخل وتلقي العزاء في القاعة الخارجية. رفضت آسية. لم ترفع صوتها؛ قالت إنهم سيسيرون معها حتى القبر. وجدوا طريقًا، واستغرق الترتيب ساعة إضافية.

سارت نور ببطء، وتالا بجوارها. لم يكن في المجموعة بشر من التكوين الذي عاشت به رحمة. كان هناك أحفاد وأصدقاء من الهجائن، وأجساد صناعية عرفتها في العمل والجوار، وأناس جاؤوا لأنهم أكلوا يومًا من يدها. حملوا نعشها بمساعدة آلة عند الجزء المنحدر، ثم استعادوا حمله حيث استوت الأرض. حفظوا ما استطاعوا من طقوسها لأنهم أحبوها، لا لأن الطقوس بقيت نظام الحياة الذي يعيشون فيه.

عند القبر قرأت آسية ما أرادت قراءته، وتعثرت في كلمة فأعانها ابنها الأكبر. تركوا لهم الفقد كاملًا، كما تركوا التراب يقع في موضعه.

بعد الدفن عادت نور إلى البيت مع الأسرة. أكلت قليلًا لأن آسية أصرت، ثم ساعدتها في جمع الأطباق. وجدت الملعقة ذات الوردة الزرقاء في درج صغير؛ أعادتها تالا قبل سنوات حين صار بيتها ضيقًا أثناء انتقال، ثم نسيتها. أخرجتها آسية وسألتها إن كانت تريدها الآن. أخذتها تالا، ولم تجعل من أخذها عهدًا على حفظ كل شيء.

في المساء وصل الإعلان الرسمي. لم يحتج إلى كلمات كثيرة: انتهت حياة آخر إنسان من الجماعات البشرية التقليدية التي ظلت المتابعة الممتدة تثبت بقاءها، ولا نسل على صورتها يواصلها. حملت السجلات أسماء الرحلات والبيوت والميلادات التي توقفت، وتاريخ آخر طفل سنة 2304. أُغلقت بعد مئة وسنتين خانة ظل الناس ينتظرون أن يدخلها اسم جديد.

كان لبعض المنصات عنوان آخر: اكتمال انتقال الحضارة. رأت نور العبارة، ثم فتحت الصفحة فوجدت تحتها صورة مدينة واسعة ومضيئة، ومعلومات صحيحة عن انخفاض الألم وارتفاع متوسط العمر واستقرار الإمداد. لم تكن تستطيع تكذيب هذه المنجزات. ما لم تجده بينها هو رحمة وهي تعيد صحنًا

إلى الرف، ولا أبوها ينتظر كرسيًا كي يصل إلى مقهى، ولا أمها تعجز عن ترك المسمار بعد أن انتهى عمله.

كتبت تصحيحًا قصيرًا، ثم محته. لم ترد أن تدخل في تلك الليلة نقاشًا يطلب منها أن تثبت أن موت عالمها خسارة. أبقت نسخة الإعلان في الملف الذي يضم اسم رحمة، وأغلقت بقية الصفحات.

بعد أيام اتصلت تالا لتعرض أن تأتي. قالت نور إنها تريد الخروج. سألَتها إلى أين، فأعطتها الموضع على الساحل، لا الاسم القديم للشارع. اختارت حفيدتها مركبة تسمح بنزولهما قرب الممر، وسألت عن المسافة التي تستطيع نور أن تمشيها. قالت نور إنها ستعرف حين تصل.

في الطريق مرتا بموضع المستشفى القديم. صار المركز الذي حل فيه قديمًا بدوره، وتعمل فرق على تحديث بعض وحداته. فوق المبنى أشجار معلقة تحفظ برودة الهواء، وتحتها ناقلات تمد الأجساد بما تحتاج إليه. لم يعد في الميناء قسم مخصص للحمولات التي يعمل فيها البشر التقليديون، ولا مدرسة تستقبل أطفالهم، ولا عيادة تنتظر حملًا على صورتهم. الأسماء التي بقيت على الخرائط تدل على استعمالات جديدة. حتى المطبخ التعاوني صار درسًا في تاريخ الحي داخل مدرسة تدرّس بطرائق لا يستطيع أصحابه القدماء متابعتها.

في الحقيبة التي على ركبتي نور قطعة إطار ملفوفة. أرادت أن تراها مرة واحدة في الضوء الذي صُنعت له. كان الشق مثبتًا كما تركته ميرا؛ لم تكمل نور إصلاحه بعد موتها. صار على جانب القطعة أثر أصابعها هي أيضًا، داكنًا قرب الحافة.

نزلتا عند الممر. تغير الساحل مرة أخرى، لكن الخدمة أتاحت الوصول إلى النقطة المسجلة على نحو أسهل مما أتاحته قبل مئة وعشرين عامًا. لم تنتظر نور إذنًا من عامل. فُتح لها مسار بطيء، وحجز النظام لها مقعدًا عند الجهة التي طلبتها. كانت تالا تمشي إلى جانبها، لا أمامها، وتترك لها أن تحدد متى تتوقف.

وقفت حيث استطاعت أن ترى البحر. الضفة الأخرى واضحة في بعض المواضع وتختفي خلف المنشآت في مواضع أخرى. عبرت الماء سفن لا يظهر على سطوحها أحد، كما كانت منذ طفولتها؛ غير أن صمتها لم يعد علامة على شيء سيأتي. كان هو حركة العالم المستقرة.

فتحت نور الغلاف. وضعت المقبض على كفها، ونظرت إلى اتجاه الضوء. لم يعد ارتفاع الأرض كما كان يوم جاءت مع أبيها. طلبت الإحداثيات القديمة، فظهرت في جهاز تالا ثم أطفأتها نور. تعرف الآن مقدار ما يمكن للخط أن يقوله، ومقدار ما يبقى خارج الخط.

قالت تالا، بعد وقت: «أستطيع أن أفتح نموذج البيت هنا. بالقياس نفسه.»

لم تكن تعرض أمًّا بديلة أو أبًا يستطيع الكلام. كانت تعرف ما تعرضه، وتعرف أن جدتها رأته قبل سنوات. انتظرت نور حتى هدأ ذلك الجزء منها الذي يريد أن يغضب من كل مساعدة لأنه عاجز عن قبول ما تحتاجه فعلًا.

«ليس اليوم.»

أغلقت تالا الجهاز. سحبت المقعد قليلًا ليكون في الظل، وجلست إلى جوارها. لم تقل إن البيت ما زال قائمًا في الذاكرة. استطاعت أن تترك المكان خاليًا معها.

تذكرت نور يد أبيها على كتفها وهي طفلة، ثم يده حول العصا يوم أخطأت موضع النافذة. تذكرت ميرا ترفع الإبريق لتسمع إن كان فيه ماء، وهالة تأكل الخبز وهي تعترض عليه، وسارة تطلب ألا يحمل ابنها وظيفة قبل أن يولد. رائد في الورشة، مقعد رحمة عند الباب، أسماء كثيرة كانت إذا نادتها جاء صوت من جهة ما.

أعادت قطعة الخشب إلى الغلاف. احتاجت إلى مساعدة في تثبيت طرفه، فأمسكته تالا حتى انتهت. وراءهما انفتح مسار لنقل وحدات صيانة، وانتظرت الآلة أن تبتعد امرأة أخرى عن الحافة قبل أن تمر. كانت تؤدي عملها بعناية تامة.

لم تنهض نور بعد.

أخذ النهار يتقدم على موضع المطبخ. اجتاز المكان الذي كان فيه الجدار، وبلغ الناحية التي كان يجلس فيها يونس. لم توقفه نافذة. لم يكن ثمة داخل يصل إليه الضوء.

تمت الرواية

آخر سلالة

ماذا يبقى من عالمنا
حين يصبح إنقاذ من نحبّ بداية تغيّره؟

في طنجة، حيث يفصل المضيق بين ضفتين، يعيش يونس وميرا وابنتهما نور على حافة عالم يتبدّل. أجساد تُرمَم، وأوجاع تجد علاجها، وحدود بين الإنسان والآلة تزداد غموضًا.

حين يطرق العلاج باب الأسرة، يصبح المستقبل سؤالاً شخصيّا: أي حياة نختار لأبنائنا، وما الذي نحمله معنا حين نعبر إليها؟

بين بيت يطلّ على البحر ومدينة تتعلّم إيقاعًا جديدًا، تتشابك حكايات الحبّ والذاكرة والإنجاب؛ ويغدو التمسّك بنافذة قديمة محاولة لحفظ شيء لا تعرف المدن كيف تعوّضه.

